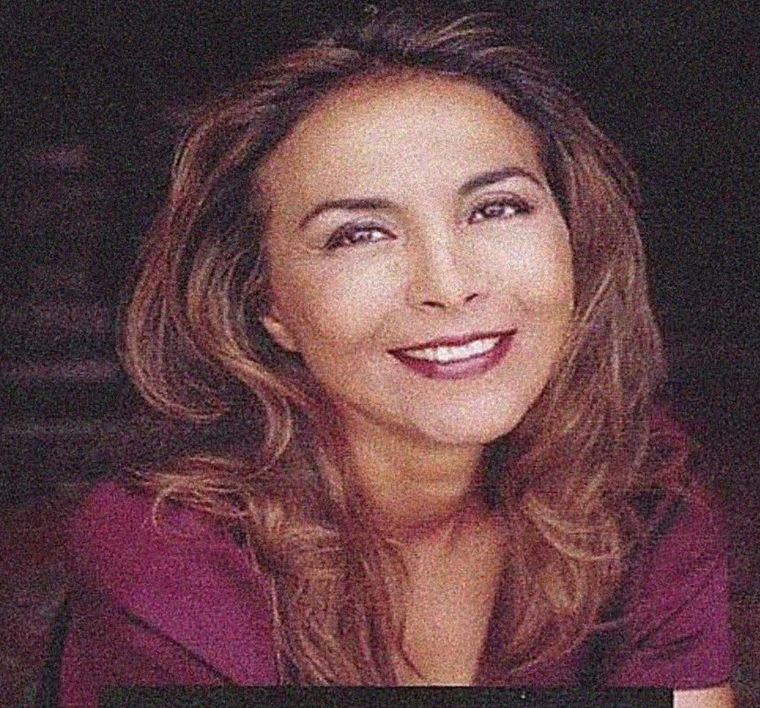
مليكة أوفقير

الغريبة



ترجمة حسين عمر

التنوير

علي مولا

خرجت مليكة أوفقير إلى الحرية، بعد عشرين عاماً من السجن. لم تكن مواجهة هذه الحرية بعد هذا الانقطاع الطويل بالأمر الهين.

ليس من السهل أن تعيش في عمر الأربعين، مع من هم في سنك، وكأنك عشت مثلهم، فيما أنت قضيت 20 عاماً منها في السجن.

ما عاد شيء كما كان، لا الأصدقاء، ولا اللغة المشتركة، ولا سائق التاكسي، ولا السوبر ماركت، ولا طريقة الحصول على الماء، ولا صرفه.

إنها حياة جديدة، لا يمكنها أن تنسى أو أن تتجاوز 20 عاماً من الغياب، وأيضاً لا يمكنها أن تعيش بعشرين عاماً إلى الوراء.



20 عاماً في سَجن...!

لكن رغم ركود ورتابة السجن، كتبت مليكة أوفقير كتاباً مثيراً للغاية، (السجينة) الكتاب الذي هز كل من قرأه، وحمل إليها تضامناً غير عادي.

كتبت في (السجينة) حياة السجن، والفرار منه، وتكتب في (الغريبة) الرغبة في استعادة الحياة، بكل ما تحمله من هجنة، بعد انقطاع دام 20 عاماً.

مليكه أوفقير

الغريبة

ترجمة: حسين عمر

الكتاب: الغريبة

المؤلف: مليكة أوفقير

المترجم: حسين عمر

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف وفاكس : 03 / 728365 - 03 / 728471 -00961/1 / 471357

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

سنة الطبع: 2007

:

العنوان الأصلي للكتاب:

MALIKA OUFKIR

L`ÉTRANGÈRE

Préface de Michèle Fitoussi

إلى ذكرى سعيدة منبهي

إلـــى جاندا وحدها، طبعاً.

حسين

مقدّمة

رنّ الهاتف نحو الساعة السابعة مساءً. عرفتُ في الحال، أنّها هي.

مليكة.

أو كيكا، بالنسبة لمن يحبّونها.

تستطيع مليكة الاتصال بي ساعة تشاء، كما لو أنّنا افترقنا في الأمس: إنّها في باريس لبضعة أيام، وستعود إلى ميامي لتعيش هناك بعد الآن، ستُقلع إلى نيويورك ومراكش ولوس أنجلس...

استأنفنا في الحال حديثاً متصلاً منذ ما يقارب تسعة أعوام. ثمّة الكثير من الأمور التي يجب أن تُقال. بدأنا بأخبار عائلتينا وزوجينا وأطفالي ونوال ابنتها بالتبنّي. ثم أخذتنا الثرثرة. عن حياتها الجديدة في الولايات المتّحدة، وعن أصدقائنا المشتركين، وعمّا يشغلنا راهناً.

تبادلنا الحديث فيما يشغلنا حالياً، وتبادلنا المشورة، كما تمازحنا كثيراً. لمليكة روح الدعابة وميلٌ واضحٌ إلى السرد الساخر، وهي دائماً مهيّأة لأن تسخر من كلّ شي، وخاصة من نفسها.

في ذلك المساء، هتفت لي من المغرب. من عادتها، حينما يكون لديها خبرٌ لتبلغني به، أن

تستخدم أسلوب المداورة على طريقة المرأة الشرقية. وتعود

إلى جذور الإنسانية. « سأحدّثك عن ليلى... ولكن في البداية، لابدّ من معرفة أنّه كان لجدّها عينان خضراوان وكبرياء رجلٍ من الصحراء...» ومضت ساعات وهي في سرد تكمن أهميته في طريقتها في تدبير الوقائع وفي جعلِ مستمعيها في حالة انتظارٍ وترقّب.

خلال أحاديثنا، فاجأنا بأن تستعجل ورجوناها أن تهتمّ بالوقائع. «Only facts»، مثلما ردّدت عليها سندس صديقتها الوفية. لم تبالِ مليكة بذلك. كانت، مثل شهرزاد، تودّ أن تأخذ وقتها الكافي. كانت بحاجة لأن تتناول وجبتها بانتظام. طبقٌ أوّل مشهّي، طبقٌ رئيسي، تحليةٌ، قهوةٌ، مهضمات. أي على النقيض تماماً من طريقتنا في العيش على الوجبات السريعة، التي تنفر منها.

جعلتها أصولها وتربيتها ومن ثمّ لمدّة سجنها الطويلة جداً أن تعزف عن مفهوم الساعات، وعن صيغة الأمر « حالاً ». كثيراً ما مرّت السنون وقلّما تملّكتها الرغبة في الامتثال لها.

مع ذلك، كانت، في ذلك المساء، تختصر الكلام. ذهبت مباشرة إلى الهدف أو كادت. قلتُ في نفسي أنّ الأمر هامّ . وقد صح ظنّي.

– ميشيل، هناك خبرٌ عظيم. لقد تبنّينا صبيّاً صغيراً. يُدعى آدم. عمره أربعة أشهر.

سمعتُ صوتها يرتعش. أحسست أنها على وشك أن تذرف الدموع، وشعرتُ بدموعي تنمو في مآقي. ساد الصمت بيننا

للحظات. لم ينقطع الخطّ بين مراكش وباريس، ولكن جرى فيه الكثير من الانفعال. لطالما تملّكتها الرغبة في إنجاب طفلٍ، كان ذلك بالنسبة إليها بمثابة جرحٍ لا يندمل. في بداية فترة اعتقالها، ترك فيها التهابٌ في الصّفاق عاقبة فظيعة، بعد أن كاد يودي بحياتها لانعدام الاهتمام والرعاية. لم تتمكّن مليكة من تحقيق أمنيتها الأغلى: أن تمنح الحياة. ومع ذلك، بذلت كلّ ما بوسعها.

لا زلتُ أتذكّر هيئتها الشاحبة، بعد ظهيرة كلّ يومٍ من تلك الأيام من سنة 1998، حينما كانت تأتي إلى بيتي هاربةً من ماضيها كسجينة. كانت تذهب كلّ صباح تقريباً إلى المستشفى في محاولة منها لتحدّي الطبيعة بجرعات من الأدوية كانت تُنهكها. بيد أنّ كلّ محاولاتها باءت بالفشل. كان يلزمها الكثير من الوقت و القوّة المعنوية لتقتنع بأنّها لن تُرْزَق بأطفالٍ.

طبعاً، هناك نوال إلى جانبها، نوال ابنة أختها العزيزة، التي تحبّها كابنتها. لدى وصولها إلى باريس، عام 1997، وجدت مريم، أختها الصغرى التي كانت تعاني من نوبات صرعٍ عنيفة، أنّه من المستحيل أن تربّي بمفردها الطفلة البالغة سنتين من عمرها. وكان والد الطفلة قد عاد حينها إلى المغرب ليعيش فيها. وشعرت مريم، بصحّتها الضعيفة، بلا عملٍ ولا مالٍ، أنّ لا حول لها ولا قوّة.

أخذت مليكة الصغيرةَ إلى بيتها، بموافقة زوجها ايريك. فمكثت نوال عندها. بحيث يشكّلون اليوم عائلة حقيقية. يقيمون معاً في ميامي، «لأنّ السماء دائمة الزرقة هناك»، بهذه

العبارة بررت لي مليكة سفرها. نورٌ لطالما حُرِمت منه عائلة أوفقير خلال كلّ تلك السنوات المظلمة.

سيأتي آدم ليتمم سعادتهم. فهو الطفل الذي حُرِمت منه طويلاً. طفلٌ يخصّها. لأنّ نوال، وان كانت عزيزة جدّاً على قلبها، لديها أبوان: فماما مريم، حتى وان لم تكن دائماً إلى جانب ابنتها، تبقى قريبة ومحبّة لها.

استرجعتُ في ذاكرتي وأنا أستمع إليها تكلّمني بكثيرٍ من الحبّ والسعادة عن هذا الصبّي، الذي يملأُ حياتها، كلّ الطّريق التي سُلِكَت مذ تلاقى قَدَرانا قبل تسع سنوات.

كانت تلك مغامرة غير مألوفة بقدر ما كانت غير متوقّعة. **Stolen Lives** في الولايات المتّحدة، **Die Gefangene** في ألمانيا، **La Prisionera** في إسبانيا أو **Printesa Captiva** في رومانيا... لقد فتنت رواية السجينة، التي تروي قصتها المذهلة، بترجماتها التي تقارب الثلاثين، ما يقارب مليون قارئٍ في العالم.

لم يراودنا الظنّ في ذلك المساء من آذار 1997، حينما التقينا في بيت صديقتنا المشتركة ثريا التي أقامت حفلة استقبال بمناسبة رأس السنة الإيرانية الجديدة.

تحبّ ثريا الاستقبال في مسكنها الفسيح الكائن في نوبي. حفلاتها ساحرة، يتكلّم المشاركون فيها الفرنسية والفارسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية...ونلتقي فيها بـ **golden boys** وبمنفيين إيرانيين وبأناسٍ ظرفاء جرى اختيارهم بعناية فائقة وبالكثير من النساء الحِسان.

جلست واحدة منهن برزانة، وصمت، إلى حافة حلبة الرقص... لاشكّ أنّها كانت تودّ الاختلاط بالآخرين لكنّ شيئاً ما كان يمنعها عن ذلك. شعرتُ بها مغتمّة كئيبة. أثارت اهتمامي وفضولي ولم أكفّ عن التفرّس فيها.

– هذه مليكة اوفقير، أرأيت مَنْ تكون؟ همست لي سوز، وهي محامية إيرانية تربطني بها صداقة طويلة الأمد.

لعبت سوز، الحسناء الطويلة السمراء المندفعة، دوراً حاسماً في هذه الحكاية. إنّها هي التي جعلتنا نلتقي بعد ذلك بمدّة وجيزة ، مثل الجنيّة الخارجة من قنديلِ زيت. في الشرق، لا توجد مصادفةٌ، القدر هو ما يقرّر. في ذلك المساء، ستكون سوز هي وسيط «المَكتوب». ما قالته لي للتو جعلني نهب التأمّل والتفكير.

طبعاً، عرفتُ مَن تكون المرأة الشابّة الحزينة. إنها الابنة البكر للجنرال محمد أوفقير، صاحب محاولة انقلابية ضدّ عاهل المغرب، الحسن الثاني، في 16 آب 1972، والذي كان حينذاك وزير دفاعه ورئيس أركان جيشه.

فشلت المحاولة. مات الجنرال أوفقير، أُعدم بخمس رصاصات في جسده. بعد الحداد الرسمي، أُرسِلَتْ عائلة أوفقير، فاطمة زوجة الجنرال وأطفالهما الستّة ومنهم مليكة البكر التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وعبد اللطيف أصغرهم الذي بالكاد بلغ الثالثة، إلى أعماق الصحراء، ليقبعوا في سجونٍ فظيعة لا إنسانية. أُريدَ لهم الموت فيها مجتمعين.

لقد حُسب ذلك بمعزل عن إرادهم في الحياة التي كادت تكون مشتركةَ بينهم. بعد خمسة عشر عاماً، تخلّصوا من قدرهم في نهاية فرارٍ مذهلٍ، جعلَ هذه المزق المتضورة جوعاً والمحكومة من قبل حاكمٍ مستبدٍّ تنبعثُ من الظلّ والظُلمة. كما قضت العائلة خمس سنوات تحت الإقامة في مراكش، عوملت خلاها على نحوٍ أفضل، ولكنّها ظلّت مأسورة.

في عام 1991، وبعد عشرين عاماً من الأسر، عجّل نشر رسالة الناقدة جيل بيرو الناقدة "صديقنا الملك" في إطلاق سراحهم. وقد احتاجوا إلى خمس سنوات إضافية ليحصلوا على جوازات سفرهم ويغادروا المغرب، بعد فرارٍ خياليٍّ ثانٍ، قامت به هذه المرّة، على متن سفينة، ماريا إحدى شقيقات مليكة الصغيرات.

عشرون عاماً. حياةٌ واحدة. انقبض قلبي لرؤية مليكة وسط تلك الحجرة الفسيحة، تحاول عفوياً أن ترقص ثم تعدل عن رأيها، وقد بدا عليها التأثّر والخجل أيضاً. كلما اشتدّت الموسيقى وباتت أكثر طرباً، كلّما رنوتُ إليها دون علمها، وأسرني حزنها العميق.

آنذاك دخلت سوز المسرح جدّياً. انتظرت إلى أن جلست مليكة ثمّ قادتني نحوها.

وكانت صعقة الحب، صعقة القلب، لنسمِّ ذلك كما نشاء. وُلدت صداقة للتو. لأنّها كانت مليكة ولأنّني كنتُ ميشيل، كما سنقول فيما بعد ضاحكتين. في الحال، شعرنا

بشدّة بذلك الفيض من الـودّ والانجـذاب المتبـادلين، وان لم نتبادل أيّ حديث، عدا الترّهات، كانـت عيوننـا تتبـادل الكلمات والابتسامات.

- ميشيل صحفية وكاتبة، تابعت سـوز. مليكـة، إذن، إنّها... مليكة أوفقير.

رسّخت نظرةٌ ثانية ومصافحةٌ ذلك التواطؤ الوليد بيننـا. أدرك رَجُلانا، اللذان كانا حاضرين معنـا في ذلـك المسـاء، حدْسيّاً وحتى دون أن يتداولا مع بعضيهما – لم يكونـا قـد تعارفا بعد – أهمية ذلك اللقاء في حياة كلتينا الخاصّة.

لدى انصرافنا من سهرة ثريا، تبادلنا أرقام هاتفينا.

أخذني رفيقها ايريك جانباً أغـرتني في الحـال نظرتـه الماكرة من خلف نظارتيه الصغيرتين المدوّرتين، وابتسامته الودّية ومصافحته الحارّة.

قال:

– اتّصلي بها. إنّها لا تعرف الكثير من الناس في باريس. فتستسلم للأفكار المحزنة وحيدة في البيت. وأنا أعمـل طيلـة النهار.

لدى عودتي إلى البيت، لم أنم تلك الليلة. لازمـني وجـه مليكة الحسن. طرحتُ على نفسي ألف سؤال. ما الذي ألمّ بها؟ كيف يشعر المرء بنفسه، حينما يبعث، حيّـاً، مـن سـرداب الدفن؟ مرّت رؤى مرعبة في مخيّلتي. قـرأتُ مقـالاتٍ عـن

قصّتهم، على فترات متباعدة، لا سيما في فترة فرارهم. كـــان فصلٌ من كتاب جيل بيرو مكرّساً لهم، ولكنّ الشهادات الـــتي رواها، وهذا ما سأعرفه لاحقاً، غالباً ما كانت غـــير دقيقـــة. كانت الحقيقة أصعب من ذلك بألف مرّة.

استولت حكايتها على كياني. أردتُ أن تقصّها عليّ مـــن البداية وحتى النهاية، أردتُ أن أعرف أدقّ تفاصـــيلها وأردتُ أن أكتبها معها. اختلط كلّ شيء في داخلي: الإثارة الصحافية والتروع إلى ما هو خياليّ واهتمام الكائن البشري بهذا القـــدر الغريب. ثمّ أن المرأة أثّرت فيّ، أثّرت فيّ للغاية.

لكنني لن أتجرّأ قط على سؤالها عن ذلك. لأنه قد يكـــون نكثاً بالتوازن الهشّ الذي أقيم بيننا ذلك المساء. أرسلتُ إليهـــا مؤلفاتي، على أملٍ أن تُعجبها وأن تشهد ضمناً على جدارتي.

بعد بضعة أيام، سمعتُ صوتها الواهن عبر الهاتف. ومـــن خلال لحظات صمتها، شعرتُ بما تعانيه من كرب وأسى. إنّها في باريس منذ ما يقارب ثمانية أشهر، تسكن في الدائرة الثالثـــة عشر في بيت ايريك. قلّما تخرج منه ودائماً بصحبته. تُخيفهـــا المدينة الكبيرة. كانت سجينة، ولا تزال كذلك في مخيّلتـــها، في سلوكها اليومي، على الرغم من الحرية المطلقة التي قدِّمت لها. لم تكن نوال، ابنة أختها، قد دخلت حياتها بعـــد. ولتمـــضية الوقت، كانت تشاهد التلفاز أو أفلام الفيديو.

اقترحتُ عليها أن نتناول الغداء معاً. ووافقت في الحال.

بعد ذلك بيومين، وأنا أجلس إلى المائدة رفقـــة مليكـــة،

أدركتُ على الفور بأنّني لم انخدع بها. هذه المرأة الـتي تأكـل السَلَطةَ بطرف شفتيها وبطريقة غاية في الرقّة كأميرة متميّـزة. أدركتُ شخصيتها الفريدة وذكاءها الوقّاد وتأهّبـها الـدائم وظُرفها و« شامة الجنون » تلك التي تمنحها قطعاً مكانة خاصّة.

إنّها هي من ستقترح عليّ كتابة ذلك الكتاب معها، بعد أن روت لي جانباً كاملاً عن طفولتها والذي كنـتُ أجهلـه ويعرفه القليل من الناس. في الخامسة من عمرها، جرى تبنّـي مليكة من قبل الملك محمد الخامس، لتكون إلى جانـب ابنتـه الصغرى الأميرة للاّ مينة التي كانت تصغرها بسنة.

عند موت الملك، تكفّل الملك الـشاب الحـسن الثـاني بالطفلتين. وستعيش مليكة أحد عشر عاماً بعيدة عن أسـرتها، بين الڤيلا حيث تعتني مربية ألزاسية بالفتاتين الصغيرتين بقبضة حديدية ، والقصر حيث يرعاهما العاهل الجديد بلطـف مـع عطف وصرامة أبويين. قلّما كان ينشغل عنهما: بـين حُـرَم الحظيات ولعبةً الغولف والفروسية والأسفار والحفلات، تلقّت مليكة تربية أميرة حقيقيّة. مع ذلك، ومع كلّ ما كانت عليـه من دلال، فإنّ القفص قفصٌ، ليس سجناً ولكنه حجز للحرية. في السادسة عشرة من عمرها، توسّلت مليكة إلى الملك كـي يفتح باب القفص. اشتاق ذووها إليها كثيراً. فوافـق الملـك. ستذوق الفتاة الشابّة لأوّل مرّة، ولمدّة عامين فقـط، عذوبـة العيش في كنف عائلة حقيقية. مع أخوة وأخـوات كانـت لا تعرفهم حتى هذه اللحظة، وأمّ كانت مولعة بها، اشتاقت إليهـا أشدّ الاشتياقِ أثناء غيابها، وأب قلّما أخافتـها سـلطته الـتي

كادت أن تكون مطلقة. لقد وجدت نفسها من خلال نسبها، وهي المنغلقة داخل حياةٍ تكتم حدودُها والتزاماتها على أنفاسِها.

بعد محاولة الانقلاب، واجهت مليكة مأزقاً مؤلماً. فوالدها البيولوجي حاول قتل والدها بالتبنّي، والذي، بالمقابل، قتل الأوّل، وأرسل، في حالة هيجانه، مليكة لتقبع في السجن مع كلّ أسرتها.

كانت مليكة تحبّ بشغف هذين الرجلين. لا يمكنها أن تختار بينهما ولا أن تكرههما على الرغم ممّا ألمّ بها. حينما تفكّر بالملك الحسن الثاني طيلة سنوات الحبس الطويلة تلك، لا تُقدم على الوثوق بأحد. يبدو لها أنّها ستخون ذويها لو أنّها فكّرت به بمحبّة. فهم لا يرون فيه سوى جلاّد. تتحسّر مليكة على الرجل الذي رعاها.

القدر الفريد لمليكة يرفعها، رغماً عنها، إلى مصاف بطلة لتراجيديا قديمة. المؤامرة، الخيانة، الموت العنيف، الانتقام، القسوة: هذه الأحداث الطارئة التي تبدو وكأنّها من زمنٍ آخر صاغت صيرورة حياتها. كانت المحاكم الملكية مسرحاً لمآسٍ فات منطقها معظم الفانين. سحرني كلّ ما روته لي عن ذلك، ولا زلتُ لا أعرف سوى بدايات مسيرتها.

طالت فترة الغداء. لم تعد لدي رغبة في الرحيل. تتقن مليكة لعب جميع الأدوار، وجميع الشخوص. تكون بالتناوب إمرأة مسنّة أو طفل، تنتقل من الضحك إلى البكاء والعبرات في أقلّ من لحظة.

لقد سبق وطُلب منها أن تكتب قصّتها. ورفضت كلّ العروض. تريد أن تشعر بالأمان. وعلى حين غرّة، اعتقدت أنّها وجدت فيّ الشريكة المثالية. تعارفنا منذ أمد قريب، ولكننا شعرنا بأنّ الصلة التي شرعت تُنسَج بيننا متينةً. وباستمرار، ستختبرني خلال الشهور التالية. ودون أن أدري ذلك، تجاوزت «الاختبارات» الحاسمة في نظرها. تخشى مليكة كثيراً الخيانة، بحيث أنّها تحتاج إلى أن تطمئنّ في كلّ لحظة إلى الصداقة التي تربط الآخرين بها.

وأقنعها جان –كلود فاسكيل، الذي استقبلها، بالانكباب على الكتابة. لقد سارت الأمور بينهما بيسر. طرح عليها المعلّم الكبير لدار نشر غراسيه، متأثّراً بالعينين الحزينتين لمليكة وبقصّتها التي يعرفها جيّداً، ومفتوناً بسحرها وبهيبتها، صراحةً، السؤال الوحيد الهام في نظره. السؤال الذي يبرهن لها أنّ المقصود سوف لن يكون تحقيق « سبقٍ » في مجال النشر، وأنّ هذا الرجل الشهم يحسب قبل كلّ شيء حساب سلامتها.

– هل أنت متأكّدة من أنّ كتابة هذا الكتاب ونشره سوف لن يلحقا الأذى بكِ، ولا بأسرتكِ؟

كان الحسن الثاني لا يزال حيّاً ولا يزال يقبض على بلاده بقبضة من حديد. وكتاب جيل بيرو محظورٌ في المغرب. وقد وضِع ناشره، أنطوان غاليمار، الذي زار الدار البيضاء بمناسبة معرضٍ للكتاب، تحت الإقامة الجبرية في فندقه لثلاثة أيام. هذا يعنيً أنّنا قدّرنا المخاطر. فقرّرنا أنّ وحدهم أقاربنا سيُطلَعون على السرّ. وسنستخدم حيلاً بارعة طيلة عام كام

للحديث عن كتابنا عبر الهاتف. في كلّ حديث، استخدمتُ مسجّلتين. وأخفى ناشرنا اليقظ مانويل كاركاسّون، الذي أظهر دعماً أكثر من نفيسٍ أثناء كلّ مغامرة هذا الكتاب، نسْختيْ الأسطوانات في خزنة. ربّما بدا ذلك من سخف الطفلي: إذ ما الذي تجازف به في فرنسا؟ ولكن لم ينسَ أحدٌ من أين قدمت مليكة، ولا ما عانته، ولا قُدرة جهاز الاستخبارات المغربي، حتى خارج بلاده.

واجهنا حادثٌ عرضيّ في حرصنا واحتراسنا. كانت مليكة بحاجة لأن تتيقّن من أنّها مستعدّة لتقول كلّ شيء. وستكون رحلة قصيرة إلى المغرب حاسمة بالنسبة لها. في أيار 1997، قررت الذهاب لرؤية والدها في الدار البيضاء أثناء عطلة آخر الأسبوع. اُحتُجزت مليكة هناك لستّة أشهر. اُشتُبهَ بأنّها تريد كتابة شهادتها. فمَن الذي أخبر بهذه الدقّة المخبرين الذين كانوا يضايقونها؟

والمفارقة أنّ ذلك الحادث العرضي أعطى لمليكة الدافع الذي كانت تنتظره. وحينما التقيت بها من جديد في كانون الأوّل، كانت قد نضجت لرحلتنا الطويلة في ماضيها.

شكّلت سبعة أشهر من المناقشات بواقع ثلاث «جلسات» أسبوعياً، من بداية كانون الثاني وحتى نهاية تموز 1998، المرحلة الأولى من العمل. أكتب كلمة «جلسات» بمعرفة. ولتلطيف الجو بعد اعتراف مؤلمٍ على نحوٍ خاص، كنتُ أهمس لها غالباً، بعد أن أطفئ المسجّلة:

– حسناً، أنت مَدينة لي بـــ 300 فرنك، هذه هي التعرفة التي سيأخذها منكِ أَخصّائيٌّ نفسي، أليس كذلك؟

طبعاً، كانت تقهقه وهذا ما كنتُ انتظـــره. أن أجعلـــها تضحك. في مكتبي الصغير الذي كنا نجلس فيه متقالبتين براحة واطمئنان، كانت تُعقَد جلسةٌ سريّة غريبـــة، يقطعهـــا أحيانـــاً أطفالي وهم يطلّون في الوقت المناسب لتخفيف التوتر.

هي تتكلّم وأنا أتخيّل. غالباً ما يعتصرنا الانفعـــال معـــاً. وغالباً ما كانت الكلمـــات تخـــذلها. وتفقـــد القـــدرة علـــى الاستمرار. ولا ألحّ عليها. وستعود بنفسها، فيمـــا بعـــد، إلى الأحداث التي ترهقها.

أحاول أن أتمثّل ماضيها. كل شيء يفرّقنا. الدين، الثقافة، التربية، الدراسة. لم أعش قطّ في قـــصرٍ ملكـــيٍّ، ولم أعـــرف شخصيّاً لا ملوك ولا محظيّات ولا كبـــار الخـــدم، ولا مربيّـــة ألزاسية. وكجمهورية مقتنعة، يشقُّ علـــي أن أتمثّـــل رعايـــا خاضعين لملك ذي سلطة مطلقة. كما لم أحظَ بحيـــاة المراهقـــة الطائشة تلكً، والفتاة ذات المقام العالي، والشباب الزاهي لابنة المجتمع المخملي.

حتى وان كنتُ أعرف الشرق مـــن خـــلال إقـــامتي في السنوات الخمس الأولى من حياتي في تونس التي ولدتُ فيهـــا، فقد بدا كلّ ذلك بعيداً جداً عني.

بينما كان الزمن يمضي بطيئاً جداً في سجنها، وهذه أيضاً تجربة لم أكن أعرفها، درستُ وعملتُ وأحببتُ، وعرفتُ اليُسر

والعسر، ككلّ الناس، ولكن بمقياس كلّ الناس. لقد تزوّجت وطلّقت وأنجبتُ طفلين أعشقهما. إنّ حياتي، على ابتذالها، هي قبل كلّ شيء ما أنجزته خلالها. أنا سيّدةُ مصيري. أمّا مليكة فليست كذلك. في الأربعين من عمرها، وجب عليها أن تتعلّم الحياة. وهذا أكثر ما يفرّقنا في العمق، هذا الزمن الساكن بالنسبة لها والثريّ باللقاءات والعواطف بالنسبة لي.

ومع ذلك نحن قريبتان من بعضنا. ونشعر بذلك كلّ يوم أكثر من ذي قبل. أفهم وجعها، أجعل منه وجعي. أحياناً أصبح فاطمة، أمّها التي كانت عقوبتها الأكثر قسوة بلا ريب: لقد حُبست مع عبد اللطيف، أصغر أبنائها، لأحد عشر عاماً دون أن يكون لها الحقّ في رؤية أولادها الآخرين. لم يكن بوسعها سوى أن تتخيّلهم من خلال الجدران السميكة للسجن. على بعد بضعة سنتمترات، كانوا يرون انطفاء شبابهم وجمالهم، دون أدنى أملٍ في الخروج إلى النور. هل هناك عذابٌ أفظع من هذا بالنسبة لأمّ؟

لقد نجحت في أن تدسّني في جلد كلّ واحد من إخوتها وأخواتها. أنا عبد اللطيف الصغير، الذي سُجن في عمرٍ صغير جداً لدرجة أنّه حينما سيفرُّ رفقة ثلاثة ممّن يكبرونه، سيرنو بفضولٍ لهم إلى عالمٍ يجهله. لم يرَ قط طريقاً ولا بقرةً ولا شجرةً ولا عمارةً ولا حمّاماً. أو أنّه لم يعد يتذكّرها. لم يستطع سوى أن يتخيّلها. وحدها الحكايات التي روتها مليكة تربطه إلى الواقع.

أنا أيضاً رؤوف، الوحيد واليائس في زنزانته، الذي يحلم بوالده وبالحيوات التي لن يعرفها. ونحن أيضاً الفتيات الثلاث.

ميمي التي بقيت راقدة لسنوات عديدة جراء انخفاض حادٍّ في الضغط والتي تعرف أن تحدّد الوقت، بدون ساعةٍ، لأختها الثانية بالقرب من أسفل فراشها المحشو بالقش؛ وسكينة وماريا، المسجونتين في العاشرة والحادية عشرة من عمرهما على التوالي، واللتان تنتظران كلّ شيء من مليكة. علاوة على أنّها أختهما البكر، ستكون أمّهما ووالدهما و مربّيتهما، ومنارهما التي تضيء ذلك الليل الطويل الذي لا نهاية له، تلك التي توحي بالأمل وتمنع الانهيار والاستسلام. تلك التي ترغمك أن تبقى كائناً بشرياً.

أخيراً، أنا عاشورا شنّا وحليمة عبودي، ابنة العم والخادمة، اللتان لم تشاءا أن تتركا آل أوفقير في منفاهم، وتقاسمتا طواعية مصيرهم، دون أن تتذمّرا أبداً.

كلّ واحد منهم يشبه شخصية روائية. حينما التقيت بهم أخيراً، شقّ عليَّ أن أصدّق نجاتهم ووجودهم. يتحرّكون أمامي، يفكّرون، يتكلّمون، إنّهم تلقائيون. لم يعد كلام مليكة ولا كلماتي هي ما يجعلهم يحيون. في البداية، شقّ عليّ بعض الشيء أن آلف ذلك.

حينما روت لي مليكة فرارهم، تمسّكتُ بأريكتي وكأنّني أمام رواية مغامرات أو فيلمٍ مبهر. ستستمرّ الحكاية أسبوعاً كاملاً. بعد ظهيرة كلّ يوم، حينما كانت تختم حكايتها بعبارة:« أنا متعبة، سنلتقي غداً »، كنتُ أشعر بنفس الضيق الذي يشعرُ به من يتعلّق بمسلسلٍ تلفزيوني وهو يرى على شاشة تلفازه العبارة القدرية: « يتبع ». في الصباح، حينما

أستيقظ، أتفاجأ بالبحث عن نظارتي على طاولة السرير لأقرأ تتمّة القصة التي لم أكتبها بعد...

حينما أكون معها، لا أملّ أبداً، أضحك، أبكي، أرتجف، أرتعش. ويقلقني تأخّرها. يدور الزمن. تتّصل بي.

– ميشيل، لقد تغيّر شارع بيتك هذه الليلة: لقد اختفى بيتك.

لعشرِ مرّات، لعشرين مرّة، جاءت إلى بيتي ولا تزال تخفق في العثور على طريقه. أُقهقه.

– والمترو؟ ألا يزال موجوداً على الأقلّ؟

أساعدها بصبرٍ وأناة في استعادة وجهتها. ولحسن الحظ أن الهاتف المحمولَ موجود. إنّه بوصلتها، مفتاحها السحري، دليلها، إنّه حصاة بتي بوسيه petit poucet* لإرشادها (1) وسيلةُ الإبقاء على الاتصال مع الواقع، أي نحن، إيريك وأمّه فرانسواز وبعض الأصدقاء والأقارب.

ولا أضجر عندما أنكبّ على الكتابة. 40 أسطوانة. 1500 صفحة من المخطوطات. لا بدّ من الحذف والشطب والتشذيب. لربّما أمكننا أن ننشر ثلاثة أجزاء. اخترنا أن نتوقّف بالضبط بعد استعادة الحرية، مع بعض الصفحات في

* petit poucet: عنوان حكاية للأطفال واسم شخصيّتها الرئيسية التي كانت تصفّ الحصى لتستدلّ بها على بيتها، وهي للكاتب الفرنسي الشهير شارل بيرو (1628-1703) وله أيضاً حكاية ذات القلنسوة الحمراء –المترجم-

النهاية لنعرض السنوات الخمس التي أمضيناها في المغرب بانتظار الوصول إلى فرنسا.

في البداية، كنا قد استحضرنا فكرة حوار بيننا، مليكة وأنا. بيد أنّ قصّتها خيالية لدرجة أنّني قرّرتُ كتابتها بصيغة الشخص الأوّل لنعطي تجسيداً أكثر للكتاب. خلال تلك الأشهر الثلاثة من الكتابة، وأنا حبيسة منزلي أمام حاسوبي، بلا طعامٍ تقريباً، عصبيّةٌ ومنهوكةٌ، وبلا اهتمامٍ بأهلي الذين، لحسن الحظّ، لم يحتجوا، كنتُ أنا مليكة.

– لقد جعلتني الفرد الثامن في عائلة أوفقير، قلتُ لها متظاهرةً بالتشكّي، خلال مخابراتنا الهاتفية الخمسين في كلّ يوم.

مانويل كاركاسون هو قارئنا الأوّل. وإذ تأثّر بالقصّة في الحال، أبدى فضولاً حيال كلّ التفاصيل وحتّى على إعادة السؤال عنها، كلون ثوب وعيني محظيّة وقسوة سجّان. كان لديّ، في دفتر ملاحظاتي، حتّى مخطّط زنزانة بير- جديد، مرسوماً ومعلّقاً عليه بخط يد مليكة، لكي أفهم أكثر ما ترويه لي.

بدأتُ أرتعد أمام تلك الجدران الورقية. ذات يوم، كانت حقيقية. ظلّ الثقب الذي أشارت إليه برأس القلم لتشرح كيفية تواصلها مع أمّها، من زنزانة إلى زنزانة، على حاله.

رسمت نموذج جهاز الصوت البدائي الذي صنع من قبلهم. كانت تتيح لهم كلّ مساء الاستماع معاً إلى الراديو، رغم

الحواجز السميكة التي كانت تفصلهم عن بعضهم، وتتيح لمليكة رواية قصصٍ لجمهورٍ عائليّ محرومٍ من كلّ شيء.

وكان مخطّط النفق، الذي حُفر على مدى ثلاثة أشهر بملاعق صغيرة وأغطية علب معدنية، دقيقاً أيضاً. في الليل، عانيتُ من الكوابيس. هربتُ معهم. قبض الحراس عليّ ثانيةً. استيقظتُ عرقانة لأجد بأنّها لم تكن سوى كوابيس، وأنني في سريري في جوّ حارّ. حدث لي مراراً أن شعرتُ بأنني مذنبة برفاهيتي البسيطة تلك.

حتى إذا كانت الصحافية تطالب بالمزيد من الإيضاحات، كان لديّ في الغالب الهواجس من أن أفاجأ مليكة بذلك، من أن أوقظ في كلّ مرّة الوحوش. من كلّ ما روته لي، كانت حكاية موت أبيها أكثر ما بلبلها وأثار هياجها. شقّ عليها أن تعيد القراءة. هناك الكثير من الأمور التي لم تروِها قطّ لأيّ شخصٍ.

خلال كلّ تلك السنة، شاهدتُ مليكة تتغيّر. تستعيد الثقة بنفسها. لا تزال تقلّل وتُسيء التغذية بطريقة فوضوية، ولكنّها استعادت وزنها. غالباً ما تضحك. يمنحها ايريك الحبّ الذي تحتاجه لتعود من جديد إلى العالم. لم يعد لديها ذلك المظهر الشبحي ولا تلك النظرة الطفولية التائهة التي تثير الرغبة في احتضانها لمواساتها والهمس لها « لن يتكرّر ذلك أبداً».

قرّرت أن تنظّم حياتها: أن تتزوّج وتُنجب وتنقل مسكنها

وتتزوّج. في تشرين الأوّل من عام 1998، كنّا حفنة من الأشخاص في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة لحضور زواجها. كان جورج كيجمان، محاميها خلال الأيام العصيبة، حاضراً.

وكان الجميع متأثّرين أشدّ التأثّر.

تخيّلتُ أبّهة الزيجات وبذخها في القصر، وفكّرت في ما كان سيكون عليه زواجها في العشرين من عمرها، في المغرب، لو لم يكن قدرها قد انقلب. عرضت لي صوراً لها في عيد ميلادها الثامن عشر ملصقة في ألبومٍ من الجلد الأحمر، وهي أحد أشياء الماضي النادرة الناجية منَ الإعصار. أقام والداها حفلة راقصة احتشدت لها الدار البيضاء بأكملها، وحضرها حتى الأمير مولاي عبد اللّه، شقيق الملك الحسن الثاني. بذلك الثوب الطويل من ماركة ديور، وشعرها المنتظم، وابتسامتها المتصنّعة بعض الشيء، لم أعرفها. حقّاً أنّها كانت واحدةً أخرى.

جرت حفلة العرس عند والدَي ايريك، في ثانوية راسين، التي كانت مديرتها فرانسواز بوردروي، وهي سيّدة قويّة الشكيمة، لها ابتسامة ساحرة وظرف ابنها. التقيتُ بتلك المناسبة بأفراد عائلة أوفقير الذين لم أكن أعرفهم بعد.

أُعجبتُ بجمال فاطمة الخارق. وهي في الستين من عمرها، لا يحمل وجهها الذي لا زال يحتفظ بشبابه – كأنّها الأخت البكر – أيّة أمارة على محنها. وحده الحزن الأبدي في أعماق عينيها الكبيرتين الكئيبتين يشهد على آلام الماضي.

شددتُ على يد رؤوف الذي أدهشني وقاره وشبهه بوالده.

اكتشفت ماريا، امرأة جميلة، في غاية الأناقة، عازمة على نسيان الماضي، وعبد اللطيف شابٌّ وسيمٌ وخجول. وكنتُ قد التقيت من قبل بسُكَيْنة الفتاة المسترجلة ذات الساقين الطويلتين كشادن، والتي تحلم بالنجاح في مهنة الغناء، وميمي، الرقيقة والطيّبة، الّتي تكتب أشعاراً شجيّة. ونانو الصغيرة، وهي البُنيّة الحازمة والفضولية، التي على الرغم من الزأزأة* الخفيفة في نطقها، لها رأيٌ في كلّ شيء، وتوشوش بصوتها الجهوري وهي تحدّجك بعينيها المدوّرتين كحبتي زيتونٍ سوداوين.

كما تعرّفتُ إلى والد ايريك، بيير بوردروي، وهو باحثُ ذو مظهر وديع وجذّاب مثل الأستاذ نيمبوس، بلحيته وشعره الأبيض الثلجي؛ وأخته ماريون، شبيهة إيريك الشقراء، وبولو، جدّته، وهي سيّدة مسنّة مدهشة، ذكيّة وحيوية. جميعهم يحبّون مليكة وعائلتها، يتفهمونهم ويعتنون بهم ويحمونهم ويقيمون بينهم وبين العالم الخارجي جسراً من المحبّة والعناية. هؤلاء الناس المدهشين يبعثون الدفء في القلب.

كانت مليكة محظوظة بأنّ جرى تبنّيها بهذه الطريقة. وهي تعرف ذلك: فبادلتهم محبّتهم وأحبّت ايريك حبّاً شديداً. حينما يُنظر إليهما من الخارج، يشكّلان ثنائياً رائعاً، ومؤثّراً للغاية حينما تُعرَف حكايتهما.

منذ صدور الكتاب في شباط 1999، كان نجاحه** سريعاً

* الزأزأة، هي لفظ الجيم (ج) كحرف الزين (ز)
** أي كتاب: "السجينة"

ومفاجئاً لنا. تسابقت إليه حتى قبل ترجمته، محطات التلفزة والإذاعة والصحف الفرنسية والأجنبية. وانهالت الطلبات على مليكة. وأعمل كلود دالا تور، الملحق الصحافي لدار غراسيه، والسيجارة بين شفتيه، بهمّة ونشاط علاقاته بالصحافة. لم يهدأ للحظة, وسيبقى الكتاب، الذي يحقّق أفضل المبيعات على الإطلاق، لأسابيع عديدة على رأس قائمة المبيعات.

في اللحظة التي انخفضت فيها المبيعات، أنعش موت الملك الحسن الثاني الفضول حيال المغرب وسنواتها المظلمة وحكاية عائلة أوفقير. وكانت تلك انطلاقة جولة إعلامية واسعة، ومن جديد قفزت السجينة إلى رأس قوائم المبيعات. كانت مليكة حزينة بغرابة لموت الملك. حتى بمعرفة مشاعرها المتناقضة وجدانياً– غالباً ما تحدّثنا عن ذلك– ربّما كنتُ لأتصوّر العكس.

ولكن كلا. إنّ كلّ شبابها هو ما تبدّد معه نهائياً، هذه المرّة. بقيت متسمّرة طيلة النهار أمام تلفازها الذي التقط بثّ القناة المغربية وانفعلت وهي ترى بشرود القصر والحظيّات والملك محمّد الخامس على صهوة جواده المزيّن بالريش. هل ستنتهي مليكة ذات يوم إلى حلّ مع ماضيها؟

مع ذلك، سوف تساعدها المقابلات التي ستعطيها، في فرنسا أوّلاً، ومن ثمّ في كلّ مكان، في التئام جراحها. ولو أنّها أصبحت رغماً عنها كائناً إعلامياً، ومطلوبة باستمرار من قبل صحف وتلفزيونات العالم بأسره، ومعارض الكتاب وحفلات التوقيع واللقاءات. كما التقت بأصدقاء منسيين، ومعارف

قدماء لوالديها أو من الفترة التي كانت فيها فتاة شابّة من المجتمع المغربي السعيد، وتلقّت بريداً غزيراً. وبات استخدامها للوقت مثقلاً جدّاً لدرجة أنني قدّمت لها فيلو فاكس بدلاً عن الدفتر المدرسي ذا المربّعات الصغيرة الذي كانت تكتب فيه مواعيدها. لستُ متيقّنة من أنّها استخدمته. ولكن كان ذلك مناسبة للتفكّه بيننا من أجندتها الجديدة كوزيرة.

خشيت أن يكون ذلك مفرطاً وأن يجعلها تجترّ ماضيها سريعاً. ما حصل هو العكس. لفرط ما روت حكايتها، تعزَّمَت مليكة . لا تكل أبداً من تكرار حكايتها حتى وإن كانت جولاتها في أوروبا، حيث يلقى الكتاب نجاحاً، لاسيما في ألمانيا، تنهكها أحياناً و تترف طاقاتها.

يرغمها وهنها وضعفها على أن تراعي صحّتها. غالباً ما تعاني من آلام غامضة أسميتها «أوفقيريات» في محاولة مني للتخفيف عنها. تعاني من آلام في الرأس أو البطن, يبقى تشخيص أسبابها مجهولاً وتزول إن لزمت السرير لبضعة أيام.

لقد قضم السجن جسدها من الباطن. الأفراد الآخرون للعائلة يعانون بدورهم من هذه الآلام. وبعضهم يعاني من أمراض أكثر خطورة.

اهتمت السينما بحكايتها. دعتها ناتالي مارسيانو، وهي منتجة سينمائية شابة من أصل مغربي، إلى لوس أنجلس حيث تعيش. أبت إلا أن تنتج الفيلم. لن يحدث الأمر في النهاية، ولكن مليكة ارتبطت من جديد مع أمريكا شبابها، حينما كانت تحلم بأن تصبح ممثلة.

وجذبتها تلك البلاد بشكل حاسم من خلال اوبرا وينفراي. التقت المرأتان بمناسبة الجولة الأمريكية لمليكة لدى صدور الكتاب في الولايات المتحدة.

اوبرا, «سيدة شيكاغو » التي تسيطر على اثنين وعشرين مليون مشاهد في العالم وتحقق أفضل الأعمال رواجاً والتي يتخاطفها الأمريكيون – توني موريسون التي دفعتها إلى القمة، تدين لها بمبيعاتها الهائلة - افتتنت بمليكة وبالكتاب وجعلت من نادي أوبرا كتاب الشهر من خلال شرائها لسبعمائة ألف نسخة دفعة واحدة من الناشر الأمريكي. ولم تفعل ذلك قط مع كتاب فرنسي آخر.

بفضلها سيبقى السجينة لأكثر من عشرين أسبوعاً على رأس قائمة الكتب الأفضل رواجاً لصحيفة نيويورك تايمز.وهذا أيضا لم يحصل قط لكتاب فرنسي.

حينما اتصلت بي مليكة لتزفني الخبر، ذكرتها بأنها، حينما كنا نحن الاثنتين محبوستين في مكتبي، كانت تتوقف عن الكلام لتسألني بحسرة:

– ميشيل ...أجيبيني بصراحة. مَنْ سيهمُّ هذا الأمر ؟

– أنا، كنت أقول دون اضطراب. أنا. هذا يسحرني. هلاّ تابعنا؟

أحياناً كنا نتوقف، ونحلم. وماذا لو سار الأمر على ما يرام؟

حدثتها ذات يوم عن اوبرا:

- أتعرفين، هناك في الولايات المتحدة، ذلك البرنامج التلفزيوني الذي تنتجه وتقدمه تلك المرأة المذهلة التي أصبحت أكثر شهرة من رئيس الولايات المتحدة. إنها تهتم بالحكايات الشبيهة بحكايتك. هل تتصورين لو..؟

ولكن لم نشأ أن نتخيل أي شيء. ذلك بعيد المنال جداً وغير واقعي تماماً. فواصلنا العمل .

استدعتنا اوبرا في أيار 2001 إلى شيكاغو. كانت مليكة ضيفتها النجمة. كان الجمهور عبارة عن هيئة من ربات المنزل الأمريكيات، القادمات من أركان البلاد الأربعة والمنتخبات من بين آلاف المرشحات. ماري من فيسكونسن وسو ايلن من أتلانتا تتجاوران مع جيسي من نيوجرسي. كل هؤلاء النساء قرأن بدقة Stolen Lives (حيوات مسروقة)، هكذا عُنوِنَ كتاب السجينة في الولايات المتحدة.

« لقد أُغرِمْنَ بالكتاب »، أسرّ لنا غريك، مساعد أوبرا.

لقد صُمِّم العرض حقّاً على الطريقة الأمريكية. قبل البرنامج أحاطنا الجميع برعايتهم. وقبل التسجيل ببضعة دقائق أُجْلِسْنا في الصف الأمامي. نحن، أي ميمي، أخت مليكة، ناتالي مارسيانو وأختها جويل، ميشيل شريكة ناتالي وأنا. أشاعَ القائمُ على البرنامج الدفء في الصالة.

وصلت أوبرا إلى خشبة المسرح، ملكيّة ومهيبة في ثوبها الأصفر. طرحت الموضوع وألقت أسئلة على الجمهور. ثم

انضمت إليها مليكة بحبور شديد وسط احتفاء وترحيب. فتحت أوبرا ذراعيها مستقبلة إياها: "ملكية أنتِ بطلتي"

-Malika, you` re my hero

وتمّ الأمر. بكى الجميع، بين الجمهور وعلى المنصة. وحتى نحن الخمسة، ذرفنا الدموع. استغلّ أحد الحاضرين بث فيلم عن مليكة فوزع محارم ورقية على الحضور ورحّب بهم.

بعد البرنامج الذي كان انتصاراً كبيراً، غادرنا على وجه السرعة. التقطت أوبرا معنا، ومن ثم مع مليكة، الصور التقليدية التذكارية. صفقت تصفيقاً سريعاً وانتقلت إلى الحالة الأخرى.

لدى خروجنا تجولنا من جديد مشياً على الأقدام في "مغنيفسانت ميل" الجادة الرئيسية في شيكاغو. بحثنا ونحن لا نزال تحت تأثير البرنامج، عن مطعم.

قلتُ:

- مليكة، أجيبيني بصراحة. بماذا تشعرين بعد أن كنتِ الضيفة الرئيسية للبرنامج الأكثر شهرة في العالم؟

توقّفت. أطرقت في التفكير. نظرت إليّ.

- أنا سعيدة. ومرتاحة للغاية. أنا لا أبالي بالنجاح والمال، أنت تعلمين ذلك. ما يهمني هو أنّني حققتُ أمنية راودتني في السِجن. في بعض الأيام، حينما كان السجن قاسياً للغاية، كنتُ، لأعين نفسي على الصمود، أردّد مراراً وتكراراً الجملة التالية: ذات يوم، سيعرف العالم أجمع حكايتي. اليوم،

بفضل أوبرا، يعلم اثنان وعشرون مليون مشاهد عبر العالم ما جرى لنا. لقد تحققت أغلى أمنياتي.

تبين لي بأنه سيمكنني بسهولة أن أكتب كتاباً كاملاً عن كيكا. مرة أخرى، سأتنحّى جانباً وأترك لها الكلام. حينما كنّا نشتغل على السجينة كنتُ أدري بأنّ تلك الفكرة كانت تراود ذهنها.

كان لدى صغيرتي هيبيرناتا، العائدة من بلاد الموتى، الكثير والكثير من المواضيع المثيرة للاستغراب أو الحيرة أو الغضب، وهي تراقب عالم الأحياء، لما كان المجتمع قد آل إليه خلال عشرين عاماً. كان كلّ شيء يصدمها ويفزعها ويؤنبها. إنها حساسة للغاية. غالباً ما كانت تستخف بنفسها وبصعوبة حياتها اليومية.

ثمّ أَبَتْ إلاّ أن تروي تجربتها في النجاة التي تشاطرها مع الكثير من السجناء الذين قضوا فترات طويلة في السجن، أمثال نيلسون مانديلا، والنّاجين من سجن تزمامارت للأشغال الشاقّة، والكثيرين سواهم، والقائمة تطول كثيراً. كيف للمرء أن يتعلم من جديد أن يعيش بعد السعي إلى النجاة؛ النوم، الحلم، التغذية، الحب، المشي...ما يبدو لنا عادياً وما بدا لها، آن أُطْلِق سراحها، أنه لا يقاوم. تقدّم من جديد شهادتها. بإنسانيتها وبفكاهتها المتحفّظة.

كيكا الحاضرة بيننا. أنا سعيدة بأن تجدي، أخيراً، هناك في ميامي، بين ايريك ونوال وآدم الذي سينضم إليكم قريباً،

ملاذكِ الآمن. بيتك الصغير. ركنكِ الضيّق من الفردوس.

غالباً ما أفكر بك. وإن كنّا نلتقي قليلاً. رغم مزاجك الغريب الأطوار (ما كَنت أبداً متصنّعة) أعرف، في الحقيقة، برؤيتك ألف مرّةَ أثناء العمل، أنّك من خيرة الأشخاص. مستعدّة لعبور الأطلسي لتنامي في غرفة المستشفى، على الأرض وعلى فراشٍ رديء، لأنّ صديقة مريضة بحالة خطرة تحتاجك. لم يكن لقاؤنا عبثاً. ما بعد الكتاب، هناك ترجمات ونجاحٌ عالمي وإمكانية أن تعيدي بناء ذاتك بعد إدلاء هذه الشهادة للعالم، كما أنّ هناك ما أثرته في: الإعجاب بشجاعتك، وصبرك، وإرادتك. وفوق كلّ شيء ذلك الشغف بالحريةَ الذي جعلكم، أنتَ وعائلتك، في حالة تأهّب قصوى، تستردون مصيركم بيدكم وتحفرونَ نفقاً تحت زنزانتكم. هذا درسٌ جميلٌ في الأمل.

لم أتصوّر قط أن يكون الألم مخلّصاً. لا يصبح المرء بالضرورة صالحاً لأنه قاسى محناً مرعبة.

ولكنك يا عزيزتي كيكا، كنت من طينة أخرى. وبقيت كذلك. روح جميلة سامية. امرأة حقيقية.

ميشيل فيتوسي

باريس، كانون الثاني 2006

الرجل الأوّل في حياتي

آدم. صغيري آدم، حبيبي، حياتي. لقد احتجتُ إلى كلّ هذه السنين وكلّ هذه المحن، حتى أولَد أنا بنفسي وأسلّم بواقعيْ. لقد ولدَتْ امرأةٌ في حين أن امرأة في عمري، تكفُّ أحياناً، عن أن تكون كذلك. يمكن لامرأةٌ طبيعية، إن كانت تعجز عن منح الحياة، أن تنقذ على الأقلّ حياة. إذ كان آدم ليكاد أن يموت. ما كان أحدٌ ليعلم بذلك. إنّه طفل المعجزة.

في الطابق الأوّل من مبنى رابطة حماية الطفولة الذي كان الضياء الساطع لمراكش يغمره، أخذت الرائحة المشرَّبة بالحليب والسكّر والأسرّة والأدوية بتلابيبي. كلّنا متساوون هنا. امرأةٌ شابّة محجّبة، باسمةٌ، تلعب على مقربة من امرأة إسبانية تنتظر منذ أسابيع الطفل الذي وعدَتْ به. جئتُ أتبنّى طفلةً. أنا محظوظة: فهناك واحدة. طفلةٌ رائعة شُبكَ شعرها، إنّها الفتاة الوحيدة بين ما يقارب الثلاثين من الرضّع الذكور الذين يبكون أو يئنّون أو ينامون بوداعة. إنّها هادئة. لاشكّ أنّها كانت تأمل قدومي. أخذتها بين ذراعيّ. لم أفهم. لم أشعر بأيِّ شيء. لِمَ هذا الغياب للمشاعر؟ أليس ذلك جائرٌ على نحو مرعب؟ شعرتُ أنّ هذه الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين لن تكون طفلتي. تفحّصتُ الرضّع من خلال الزجاج الواقي لمهودهم. كنت متوتّرة، على عتبة اللحظة الأهمّ في حياتي. مدّت أميّ، فاطمة أوفقير، التي كانت ترافقني، كرةً من شعرٍ داكنٍ وجلدٍ متغضّنٍ. قالت لي بكلّ بساطة: « هذا هو؛ إنّه ابنك. » كيفَ استطاعت أن تعرفه بيقين كهذا؟ « لا أدري يا أميّ، هذا صبيّ.

نعم، انّه ابنك»، قالت متشبّثةً برأيها. أخذتُ بين ذراعيّ ذلك الكائن الصغيرَ البالغ أسبوعين من عمره، والذي بالكاد يزن ثلاثة كيلو غرامات، وشعرتُ في أعماقي بفرحٍ ممزوجٍ بألمٍ وخوفٍ. شعرتُ في لحظة بتمزّق وبأعباء الأمومة.

آدم هبةٌ من السماء، لأنّ السماء أنقذته. كمعظم الأطفال الذين يتوقفون في هذا المَيْتَم، لا ريب في أنّه تُرِكَ في مستشفى مراكش من قبل أمّه الأكثر فقراً من أن تستطيع إطعامه. سأعلم فيما بعد أنّه في حزيران 2005، وفي أتون حرارة الصيف، كانت متسوّلة مسنّة تحمله تحت إبطها، مجعّداً كصرّة قماشٍ متّسخٍ، يوشك على الاختناق. للأسف لاحقت الشرطةَ، الخبيرةَ للأسفِ في هذا النمط من التهريب، تلك التعسة، وأنقذت الطفل، الذي عُلّقت صورته لاحقاً في إعلان في كلّ مخافر مراكش لمنح الأمّ فرصة العودة عن قرارها. ولكنّها لم تفعل. في تموز 2005، قرّرنا، ايريك وأنا، تبنّي ذاك الذي سأسمّيه آدم. بعد الكثير من الإجراءات الإدارية، لكون التبنّي غير جائز في الشريعة الإسلامية*، حمل اسمي. اسم أبي. أوفقير. إنّها طريقتي في ألاّ أنسى من أين أتيت. احتجتُ إلى هذا الطفل- المشعاع. منحته هذه الكنية غير المألوفة، لأزيح كلّ ألمي، لأنسى القتلة الذين سرقوا عشرين عاماً من حياتي، بإسنادهم إليّ إلى الأبد دور الضحية، وبحرمانهم لي من قدر كلّ امرأةٍ: الحقّ في الإنجاب. كنتُ أحسُّ بنفسي ضعيفة منهارة.

* التبنّي كما ينصّ عليه القانون الفرنسي محظور. بالمقابل، يلجأ الوالدان الراغبان في تبنّي طفل إلى الكفالة. والمقصود هو وصاية أو تفويض سلطة قرابية تتوقف عند بلوغ الطفل لسنّ الرشد.

أشعر أنّ جزءاً مني مبتور. كنتُ قد تألّمتُ كثيراً لعجزي عن منح طفلٍ لايريك، إلى درجة أنّنا كنّا نصل أحياناً إلى حافة الانفصال. لم أعد أريد أن أكون ضحيّة، ولا أن تكون لي رسالة أطلقها للعالم. أريد أن أعيش، لا أن أنجو.

ليس هذا بيسير. كنتُ منذ بعض الوقت وليّ أمر نوال ابنة أختي، التي أحبّها كما لو أنّها ابنتي وهي تعيش معنا في ميامي. ولكن لنوال والداها. كانت نقطة التحوّل مباغتة وغير متوقّعة. كنتُ قد التقيتُ سندس أثناء حملة إنسانية لمنظّمة صيادلة بلا حدود بينما كنّا نعبر رمال الجنوب المغربي. كانت تكافح حينها التراخوما، وهو مرضٌ يصيب العين. وقد اضطرّت صديقتي الوفية جدّا سندس، وعلى نحو غريب، أن تخضع في شباط 2005 لعملية جراحية في مستشفى باريسيّ. كان الموت قاب قوسين أو أدنى من الحياة. كنتُ أنام إلى جانبها كلّ مساء، وكانت تحدّثني عن التبنّي. إنّها هي من أقنعني بهدوء أنّ من الممكن مواجهة الأمر. كان حبُّ ايريك، وسخاءه وجلده، يدفعني أيضاً نحو ذلك الطفل الذي لم أكن أعرفه بعد. انتظرتُ عشرة أعوام كي أتّخذ القرار بأن أكون أمّاً، لأقرّ بأنّه هناك أيضاً حريّةٌ يمكنني معانقتها. يمكنني أن أحظى بقدر يخصّني. كلمةٌ ذاتُ مذاق غريب على شفتاي، الحرية. حريّةٌ مرّةٌ، طبعاً. من قصر محمّدٍ الخامسِ الذي كنتُ فيه أميرة لا تُمسّ إلى السجن الكريه الذي كنتُ فيه شهرزاد بين أهلي، ومتى لم أكن سجينةً؟

العقبات والحواجز في كلّ مكان، الحقيقية والخفيّة،

وخاصّة في رؤوسنا. ولكن ليس هناك أسوأ من أن تكوني سجينة. نفكّر على نحوٍ أفضل. نتعلّم من الزمن الذي يمرّ. بدأتُ حياتي الثالثة، بعد السجن في المغرب، والتدرّب الأليم على الحريّة في فرنسا. أدركتُ بأنّه لم يكن هناك سوى الحبّ. الحب الذي نمنح، الحبّ الذي نتلقّى. أدركتُ هذا الأمر البسيط جدّاً. كان الوقت يحين لذلك.

الحرية المرّة

دقائقٌ معدودة، وسوف يعبر الشبح الثقيل للطـائرة 747 ستارة الغيوم، فاتحاً أمامي سماء الحرية نهائيّاً. في جهة ما، علـى مسافة عشرة آلاف متراً تحت قدمَي، ينتظرني رجـل حيـاتي وعائلتي وأصدقائي وحياةٌ جديدة تكاد تكون بكراً، وكأنَّ تلك السنوات الأربع والعشرين من السَجن المنعـزل لم تكـن إلاّ كابوساً. السماء زرقاء، زُرقةٌ تكاد تكون خياليّـة، وشـعرتُ بنفسي كأنّي في عالمٍ آخر.

ابتعدت السواحل المغربية وتوارت، ولاحت إسبانيا. كم من السنوات كنتُ سأحتاج لأصل إلى هنا، في هـذه الطـائرة المصمّة بهديرها، وسط وجوهٍ غريبة...

بدأ كلّ شيء في عام 1958، حينمـا اسـتُقبلَت الفتـاة الصغيرة التي كنتُها في القصر بناءً على طلـب الملـك محمـد الخامس (1911- 1961)، خَليفة النبيِّ، وسـليل العلـويين، لأُربّى فيه كأميرة إلى جانب ابنته للاّ مينة، الابنة الأثيرة المدلّلة للملك وللاّ بهية. كان اسمي يعني في اللغة العربيـة « الملكـة الصغيرة ». كنتُ إلى ذلك الحين « الملكة الـصغيرة » لمحمـد أوفقير، والدي. وسأصبح على نحو غريب الأمـيرة بـالتبنّي، الهزليّة، النبيهة والحزينة في آن، لبلاط من القـرون الوسـطى كانت المحظيّات فيه يتجسّسنَ على بعضهنّ، والحُرُمُ تنغلق على العيون الكئيبة للمفضّلات، وكان الخدم فيه يصلحون سلوكك مباشرة بسوطٍ. أنا مدينةٌ لشخصيّتي القوية في مقاومة التعلـيم

الأكثر من صارمٍ لجان ريفل، المربيّة الإلزاسية، المرسلة إلى الملك من قبل كونت باريس. هذه العانس بعينيهـا الواسـعتين ذات الزرقة الفاقعة وكرهها للرجال، والتي لم تكن تحبّ لا تنـاول الطعام ولا التسلية، سوف تعوّدنا على تناول خبز الباغيـت*. إلا أنني لن أنسى الضحكات المشتركة والنزهات بعربة الخيل، والقصور ذات الصحون الدوّارة العملاقة وحلبات التـزلّج في ايفران المخصّصة لنا وحدنا. متأرجحة بين الشرق والغـرب، أتكلّم الفرنسية في بيت أهلي والعربيـة في القـصر، راعيـتُ عبارات لهجة البلاط. أينما أحلّ في المغرب، أُسأل باستمرار ان انتسبتُ إلى

«Dar-el-Mahzran»، أي دار السلطة. ولكنني لـستُ أميرة، وبقية حياتي، التي قضيتها في السجن، سوف تؤكّد ذلك. كنتُ، ولا زلتُ، حروناً، على كلّ شكلٍ للسلطة. تحت طيش طفولة باذخة، كان تمرّدٌ يقبع في أعمق أعماقي. لم أكن أريد أن أكونَ نكرةً. مسبقاً! مذ كانوا يتبنّونـك في الـبلاط، كـانوا يقطعونك عن ماضيك وعن جذورك، كانوا يفعلون كلّ ما من شأنه إقناعك بأنّه لم تعد تملك عائلة. كانت السراي تعجّ بنساء لا هويّة لهنّ، بنساء مجهولات كنّ يختمن حيـاتهنّ حزينـات في عزلة ترتسم تغضّناً على وجوههنّ، بعد أن كنّ قد مجّدْن مخدع الملكَ. طبعاً، كنتُ أحبُّ الحسن الثاني، أبي بالتبنّي، الـصارم، الساخر، قبل أن يصبح الجلاّد الشرس لأهلي. كنـتُ أريـد الخروج من القفص، كنتُ حبيسةً، ولكنني كنتُ أعلـم أنّ لي عائلة وأريدُ الالتقاء بها.

---

* الخبز الفرنسي الشهير

أحياناً حينما أروي هذه الحكاية الخارقة، أشعر بأنّ الناس لا يصدّقونني. يتساءلون: أخذ طفلة في الخامسة من والـــديها؟ قد يبدو هذا قاسياً، ولكن كان من المستحيل لوالديَّ أن يرفضا طلباً كان يصدر عن ملك يقبّل الناس يده راكعين. حينها، كان أبي جندياً، متزوّجاً منذ 29 حزيران 1952 من الحسناء فاطمـــة شنّا، البالغة من العمر 15 عاماً، ولم يكن قد أصبح بعد الرجـــل الثاني في النظام. كان الفارقُ في السنّ بين والدَي عشرين سنة. ولدَ محمد أوفقير في 29 أيلول 1920 في عين شـــعير، في إقلـــيم تفيلاليت، منطقة نفوذ البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كـــان لقبه أوفقير يعني «المفْقَر». في السابعة من عمره، فقد والـــده، أحمد أوفقير، زعيم القرية، وقد لقّب بـــ باشا بودنيب من قبل الماريشال ليوتي: سرعان ما حلّ الجيش محلّ عائلته في حياتـــه. كان متألّقا، ولا جدال في ذلك. في الحادي والعـــشرين مـــن عمره، تطوّع كملازم احتياط في الجيش الفرنسي، جُـــرح في إيطاليا، ونال رتبة نقيب في الهند الصينية، ثمّ عُيِّنَ سريعاً رئيس مرافقي محمّد الخامس. مع تولّي الحسن الثاني للسلطة، الـــذي توّج في 3 آذار 1961، حاز على ثقة الملك الجديد. إبّان الأزمة العصيبة لاختطاف زعيم المعارضة السياسية المهدي بن بركـــة* في سان – جيرمان، في عام 1965، اتّهم بالتواطؤ وحُكمَ عليـــه غيابياً بالسجن المؤبّد من قبل فرنسا. كان حينها جنرالاً، وزيراً للداخلية.

كان يقال عنه بأنّه كليُّ السلطة. وقـــد كـــان كـــذلك بالفعل. اتخم النظام بالفساد والاستبداد ومظاهر بـــذخ ملـــكٍ

* زعيم يساري للمعارضة، خُطِف في باريس، في 29 تشرين الأوّل 1965، واختفى أثره بعد ذلك –المترجم-

يدعمه الغرب دعماً مطلقاً. بعد انقلاب الصخيرات، غيّر الخوف معسكر والدي. ذات يوم من تموز 1971، اقتحم فوجان من المدرسة العسكرية للملازمين قصر الصخيرات أثناء الاحتفال بعيد ميلاد الملك. قتلوا المئات من المدعوين، ونجا الملك بالاختباء في المغاسل. دافع والدي، الموالي للجيش المتمرّد ولكنّه المنعزل عنه، عن براءة 1081 تلميذاً من الضباط وتمّ له ذلك. وظلّ متأثّراً بقسوة القمع والعقاب. تغيّر أبي واكتأب، حلم بحياة جديدة، أكثر بساطةً وتجرّداً.

مع ذلك، لم يسبق أن ركّز هكذا سلطات بين يديه. سمّيَ وزيراً للدفاع، قائداً لأركان القوات الجوية الملكية. كان يتوفّر على كلّ شيء. امرأة فاتنة، ستّة أطفال، منصب في قمّة الدولة. هيبة جنديٍّ بوجه مسنون كنصل. وسيفقد كلّ شيء، حياته أوّلاً. أتذكّر صديقة، ابنة جنرال قُتل لاشتراكه في انقلاب الصخيرات، غيّرت لقبها، إمّا ذُعراً أو جراء خوف مفهوم من أن تعاني من مضايقات النظام. صدمني ذلك القرار. كنتُ أقول في نفسي: مهما حصل في حياتي، سأبقي على اسمي. أوفقير: في المغرب، كما في غيرها من البلدان، كان اسمي مفتاحاً سحرياً، خليطاً من احترامٍ وخشيةٍ وحياةٍ خارجة عن المألوف.

إنّ هذا اللقب نفسه هو الذي كلّفني الجحيم. كنتُ في باريس، أحضّر البكالوريا على هواي، بالخروج في كلّ ليلة، وكنتُ سأبقى طائشة وقحة جدّاً لولا حادث السيارة الذي كاد أن يكلّفني إحدى عيني. بقيت أحمل آثار الجروح، وكثيراً ما هيّج وجهي، في السجن، وعاني التشنّجات. كان عليّ أن

أعود إلى المغرب وأن أتعقّل. ولكنّ الأحداث قضت بخلاف ذلك. كنّا على شاطئ البحر، في قبيلة، كان والدي، البعيد أكثر من أيّ وقت مضى عن الخطّ السياسي للملك، يبدو مختلفاً: أتذكّره، كئيباً، متطلّعاً إلى الأفق، ثمّ فجأةً راقصاً، مغنّياً، فكهاً، محاولاً التزلّج على المياه، تحيط بجذعه عوامةٌ ضخمة مضحكة. ذات صباح، ضمّني أبي، الذي لم يكن مفرطاً في إظهار الحركات العاطفية، بحنوٍّ بين ذراعيه. نظر إليّ بجدّة. هل كان يعلم بما كان ينتظره؟

السادس عشر من آب 1972. كنتُ في صالون بيتنا في الدار البيضاء، أدرتُ جهاز التلفاز، فسمعتُ صحافياً يذيع أنّ انقلاباً قد وقع، وأنّ الطائرة الملكية قُصفَت فوق تطوان. ولم يُعرَف بعد مَنْ هو مدبّر الهجوم. انهرتُ قلقاً. في الليل، اتّصل جدّي وطلب مني العودة إلى الرباط. ثمّ اتّصلت بي أمّي في الخامسة صباحاً، وأخبرتني بصراحة قاسية:

– مات أبوكِ. خذي حوائجكِ وعودي إلى الرباط.

لم أفهم. لم أصدّق ذلك، بل رفضتُ الحقيقة حتى اللحظة الرهيبة التي رأيتُ فيها جسد أبي، ممشّط الشعر، مغسولاً، تعلو شفتيه ابتسامة مزدرية كأنّها تتحدّى الموت. وكأنني في كابوس، رأيتُ آثار الطلقات الخمس في الجسد: واحدةٌ في كبده، واحدةٌ في رئته، واحدةٌ في بطنه، واحدةٌ في ظهره، والأخيرة التي قضت عليه، في رقبته. يقول القرار الرسمي: انتحار. ماذا بوسع المرء أن يفعل كي ينتحر بخمس طلقات؟ ولا ينمّ ما تلا ذلك عن شجاعةٍ مفرطة.

كان أبي، الوفي بين الأوفياء، قد خان، وتزعّم المؤامرة، والآن سينصبّ غضب الملك علينا. منذ متى وجريمة النسب موجودة؟ منذ متى على الأبناء أن يُعاقبوا بدلاً عمّن أنجبهم وجاء بهم إلى الدنيا؟ لم يكن بوسعي أن أسامح أبي بالتبنّي، الحسن الثاني، على قتله والدي. ثمّ كرهته بسبب الطفولة المبتورة لأخوتي وأخواتي. كرهته لأننا كنّا أطفالاً أبرياء. لقد وجدتُ نفسي مرميّة في السجن دون أن أصدّق، كمجرمة، مع أمّي وأخواتي سكينة ومريم وماريا، وأخويّ رؤوف وعبد اللطيف، اللذان كان لأصغرهما ثلاثة أعوام، وامرأتين، عاشورا شنّا، ابنة عم أمي التي تكبرها بعام، وهي كانت مربّيتنا، وحليمة عبودي، مربية عبد اللطيف، التي كانت بعمري. الضحيتان المسكينتان الراضيتان اللتان سيكبّلهما القدر الساخر في هذه المأساة دون أن يكون لهما فيها أيّ ذنب.

– آنستي، أترغبين بمشروب؟

المضيفة التي انحنت نحوي وعرضت عليّ مرطّباً، مبتسمةً، لا تدري من أيٍّ جحيمٍ أنا عائدة. ماذا عساها أن تتخيّل ان رأتني مثلما كنتُ هناك حيث عشت، إذ كان شرب عصير برتقالة في كأس من البلاستيك يبدو لي ذروة الرفاهية.

رويت في السجينة ظروفنا أثناء الاعتقال: كان يُعتقد بأننا كنّا مدلّلين، في مقرّ إقامة مراقَب على الأكثر، ولكنني أتخيّل رؤوس أصدقائنا – كلّ أولاء المتملقين الذين كانوا يتجمّعون إلى مائدة والدي – إن علموا بأنّ البراغيث كانت تنهش سيقاننا حتى الدم، وأن الفئران كانت تنهب القليل من الطعام

الذي كان يتوفّر لنا، وأن الجرذان كانت تسير على أطرافنا، دون أن ننسى العقارب والجراد بضجيجها الجهنّمي.

أيمكنني نسيان محاولات الانتحار؟ مداعبات السكّيرين الذين كنّا اللحم الطازج لهم؟ إزعاجات ومداهمات الجنود القساة بقدر حماقتهم، وعجرفة النظّار الصغار؟ كيف قاومنا؟ ربّما لأننا كنّا عائلة، ربّما لأننا كنّا نحتفظ حتى وسط الرعب بشيء من الفكاهة. لاشكّ، لأننا كنّا قد أبقينا على الأمل. كنتُ سجينةً نابضة بالحياة.

بقيتُ زمناً طويلاً في سجنٍ وهمي، منفرد، مُكتئب، مُذْعر. لا تمرّ الدقائق بالنسبة لي بالطريقة نفسها التي تمرّ بها بالنسبة للآخرين: إنّها طويلة، متوعّدة، غامضة. لقد احتفظتُ من الزمن بمنظورٍ مشوّه يمنعني اليوم من أن أكون دقيقة في مواعيدي. لقد تخلّفت بخمسة عشر عاماً عن الحداثة. لولا الراديو، الذي كنّا نخفيه عند أيّ تفتيش، ما كنّا لنعرف أيّ شيء عن أخبار العالم. حينما حفرنا نفقاً بأيادينا المجرّدة، وحينما اكتشفت الشمس والسيارات والبشر والجمال الأخّاذ لبلدي، حينها زاد احتقاري لبطانة الطاغية التي كانت قد سرقت منّا تلك الثروة النفيسة للغاية: شبابنا. كنا مخلوقات من خارج الأرض، مخلوقات من المريخ منفيين إلى كوكب الأرض. يفسّر ذلك لي الكثير من الأمور. لقد بقيت لزمن طويل غريبة.

بعد هروبنا الذي أعلن عنه في وسائل الإعلام، الذي كلّف جلاّدينا بأن يعرفوا بدورهم متع التعذيب، كنّا قد أصبحنا مشكلة للملك. فمن غير الممكن التخلّص منّا، كما من

غير الممكن إعادة حريّتنا إلينا أمام عدسات الصحافيين. أُعطيت لنا ڤيلا مسوّرة بجدران عالية في طرجا، على بُعْد بضع كيلومترات من مراكش، المكان المفضَّل لدى الطبقة البرجوازية في الدار البيضاء. لم نكن نخرج منها، ونحن نلتقي لــيلاً في بعض الأحيان، وقد استيقظنا مذعورين من أشباح الماضي، أو مرهقين بسُعارٍ مفاجئ. لا نزال نأمل، بفضل محامينا الفرنسيين، بنيل سمة خروج إلى كندا، البلد الذي كانت نداوة مناخه المرغوبة قد اختلست أرقنا وسهادنا في السجن الذي كنّا نتعفن فيه. الآن بدأنا نحلم! كنا مكبوتين، عاطفياً وجنسياً. لقد جمّد السجن رغباتنا، وأطلقت الحرية، وان كانت مؤقّتة، كلّ غرائزنا الجنسية واندفاعاتنا. أحلنا حاجتنا إلى الحب على القطط العشرة والكلبين الذين ربّيناهم. فجأةً، ودون أن ينذر أيّ شيء بذلك، قيل لنا: أنتم طُلقاء! اخرجوا من البيت!

هل من الضروري أن يكون هذا جميلاً للغاية حتى يكون صحيحاً؟

في 26 شباط 1991، وأنا أرتدي بنطلون جينز وقميصاً رجالياً، خطوتُ أولى خطواتي في الدنيا. واحسرتاه! سنكون، لخمس سنوات، ملاحَقين، مراقَبين، ويُتنصّتُ علينا. حُذّر على أرباب العمل المحتملين من إعطائنا فرصةً للعمل. استجوِبَ كلّ معارفنا وأحبّتنا وحتى عشاقنا من قبل جهاز المخابرات المغربي. أهذه هي الحريّة؟ كلا: أواصل العيش في السجن، ولكنّه ببساطة سجنٌ أوسع، وعلي أن أتدبّر أمري بمفردي. لم أعد أعرف أن أفعل أيّ شيء. لابد لي من أن أتعلّم كلّ شيء من

جديد. يشقّ علي أن أفهم وقت البشر، سرعتهم أو بطئهم، وضرورالهم المتعلقة بالوقت. يشقّ علي فكّ رموز العادات، والارتباط بالعيش من جديد. السعادة كلمة مقصية عن مفرداتي. لم أعد أعرف أن أكون الحسناء الطاغية التي كانت تحتفل بعيد ميلادها الثامن عشر في حفلة راقصة باهرة. مليكة أوفقير؟! إنّها امرأةٌ أخرى.

كنتُ بلا مسكن، بلا ترخيص للعمل، كنتُ شبحاً. حتى وإن استطعت، لفرط العناد، وأيضاً بفضل شجاعة نور الدين عيوش، أن أحظى بوظيفَة في مجال الإعلان، فقد عشتُ أسير إلى جانب الجدران مخافةً. اليوم أيضاً، أنا شبحٌ، بيد أنّ الكرة التي أجرّها بقدمي غير مرئية.

بعد ساعتين، سألتقي من جديد، ماريا أختي، التي سيمنحني فرارها، في 25 حزيران 1996 من المغرب إلى إسبانيا على متن سفينة عابرة، فرصة أن تعود إليّ الحياة. إنّها هي من استنفرت الرأي العام الفرنسي، هي التي أتاحت لي أن أجد نفسي هنا، قريبة جدّاً من العالم الحرّ. جواز السفر الذي في متناولي، هي مَنْ أدين لها به. عمري 43 عاماً وأخيراً بدأ كلّ شيء.

بدا لي الطيران من الرباط إلى باريس زمناً طويلاً جداً، ومع ذلك لستُ أنا مَن يطير، بل هذه الآلة الضخمة، التي ترتجّ تحت رحمة الرياح. من حولي، هناك العشرات من الوجوه المجهولة، العدوانية، رجالٌ ونساء محزَّمين في أرائكهم. مضيفات في لباسهنّ الموحّد، على شفاههنّ ابتسامة جامدة. الصوت

الرنّان للكابتن الذي ما كان أحد ليرى وجهه...وحيدةٌ، تائهة على مقعدي كأنني في لجّة المحيط، ارتعدتُ لفكرة أن يحـدّق بي هؤلاء الناس ، ويسبروا أعماقي، ويُبدوا رأيهم فيّ. أنا غريبـة على السفينة، في عالمهم كبشرٍ أحرار، عالمٍ هجرته منـذ أمـد طويلٍ لأنجح في خداعهم. ضاقَ صدري بـشعورٍ بالاضـطهادِ رغماً عنّي. لنظرةٍ واحدة، مادت عبر النافذة سماءٌ شاسعة بـلا حدود.

انفتح الباب أخيراً على الحرية. نفقٌ ضيّق من البلاستيك يربط الطائرة بمبنى المطار. في ذلك الممرّ المتداخل، تعرّفـتُ إلى وجه أختي، غاصّة بين الكاميرات والمصوّرين والميكروفونـات الممدودة. طقطقت ومضات العدسات والأسئلة الطائشة بنفس الإيقاع. بماذا تشعرين؟ ما أثر أن تشعري بنفسك حرّة؟ ألديك مشاريع تفكّرين بها؟ بما سيحفل غدك؟ هل لديك ما تقولينه؟

لدي الكثير من الأشياء لتُقال، ولكنني، منذ زمنٍ طويل، لم أعد أجيد الكلام إلى الآخرين.

عشتُ حيوات عديدة، حياة فتاة ميسورة الحال، وحيـاة أميرة، وحياة سجينة. يستحيل تلخيصها في بـضعة كلمـات! فضلاً عن أنّ حيواتي قلّما أثارت اهتمام الرهط المتلهّف الـذي انقضّ علي. انتظروا مأساةً، ودموعاً، وشقاءً. في تلك اللحظة، لم يكن لدي لأعطيهم سوى مشهد الضيق الذي أشعر بـه. لا كلمة، ولا نظرة. لستُ أكثر مما أنا عليه.

لم أرَ شيئاً، تقدمتُ بطريقة ميكانيكية. فجأة، تخطّى رجلٌ

حياتي حاجزاً، رفعني وذهب بي.

رؤيتي الأولى لباريس، امتلكتها بين ذراعي ايريك.

ايريك الشرقيّ

مَنْ أنا؟ هل أنا تلك التي نُقلَتْ كصرّة على متن تلك السيارة؟ هل أنا تلك التي أطلقها للتو ملكٌ مستبدّ، مثل أَمَة في العصور الحديثة؟ نحن في 13 تموز 1996. لابدّ لي من أن استمتع بالمرور في باريس هذه، التي استمتعتُ فيها كثيراً أثناء دراستي للباكالوريا. لابدّ للحياة أن تستردّ حقوقها. لم يحدث أيّ شيء. كنتُ خاوية، بلهاء، مقفرة. لفرط ما مُزِّق قلبي لم يعد يشعر بأيّ شيء. إنّه بحاجة لصدمة كهربائية. أحياناً، في تلك اللحظات الأكثر قتامة من أيِّ وقت مضى، كنتُ أشكّ حتى في مقدرتي على الحبّ من جديد. منذ وصولنا، مع رؤوف وسُكَيْنة، المحرّرين أيضاً، توقّفنا عند خالتي فوزية، شقيقة أمّي: تذوّقنا لبن الترحيب، كما تقضي تقاليد الاستقبال المغربية. تعانقنا، وتنسّمنا رائحة الحرية. ومع ذلك، كنتُ ساهية في ذاتي. عندما وصلت إلى بيت ايريك، حينها أدركتُ أن السجن في رأسي فقط. شعرتُ بأنني سجّانة نفسي. دون الصبر اللامتناهي لايريك، وحدسه، ودعمه الدائم، لكنتُ قد انهرتُ بالتأكيد. ايريك الشرقيّ.

التقيتُ ايريك بوردروي في ربيع سنة 1995. حينها، ولكوني محرومة من الحقوق المدنية وبدون جواز سفر، انكببت باندفاع على العمل، وذلك أوّلاً بفضل نور الدين عيوش الذي أخذني على عاتقه لدى وكالة للاتصالات كنتُ مسؤولة الإنتاج فيها. ولأنني قلّما كنتُ أخرج، وحصراً لأسباب مهنية، فكان المنطق يقتضي أن أرفض دعوة صديقاي مريم وكميل بن

جلّون لحضور حفلة زفافهما، مع ذلك الموكب مــن النــساء المتزيّنات بالحليّ والمتبرّجات بإفراط الأمر الذي لم أكن أُطيقه. كان كلّ ذلك التكلّف الاجتماعيً يزعجني. لو أنني رفــضتُ الدعوى، لما كنتُ التقيتُ بايريك أبداً. كانت مريم قد طلبــت منّي أن أساعدها: ما كان بوسعي أن أهرّب. في الصباح نفسه، بعد طقس الحمّام، الذي تذهب إليه العروس صحبة صديقاها، تلقيتُ مكالمةً من إحدى قريباتي، وهي عرّافة متواضعة. قالــت لي، متحمّسةً:

– كيكا، لقد التقيتِ به، ذلك القادم عــبر الأطلــسي، رجل حياتكِ.

يا لها من ترّهات! لم أصدّق ذلك. من جهة أخرى، ليس لي حريّة في أن أحبّ من أشاء بما أنّ الأمن يستجّوب بانتظام كلّ الذين يتقرّبون منّي. كان دوري مع الأجانب يقتــصر علــى اصطحابهم إلى طائراتهم. كنتُ أشعر في كلّ مرّة بأنني حبيــسة ثياب الغوص، أنظر إلى العالم من أغوار عزلتي.

حينما رأيتُ إلى جانبي، على المائدة، رجلاً أسمر البــشرة، طويل القامة، بشوش الوجه، له عينان بلون كستنائيٍّ مبــهم، فيهما نظرة ماكرة، وحينما أدركــتُ أنّــه يــتكلّم العربيــةً، استسلمت. من أين

أتاني هذا الأمل الواهي؟ ماذا لو كان هذا هــو؟ لم تــأتيني صعقة الحب. شعرتُ بالمزيد من الأمان والمشاركة العــاطفين، كدفءٍ كان يشيع فيّ بهدوء. كنتُ أخاف طبعاً، وسأحتاج إلى

سنوات كي يتلاشى هذا الخوف المحفور في أعماقي. طيلةَ عامٍ، عندما كان مراقباً يجري التحرّي عنه، وملاحقاً، كان إلى جانبي كلّ يوم جمعة، وحينما كان يغادر، كان شعورٌ مرعبٌ بالإهمال ينهكني ويضنيني. كان له الجلد في أن يسايرني في أهوائي ونوبات هذياني، وأن يروّض الفتاة الصغيرة المتنكّرة في هيئة امرأة ناضجة في الأربعين من عمرها، العاشقة الكتومة التي كانت تحرم نفسها من اللذّة بالإثم. كان يفهمني من الداخل.

ذات يوم، قلتُ له: « ليس لك من الرجل الأوروبي سوى المظهر الخارجي. لك قلب الرجل الشرقي. أنتَ رجلٌ شرقي. »

لقد ورث ايريك التسامح من عائلة بروتستانتية عريقة متجذّرة في "نيم واربيج". والداه شخصان غير عاديين. والده، بيير بوردروي، عالم آثار، باحث في المركز القومي للبحوث، لقّبته بالجيولوجي الذي يعثر على كلّ شيء. إنّه رجلٌ مسكونٌ بعاطفته، أحياناً إلى حدٍّ غير واقعي. مع أنّ ايريك قد ولِدَ في ستراسبورغ، فإنّه كان في الثالثة من عمره حينما وصلت عائلته إلى القدس الشرقية في زيارة دراسية، ثمّ كبُرَ في لبنان حيث كانت حماتي فرانسواز مديرة لثانوية بيروت البروتستانتية. يا لها من إمرأة! جعلت منها شجاعتها واستقامتها المعنوية امرأة تتحمّل مسؤوليةَ دورٍ متميّزٍ أثناء الحرب في لبنان، وتواجه مختلف الأطراف المقاتلة، مسيحية وإسلامية. بل وفتحت مدرستها أمام الفلسطينيين ووجد شقيق عرفات ملاذاً فيها. حينما جاءت إلى مراكش لتقابل خاطفة ابنها، عرضتُ كلّ

مفاتني لأغريها. كنتُ على فارق إحدى عشرة سنة فقط منها! إنّها تعرف حكايتي، وتدري أنّ الأمر لن يكون سهلاً أبداً. تزوّجنا في 10 تشرين الأول **1998** أمام بعض الأصدقاء المقرّبين، في دار بلدية الدائرة الثالثة عشرة، في باريس. شعرتُ بالانتقاص بعض الشيء: زواجٌ على عجل، شاهدان، والحيلة كانت قد وقعت. ولكن هل كنتُ قادرة على شيء آخر سوى الارتجال؟ كنتُ قد أنجزتُ ما هو جوهري: دفع ايريك إلى أن يطلبني للزواج!

مراراً عديدة، اختبرت ايريك، محرّضةً إياه على هجراني، أنا الآثمة بعدم منحه طفلاً، وبعدم كوني من تلك الزوجات المثاليات اللواتي يمنحن النسل. قاربتُ حينها اللُّجج. كان باستطاعتي التمدّد طيلة ساعات، ساهية، غير قادرة حتى على مشاهدة التلفاز. أثناء رحلتنا الأولى، في تموز **1996**، إلى ساحل العاج، نزلنا في فندق ايفوار، لزيارة أحد أعزّ أصدقاء ايريك، الذي كان مهندساً معمارياً مثله. لقد كان المكان كالفردوس، على الأقلّ من حيث المظهر. وقفتُ في الشرفة. كنتُ عاجزة عن الكلام وعن توزيع انفعالاتي. كنتُ أرى العشب الناعم، الغزير، فجأةً، توجّهت إلى اللّه، أسأله: ما جدوى هذه الحرية؟ ما جدوى إخراجي من زنزانة، طالما لم يعد بي رغبة في العيش؟ سيعينني ايريك على إعادة لملمة تخوم الحياة، تلمّساً، ويشجعني على الخروج من الخفاء، من هذه العتمة التي طالما كرهتها. لم أكن «شخصاً». سيحثّني على أن أتكلّم إلى العالم، وأروي الرعب الذي عاشته عائلةٌ لعشرين عاماً. كانت لدي رسالة. ستكون مغامرة السجينة.

ولكن لابدّ من العودة إلى الواقع العادي. الخروج، تناول الطعام، النوم، ووضع قدمٍ أمام الأخرى.

« البسي، يا كيكا، سنخرج لنتعشّى. » ايريك ذوّاقةٌ وشهيّته مفتوحة، هل نسيت أن أذكر ذلك؟ للأسف لم أعد أعرف متعة الطعام ولذّته.

في "الكوبول"، المطعم الشهير في مونبارناس، حيث كنتُ قد تناولتُ العشاء آخر مرّة في عام 1972. كان ايريك يعلم، بتدبيره لهذا العشاء الأوّل كعاشقٍ، أنّه يحقّق أحد أحلامي في هذه السنوات الأخيرة.

أكان قد توقّع صمتي المطبق، ذلك الفراغ العميق جدّاً الذي يجمّد عظامي بصقيعه ويمنعني من التفوّه بكلمة؟ أشكّ في ذلك، ولكننا جلسنا إلى المائدة هناك، وبذلت أعظم الجهود كي أخرج من وهني. ولكن عبثاً. طاقم الخدمة في المطعم بستراهم البيضاء، طنين الأحاديث، الألوان الحامية، الأنوار، الأطباق المتلألئة...لقد أضنتني الحرية وهشّتني من الداخل. لقد فات الأوان على كلّ شيء. أو ربما تحطّمتُ إلى الأبد. حال كوبول كحال كلّ الأشياء التي نحيطها بهالة لزمنٍ طويلٍ جداً حتى تفقد بذلك هويّتها الخاصّة. كان المكان يخصّني في الحلم، كنتُ قد تناولتُ العشاء فيه أكثر من مرّة، أرسم عن ظهر قلب تقاطيع لم أعد استرجعها في ذاكرتي ذلك المساء.

في ختام العشاء، حل الخوف مكان التعب: لمحتُ أحد

مديري الخدم يجول على الطاولات ويتحقّق بدقّــة مــن كــلّ فاتورة. في يده جهازٌ صغيرٌ غريب. انتابتني أفكار سوداء، صورُ اعتقال. بيدي المرتجفة، أمسكتُ بيد ايريك.

- انتبه، أعتقد أنّهم يبحثون عن أحدٍ ما، ربّما عن مزوّر. انظر أنّهم يدقّقون في جميع الفواتير.

قبل أن يتمكّن من إجابتي، توجّه المدير نحونــا، وعلبتــه الصغيرة في يده. بادرني ايريك بابتسامة مطمئنة، ومــدّ إليــه بطاقة، وضعها الرجل في آلته. للحظاتٍ من الصمت، كنــتُ معلّقة

إلى حكمه. أخيراً، خرجت تذكرة من الجهــاز مــصحوبة بصريرٍ خفيف، بينما أعاد ايريك بطاقته إلى جيبه.

- شكراً، يا سيّد.

نظرتُ، غير مصدّقة، مدير الخدم يغادر، ممــسكاً بعلبتــه العجيبة. إذا كانت قطعة صغيرة من البلاستيك تُدسُّ في علبــة يمكنها شراء طبقٍ من ثمار البحر، فإنّ العالم الذي عرفتــه قــد تلاشى تماماً.

رجعتُ، وحيدة، إلى ذلك الحيّ، سان جيرمان دي بري، بحثاً عن هويّتي المفقودة. بعيداً عن محق شخصيّتي، كان الاعتقال قد حافظ عليها، ربّما أعاد تشكيلها، ولكنني كنتُ موجــودة. أمّا الحرية فقد حرمتني من كياني كسجينة، جعلت مني واحدة من هذه الأشباح المجهولة التي تهيم على وجههــا في شــوارع باريس بالآلاف. جعلني الخارج خاوية وبعثرني، أشعر وكــأنني

حفنة من الرمل في مهبّ الريح. ولكن ذكرى سنوات السبعينات، ذكرى الصبيّة التي كنتها، تراود ذاكرتي. ذلك الشبح الغابر الآخر، آمل أن أستعيده في الأمكنة التي كنتُ أرتادها آنذاك، أرصفة الحيّ اللاتيني، المحلات الباذخة في ساحة سان سيلبيس... تلقائياً، سرتُ نحو جادّة سان جيرمان، تائهة في ذكريات لا أنجحُ في لملمتها وترتيبها. ها أنا ذا في محلٍّ، ايف سان لورانٍ ريف غوش، كما لو أنني لا زلتُ فتاة ذات مقام رفيع، لا مبالية، منغمسة في البذخ والرفاهية. للحظة، كان باستطاعتي أن أعتقد بأنّ كلّ تلك السنوات لم تكن سوى ثمرة مخيّلتي، وأنّ الزمن توقّف في هذا المحلّ، هناك حياةٌ سابقة. بتفصيل دقيق: لم أعد تلك الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعاً، المتعجرفة، الواثقة من فتنتها، ذات الشعر الطويل المتموّج، والتنانير القصيرة بقياس تذكرة المترو، التي كانت تتبختر وهي تمرّ أمام المرايا. لقد مضت الألوان الوردية والزرقاء الفيروزية بعيداً مع الموضة، ولكن بشكلٍ خاص مع رغبتي في الذوبان داخل المشهد. ألبستي بألوانها، لون الأرض، اللون الداكن، الأمغر والرمادي، تروي الكثير عن السنوات التي انقضت بعيداً عن هذا المحلّ.

– سيّدتي...، هل يمكنني مساعدتكِ؟ لدينا هذا النموذج باللون الأسود أيضاً.

أعادني الاهتمام المتكلّف للبائعة إلى الواقع. ذُعِرتُ فجأةً، وضعتُ الألبسة التي كنتُ قد نزعتها عن علاّقتها، وتراجعتُ. غمرني شعورٌ بالخجل. كذبتُ. زعمتُ أنّه لابدّ لي من استشارة زوجي قبل أن أشتري أيّ شيء.

لم أرجع أبداً إلى ذلك المحلّ، تاركةً هناك ذكرى المراهقة التي كنتُها آنذاك. لو كان بوسع المرء أن يضرب صفحاً عن الماضي، أعتقدُ بأنني سأكون قد كشفت عن ذلك منذ زمنٍ طويل.

تمضي الأيام وأنا أراقب ترويض دُمى العالم الحرّ. من الاثنين إلى الجمعة، جميعهم في الصومعة، بتعقّل وخنوع. تنفتح الأبواب في يوم السبت، يوم التنزّه، ويخرج القطيع، منقضّاً على المتاجر. لأنّه لا بدّ من التزوّد بكلّ شيء ولاسيما بأيّ شيء، وإفراغ المراكز التجارية لتكديس ما يسدّ احتياجات الأسبوع التالي. بدأ ايريك يحمّلني المسؤولية، بعبارات أخرى، يسمح لي بأن أنضمّ إلى فيض الأهالي الذين يغزون المتاجر. إنّه يعرف العبء الذي يمثّله ذلك، تأثير حشود الناس على إحساسي الجريح. ولكن طريق المعافاة يمرّ بالمتجر، ورغم تحفّظاتي، انتهيتُ إلى أن أتبعه إليه. عاجلاً أم آجلاً، سأذهب إليه بمفردي، لطالما ردّد ذلك على مسامعي. وكدتُ أن أنتهي إلى الاقتناع بذلك.

سوف لن أنسَ زيارتي الأولى إلى المركز التجاري، مغارة علي بابا الاستهلاكية تلك. مدى من البضائع والألوان والصخب والموسيقى. كانت الأطعمة تملأ كلّ الجهات، كان ذلك مقزّزاً ومبهراً في آن، تتراكم أكداساً وأهرامات وأكواماً. تعجّ الأدراج المبرّدة، ويكشف النور الساطع بضائع طازجة وعُلَباً وأكياساً صغيرة...الخلاصة، هناك كلّ شيء وبكمياتٍ وفيرة.

طيلة حياةٍ كاملة، حُرِمتُ مما هو ضروري، وها هو

الفائض وغير الضروري ينبسط أمامي. على مدى البصر. الزبدة... لوحدها تشغل برّاداً بأكمله. ذات الملح الخفيف والمملّحة، النورماندية، 50% مواد دسمة، سهلة الدَّهْن، بالحليب الطازج... هناك الكثير منها بحيث تُهتُ بينها. عشرات الأنواع، بأغلفة متنوّعة، من ورق الألمنيوم البسيط إلى العلب البلاستيكية، وكلّها مزيّنة بألوان زاهية، ذهبية وفضيّة وحمراء. والحليب، المذكور بدوره في قائمة لا نهاية لها: الكامل الدسم، الخالي من الدَسَم، والنصف دَسَم، والمكثّف، والمسحوق، في عُلَب، وفي قوارير، والمجمّد في قوالب...لا أتجرأ على لمس أيّ شيء من هذه البضائع التي كانت محرّمة في الأمس، والتي فاضت فجأةً، بعد أربع ساعات من الطيران من سنواتي الأربع والعشرين في الجحيم والمَطْهَر.

– خذي ما تريدين، قال ايريك.

ما أريد؟ ليس بوسعي أن أريد شيئاً. يشلّني فعلُ مدِّ يدي إلى هذه الكنوز. أخشى أن أشاهد، في أوّلِ لوحٍ من الزبدة، ظهور مخبري الأمن الذين قد يتّهمونني بالسرقة ويجرجرونني إلى السجن. كانت دُمى السبت، من حولي، تتزوّد بلا حشمة بالمنتجات التي يرمونها بلا مبالاةٍ في عرباتهم حالما تقع عيونهم عليها.

بعد أن زال انبهاري، اجتاحني شعورٌ عميق بالتمرّد، وأخذ بتلابيبي. ماذا يفعلون بكلّ هذه المنتجات الكاسدة المنتهية الصلاحية؟ لم أصدّق أن هناك في باريس كلّها ما يكفي من الكروش لالتهام نصف كمية هذه الألبان. ما الذي

سيحدث لهذه الأكداس من الزبدة ذات الملح الخفيف والتي لا يرغبها أحدٌ ربّما لأن البقرة الحمراء التي تزيّن غلافها أقلّ جاذبية من تلك التي إلى جانبها؟ لم يُحسن ايريك أن يجيبني سوى بالقول؛ ربّما ستُرمى البضاعة أو تُصفّى، لا أهمية لذلك مادامت هي هنا. مَنْ من الزبائن، المتزاحمين من حول البرّاد، يعلم فقط أن قالباً من الزبدة كان يمثّل لي، قبل أقلّ من أربعة أعوام، قمّة الرفاهية؟ بدأ زحامُ العربات وكأنّها تقلّد السيارات في الخارج، أُصبتُ بدوّار، فنويتُ أن أجلس.

لمرّتين، عدتُ إلى المتجر مع ايريك. ولمرّتين نظرتُ إلى البضائع من بعيد دون أن أتجرّأ على الإمساك بها. في المرّة الثالثة، ذهبتُ، بناءً على نصائحه، بمفردي، عازمة على أن أقوم بعملٍ، أن أملأ عربتي بنفسي، وأن أقف في الطابور أمام الصندوق، مجهولةً بين الحشد. انقضت بضعة دقائق، وأنا أجول بعربة فارغة ببطء أمام المنتجات ذاتها لمرتين وثلاث. بدوتُ لنفسي كربِّ أسرة محترمٍ يحوم حول مومسٍ. فجأةً، حصل تحوّل مفصلي. اشتريت. اشتريتُ كلّ شيءٍ، مأخوذةً بنشوة مجنونة. اشتريتُ كلّ شيء، أو الأحرى كلّ المنتجات الضرورية للحياة، كل تلك، وفقط تلك، التي حُرمتُ منها كثيراً خلال تلك السنوات من الاعتقال. وخلافاً للألبان التي كانت يُعلن، بتباه، عن احتوائها على 50% على الأقل، من الدَّسَم، لم أكن قادرة على القيام بالتدبير المؤقّت. طفحت عربتي بمنتجات محفوظة، وبزيت وزبدة ومسحوق للغسيل. كانت أصغر علبة كورن فليكس، وأكبرَ صينية فضّيّة للمشروبات، موجودتين

بقطعتين بين بضاعتي لذلك اليوم. إن حدث. إن حدث وأنقص المرء شيئاً. من الصعب التخيّل بأنّه يمكن للمرء أن ينقص شيئاً أمام هكذا عرض للبضائع، ولكن مَنْ يدري؟ مرّت بقربي امرأةٌ، يجلس طفلٌ في عربتها. ضبطتُ نظرها الخاطفة على عربتي، التي كان محتواها أجدر بملجأ استعداداً لاحتمال حرب عالمية ثالثة من مطبخٍ منزلي.

تساءلتُ للحظات حول أفكار تلك المرأة، حينما لمحتُ صدفةً طرداً من علب الجبن عليها عرض تخفيضٍ للسعر. جبن بورسان بالثوم والطيب، عرضٌ استثنائي على عشر علب. ألقيتُ نظرةً ذات اليمين وذات الشمال، ولحسن الحظ، اكتشفتُ أنه لم يسبقني أحد على تلك الفرصة التي لا مثيل لها. يا لها من صفقة، عشرُ علب بثمن خمس...لا يهمّ أن تكون بالثوم والطيب، عاديةً أو بالفلفل الحلو. بسرعة، وقبل أن تستولي مدبّرة منزلٍ أدهى من غيرها، عليها، دسستُ ثلاثة طرود في عربتي، أيّ ثلاثين علبة من بورسان. وابتعدتُ بإباء، آملةً ألاّ أُرغَم عند الصندوق على إعادة بعضٍ منها، مراعاةً للديمقراطية.

لدى العودة إلى بيت الأسرة، ملأتُ الثلاّجة بعلب بورسان، التي شغلت بصعوبة مساحةً ضيّقة جداً بالنسبة لها. واختفت بعض قطع الحلوى التي أحبّها، سهواً، خلف علب الجبن، في العمق وكادت ألاّ تُرى. إنّه ردّ فعلٍ قديم، لا شكّ أنّه سيكون من الصعب جداً أن أتحوّل عنه: الحفاظ على ما يخصّني، لأنّه لا شيء أكثر هشاشة من المُلكية.

الآن أنتظر، بتفاخرٍ لا يُخفى، عودة الرجل الذي أُحبّ، بغية أن أعرض له غنيمتي.

- ما كلّ هذا البورسان؟ هتف ايريك متعجّباً، حائراً.

- كان عليه عرض تخفيض الثمن. أحزر بكم اشتريته!

من خلال ابتسامته، أدركتُ أن عالم دُمى السبت لا يـــزال غير ملائمٍ لي تماماً. وانغلق باب الثلاّجة على ثلاثين علبةٍ مـــن الجبن.

الخوف من الآخرين

إنّها شاحنة صغيرة بيضاء اللون، مركونة أمام سور العمارة، مضاءة واجهتها بوميضٍ برتقالي اللون. كان السائق الذي لم أتبيّن منه سوى ظهره، منشغلاً بفتح مزلاج الباب الخلفي للمركبة، ليخرج منها « البضائع » الضرورية، تلك العُلَب الكرتونية المعبّأة حتى حوافها بالعَدّة والبضائع التافهة. تُرى من هو الرجل الذي في الشاحنة؟ أهو جارٌ، أم مسلّم بضائع؟ إنّه رجلٌ قصيرٌ سمين، رقبته غائرة بين كتفيه، جمجمته صقيلة، في الأربعينات من عمره.

لم يشاهدني، وباقترابي منه شيئاً فشيئاً، تساءلتُ إن كان لن يلتفت فجأةً نحوي ويطرح سؤالاً أو يلقي التحيّة عليّ أو يبتسم لي. ليست هذه المرّة الأولى التي أعود فيها بمفردي، ولكن حتى الآن، حالفني الحظّ في ألاّ أصادف أحداً. أو تكون هناك امرأة جسورة، تسبقني فاقتدي بها وتشجّعني بإشارةٍ من رأسها. لبعض الوقت، تساءلتُ عن الخطوة التالية، متردّدة بعض الشيء في تركه يفرغ شاحنته قبل أن أعود إلى العمارة. كم من الوقت سيلزمه؟ خمس دقائق وربما أكثر. ولكن عليّ أن أتغلّب على مخاوفي وأن أتعلّم العيش مع الآخرين. بعد لحظات من الحيرة والتردّد، استأنفتُ سيري، عاقدة العزم على أنّ أواجه بجسارة المجاملات المألوفة.

فتح الرجل صندوق سيارته، لم تكن تحوي مواد غذائية، كما ظننت، وإنّما ثلاثة كلابٍ ضخمةٍ، تنبح نباحاً يفتّت

الأكباد. لابدّ أن الجوّ حار في الصندوق الخلفي في السيارة، فتصرخ الحيوانات، المحرومة من الهواء، على أمل أن تُطْلَقَ من سجنها. أنا أعرف ذلك الشعور، لدرجة أنني شعرتُ بنفسي قريبة من تلك الكلاب الثلاثة أكثر من أيٍّ كان. فضلاً عن ذلك، كان الزجاج الخلفي محمياً بشبك – مرّة أخرى قضبان السجن –، كباب سجنٍ مؤقت، ترى الكلاب من خلاله مناظر باريس المحظورة علَيها كالحدائقَ والأشجار والمربّعات العشبية الصغيرة، التي هي الفردوس الفردوس المتواضع لكلاب المدن.

بدا الرجل متزعجاً من نباحها، فصرخ بدوره بقوّة بحيث غطّى للحظات على ضوضاء الكلاب الثلاثة مجتمعةً.

– كفى! اخرسوا!

شلّني الضجيج، توقّفتُ جامدة على مبعدة بضعة أمتارٍ من المركبة. حينها أصبح المشهد مرعباً: انهال السائق، ممسكاً بعصا، ضرباً على بهائمه، بقوةٍ وعنف بلا تحفّظ. استحال النباح أنيناً، هسيساً خفيفاً مكبوتاً. كان أنينُ أحدهم حادّاً وكأنّه نواح رضيعٍ يبكي، وطفحت السيارة فجأة بالألم. ولا زال الرجل يضرب، بعزمٍ لا يلين، تحت النور الساطع لغمّازات سيارته. تسمّى هذه مصابيح الخطر؛ وهو اسمٌ على غيرِ مسمّى.

هكذا في عالم النّاس الأحرار، يوزّع الألم مجّاناً، بلا حساب. لم أعد أحتمل أكثر أنين الكلاب الذليلة، فاقتربتُ، يجتاحني شعورٌ من التمرّد والخوف الممزوجين. التفت الرجل فجأةً ونظر إلي، مستنكراً، والعصا في يده.

– أتريدين صورتي؟

كلاّ، لم أرد صورته، أثارت النظرة الوحيدة إلى وجهه اضطرابي وسوف تلازمني طويلاً. سال العرق من جبينه، وتوعّدتني عصاه المرفوعة بشكلٍ قاطع.

– ليس هناك ما هو للفرجة، انصرفِي.

تردّدتُ للحظة. أردتُّ من أعماق كياني أن أنقضّ عليه، وأنزع سلاحه منه وأرمي بعيداً أداة العذاب تلك ، وأُطلق الكلاب وأضع نهاية لجلسة العقاب بالجلد. ضغط الخوف على بطني، ليس الخوف من الضربات، وإنّما الخوف من التوقيف والاستجواب والسجن لتدخّلي في شؤون الآخرين. ربّما يكون من حق ذلك الرجل أن يستدعي الشرطة، ويقدّم شكوى ويوقفني. فنظرتُ إليه مرّة أخرى، قبل أن أترك الحيوانات لمصيرها.

– قلتُ لكِ، انصرفِي.

ارتجفتُ من قمّة رأسي حتى أخمص قدمي، سلكتُ طريقي ودلفتُ إلى العمارة، مغلقةً الباب من ورائي. شعرتُ بنفسي بذيئة. في الخارج، عاد النباح والأنين. ولم أستطع منع نفسي من تصوّر ذلك الرجل في شقّته الباذخة، يناوب المداعبات وضربات العصا حسب مزاجه اليومي:

– نستطيع استدعاء رجال الشرطة لأجْل ذلك، قال لي ايريك.

عبارة « نستطيع » تعني « أستطيع ». ربّما سيكون

بمقدوري. يبدو أنّه يمكن للمرء أن يبلغ عن رجلٍ حرّ يضرب كلابه... وغالباً ما يكون العقاب ضئيلاً – غرامة – ولكنّه يؤدي أحياناً إلى إنقاذ الحيوانات من جلاّدها. وماذا يُفعل بها بعد ذلك؟ لا أحد يستطيع أن يقول لي ذلك. تُرسَل إلى وجارٍ للكلاب أو إلى جمعية الرفق بالحيوان حيث تنتظر، في أقفاص، أن يأتيَ رجلٌ حرّ آخر ويتبنّاها. أو أن يقع اختيارُ طفلٍ عليها: أمي، أريد الكلب الصغير الأبيض. أو في نهاية المطاف، إن لم يتمكّنوا من إطعامها، تُحقن بمحقنٍ: بضعة نقاطٍ من السمّ تنقلها إلى عالمٍ أفضل.

حتى ان عرفت، وان أردت، ما كنتُ لأستطيعُ استدعاء الشرطة في ذلك المساء، ولا حتى في مساء آخر. فالزيّ العسكري يصيبني بالتكزّز. إنّه يرمز إلى القانون والسلطة والقوة الوحشية. يرمز إلى السجن. إنّ هؤلاء الرجال والنساء الذين يجولون، وهم يحملون على أحزمتهم الترسانة المدهشة من المسدّسات والأغلال والهراوات والقنابل المضادة للاعتداءات، يشكّلون تهديداً في كلّ لحظة. مع مرور الزمن، طوّرتُ مناورات إستراتيجية حقيقية مُخصّصة لمخادعة يقظة الرجال الذين يرتدون اللباس العسكري. كأن أغيّر الرصيف بدون أيّ سبب حينما أتنزّه في الهواء الطلق، ويمكن لهذا الأمر أن يتمّ عندما يكون انتباههم منجذباً، ولو قليلاً، إلى مكان آخر. أو أن أفعل ذلك بسرعة فائقة كي لا ألفت الانتباه. هذا هو ما أجهد للقيام به عموماً، حابسة أنفاسي، آملةً ألاّ أسمع صفيراً حادّاً قد يسمّرني في مكاني.

– يا! أنتِ مَنْ هناك!

أتخيّل نفسي، جامدةً وسط الشارع، مصدومة بالخوف، مرفوعة اليدين. حركة سينمائية شاملة، ومثيرة: النسخة الباريسيّة من **Midnight Express**.

حينما لا يكون هناك من مفرّ، اختار التوجّه إليهم مباشرة، ربّما لتهدئة ريبتهم، أو لأضع نهاية للخوف الذي يؤلمني: إن كانوا يريدونني، فليقودوني إلى السجن. لقد مللتُ الفرار. هكذا وجب عليّ التوجّه إلى أكثر من نصف رجال شرطة العاصمة، بالحجج الأكثر تفاهة. أفقدني الخوف حيلي: أسألُ كيفما كان عن الطريق وعن الساعة وعن درجة الحرارة، وعن أوقات إغلاق أبواب أنفاق المترو. وأحياناً، أسأل عن كلّ هذا في الوقت ذاته. غالباً ما يجيبون عليّ، وهم يتفرسون فيّ كحيوانٍ فريد.

– هل أنتِ بخير، يا سيدتي؟

سأكون أفضل حالاً من دونهم، ولكن ليس بوسعي أن أقول لهم ذلك. ولا بوسعي أن أعترف لهم بأنّ هذه المرّة الثالثة التي أسأل فيها رجلاً باللباس العسكري عن طريقي. نفس الطريق. ونفس العنوان، وكلّ واحد يجيبني بنفس الاهتمام، بحيث يكاد أن يعزّز ريبتي. فليس لديهم وسيلة فضلى لخداع العدو، مثل جعله يظنّ بأنّهم يبذلون أقصى جهدهم ليظهروا لباقتهم. وحتى إذا كانوا ممّن يبدون بأنّهم كذلك، فبوجود الزيّ العسكري، لم أعد أفكّر ؛ فأنا خاوية، أنا وعاءٌ للغمّ ، أنا أشبه بكلبٍ أمام عصا.

– إنّهم هنا لحمايتك، تردّد صوتٌ في رأسي، ولم ينجح قط في إقناعي بذلك.

بعودتي من ماريه، حيث تناولتُ الغداء في حيٍّ صغير هادئ جدّاً كان كما لو أنه خارجٌ من ذكرياتي، ركضتُ بأقصى سرعة نحو البيت. بدا لي وكأنّ السيارات والدراجات والمشاة جميعاً يحومون من حولي. أحبّ الأحاسيس التي تسبّبها لي السباقات على الدراجة، ذلك الشعور بالتزلّج على الزفت بلا قيود ولا إكراه. في السيارة، أكون حبيسة. مشياً على الأقدام، أكون محكومة ومراقَبةً ترصدني الأعين. عبرتُ على الدراجة، مسرعةً بحيث لم يُتَح لأحد الوقت الكافي لمعاينة وجهي. تحرّرتُ من قوانينهم وأنظمتهم، لم أفعل سوى المرور بعالمهم. ولكن عند أوّل ملتقى طرق، أمسك بي الواقع من جديد، بشكلٍ خاطف جدّاً بحيث كدتُ أن أفقد حياتي هناك. أبعد من ذلك بقليل، قطعت شاحنة صغيرة للشرطة الطريق، حاجبةً عربة أخرى مركونة بالعرض. مرّة أخرى إنّهم هم! تدافعت الأفكار وتصادمت الكلمات في ذهني، تكاد تفقد معناها. توقيف، توسّط، جريمة، جُنحة... نزل أربعة عناصر شرطة من الشاحنة، بينهم امرأة. يبدو أنّهم يوقفون أحداً. أو ربّما تكون مجرّد مراقبة، لا أدري. ولكن المسألة هي أنني لم أشاهد الإشارة الضوئية، وأنني انقضضتُ عليهم، ضاغطة بقدميّ لمقابض الكابحات. بالكاد تباطأت دراجتي، عبرت ملتقى الطرق وسط جوقة من التزمير وأَنْهَتْ جولتها إلى جانب شاحنة الشرطة، محدثةً دويّاً مزعجاً بارتطامها بصفيحها.

– إيه، ما الذي أصابكِ؟

كانت شرطية متطوّعة شقراء قصيرة وكبيرة الفكّ، وتساءلتُ ان كانت غالباً ما تستعمل ذلك المسدّس الضخم الذي يكاد أخمصه أن يبلغ أسفل صدرها.

جاء أحد زملائها لنجدتنا، ساعدني في استعادة توازني، وناولني حقيبتي التي سقطت أرضاً. راقبتهم بنظرة قلقة ساعية إلى أن أكتشف في عيونهم وميضاً للبربرية التي لا توجدً فيها.

– هذا من عدم الانتباه يا سيّدتي الصغيرة، ألم تري أن الإشارة كانت حمراء؟

في معرض ردّي، اندفعتُ في خطبة طويلة ملتبسة ومعسولة، مزيج من التبريرات والابتهاج المزعوم والتملّق. اعتذرتُ عشر مرّات. تكلّمت حتى أنهكتهما. تبادلا نظرة مفهومة، قبل أن تقاطعني السيّدة بلطف:

– كوني أكثر احتراساً، بعد الآن. أتعرفين كم درّاجاً يُقْتَل سنوياً في باريس؟

ها أنا ذا أنطلق من جديد، مصابة بدوخة خفيفة. تركت متعة الدراجة مكانها لتوتّرٍ خفيٍّ مصبوغٍ بانفراجٍ خفيف. أَعَدْتُ، وكأنني في السينما، تمثيل المشهد الذي ينتمي الآن إلى مجموعة ذكرياتي...وشعرتُ بالخجل يعتريني، واحمرّت وجنتاي. في تلك اللحظات، كرهتُ تذلّلي، ذلك الميل الجامح إلى تلميع أحذيتهم إلى أن أجد صورتي فيها. عاودتني كلماتي، مشوّشةً، طفليةً، تثير الرثاء. استعرضتُ اعتذاراتي وأعذاري. كم وددتُ

أن أكون متكبّرةً ومتغطرسة. كم وددتُ لو أنني كنتُ ندّاً لهم.

لو أن الخوف كان ينحصر في الزيّ العسكري، لكنتُ الأكثر سعادة من بين النساء. بسطت باريس أمام ناظريّ مشهد عدوانيتها، حرب الخنادق اليومية لسكانها الساخطين. لقد قضوا سنوات في الاستعداد للقتال وتحويل الأطفال الذين كانوهم إلى راشدِين متطلّبين، رافعين عالياً ألوان حروبهم الصغيرة. لم يهيّئني أيُّ شيءٍ لذلك.

على أرصفة المقاهي، يُرعبني النُدُل الباريسيّون المشهورين، المحزّمين بزيّهم الرسمي الأبيض والأسود، أكثر من رجال الشرطة. لمجرّد فكرة ذهابي للجلوس في مقهى، أخشى نظراتهم الثقيلة المزدرية. كم من مرّةٍ طلبتهم بصوتٍ خفيضٍ ناعمٍ؟

– من فضلك!

يمرُّ البطريق، وهو يكاد أن يمسّني، متظاهراً بعدم رؤيتي.

– يا سيّد، من فضلك...

– انتظري دقيقة!

أكثر من أيٍّ كان في باريس، انتظرت. انتظرت لدقيقتين، لعشر دقائق. انتظرت من الدقائق ما لا يُحصى. معظم البشر الأحرار يحافظون على علاقة تبعية أليمة لساعاتهم ومنبّهاتهم، وهذه الإضافة التي تكاد تكون ماديّة تدفعهم إلى جمع كلّ ثانية كما لو كانت الأخيرة. لديّ الوقت الكافي. ولكن يرعبني ذلك

الصفاء الشفيف، تلك العيون الخالية التي تعبر من خلالي كما لو كنتُ نافذة مشرعة على العدم.

جنح البطريق نحو طاولتي على مضضٍ، بعد أن خدم الدنيا بأكملها وتحدّث في السياسة مع بائع صحفٍ.

– ما الذي حدث؟

ما الذي حدث؟ ليس مهمّاً. فمهما كان الأمر، سوف يمتثل له باشمئزازٍ وغيظ. علي الحفاظ على هدوئي. هناك شيفرة ضمنية غريبة بين نادل المقهى الباريسي وضحيّته، علاقة هيمنة تعكس الأدوار. أدفعُ المال لكي أكون مجهولةً، لكي يُصْرَخ في وجهي. أدفع لكي أُعاملَ باستعلاء، لأرى بأنّني لا أُقدّر إطلاقاً. بعد ذلك بسنوات، سأعلم من خلال التواصل مع الأجانب، أولئك الأناس الأحرار القادمين من بلدان أخرى، بأنّ هذه الظاهرة النموذجية خاصّة بالعاصمة الفرنسية، وأنّ نادل المقهى أيضاً رمزيٌّ هنا كبرج إيفل.

منذ ذلك الحين، أخشى المواعيد في المقاهي التي أصل إليها دائماً قبل الموعد بنصف ساعة، حيث أن فكرة وصولي متأخّر لا تُطاق بالنسبة لي. حتى قبل أن أجلس، أستعدُّ للمواجهة، أستعيد أنفاسي وأركّز تفكيري. وكأنّني ملاكمٌ. ماذا لدي لمواجهة العدوانية السافرة للسكان الأصليين؟ تربيتي الإلزاسية في القصر، الراسخة في ذهني والتي بقيت متجذّرة بقوّة في أعماقي.

– كوني أكثر عدوانيةً، قيل لي. لا تتهاوني.

ولكن لا تزال أنظمة حياتي الجديدة تفوتني. لدي القليل من السيطرة على الأحداث بحيث لا يمكنني سوى ابتلاع كبريائي ومدّ خدّي الآخر. هذا ما يفعله المسيحيّون، على الأقلّ نظرياً، ليظفروا بالفردوس. وإذا كان هكذا يُظفَرُ به، فقد ظفرتُ به ألف مرّة؛ وأستحقُّ أن أجلس إلى يمين اللّه وأغنّي مع الملائكة. لأنني لقاء كلّ صراخٍ، أعطيتُ ابتسامة مهذّبة، ولقاء كلّ حساب مرميٍّ في وجهي، شكرتُ، ولقاء كلّ تعليقٍ مستفزٍّ، تركتُ بخشيشاً.

شيئاً فشيئاً، غدت باريس مدرسةً للعدوانية. تعلّمتُ فيها أن أعدّ ترتيباتي، وأنا أراقب بعناية الناس الأحرار الذين يثورون لأدنى مضايقة يتعرضون لها. عاجلاً أم آجلاً، سيتلاشى خوفي وسأردّ الصاع صاعين. على الأقلّ هذا ما أتمنّاه، لا أحد يستطيع العيش إلى الأبد مع الخوف، ولا حتى أولئك الذين عذّبهم الخوف طيلة صباهم.

سيكون المتجر الكبير (السوبر ماركت)، تلك الرحبة العملاقة لمفاتن الاستهلاك الظافر، بمثابة الملعب الأول لتمريني. عند نزولي من السيارة، أدركتُ أنني أدخل الحلبة. لدى المستهلك الكبير(هكذا لقّبتُ المستهلك بالجملة) فكرتان رئيسيتان في ذهنه: الانجاز السريع، وعدم السماح بتجاوزه. وليس للإنسان الحرّ، مع أنّه حرٌّ في الذهاب إلى حيث يشاء، ومتى يشاء، وكيفما يشاء، سوى هاتين الفكرتين في ذهنه. بسرعة. دائماً أسرع. فيما مضى، أثناء فرارنا، ونحن نعبر الأحياء الشعبية للدار البيضاء، كان الميكانيك المجنون للمشاة

الذين كانوا يسيرون دونما هدف قد أذهلني، ولو لم نكن حينها في ظرف مأسويٍّ، لكنتُ قد قهقهتُ ضحكاً. كانوا يسيرون خافضين رؤوسهم مثل العمال المسيّرين في فيلم شارلي شابلن، الأزمنة الجديثة.

في اللحظات الأولى، سحرني مشهد أولئك الناس المنخرطين في سباق حقيقيٍّ للعربات دون أن أستطيع الدخول في الدوامة. كانت العربات مشبوكة إلى بعضها، مربوطة بسلسلة لن تنفكّ إلا بوضع قطعة نقدية في عُلبة صغيرة. من حسن الحظّ، أدركتُ الحيلة بسرعة، بما أنّ حشداً كاملاً قام بها تحت ناظري. يتدافع الناس، وتُجرّ العربات بقوّة كبيرة تصرُّ معها صريراً يفتت الأكباد. أبعد من ذلك ببضعة أمتار، يجلب مستهلكون كبار آخرون عرباتهم، ويشبّكونها بصخب جهنّمي. بدوري، تفقّدتُ محفظتي، وتشبّثتُ بقطعتي النقدية كمّا لو أنّها ليرةٌ ذهبية (قيل لي كثيراً أن أحذر اللصوص)، وحاولت بحياء أن أمتلك مركبتي لأنخرط في السباق.

جرى سباقي بشكلٍ أكثر من جيّد، حتى أنني كدتُ ألوذ بالاسترخاء. إنّه أمرٌ سهلٌ جدّاً أن يقود المرءُ عربته بيد ثابتة وأن يتوقّع حركات المتدفّقين من كلّ الجهات ويستبقها. لم يعرني السكان الأصليون، المنهمكين في سباقهم المحموم، أدنى اهتمام، ولهذا فقط، كنتُ سعيدةً بمجيئي. أغمّني التجاهل بالتأكيد، ولكن على نحو أقلّ من المواجهة المحتّمة مع الأهالي، وواقع أن أجد نفسي أمام ضرورة رفع الصوت وفتح طريقي في الزحمة. حينها، كانت الأمور تسير سيراً آلياً بحيث ظننتُ

نفسي على مضمار سباق. انسللتُ إلى موقع متقدّم في الطابور، حينما ظهرت من جهة مجهولة عربةُ خدمة غاصّـــةٌ بالبــضائع، قافلةٌ حقيقيةٌ من البوهيميين تَتقدّم طلائعهَا امرأة ضخمة بثوب مزهرٍ بلا تبصّر. تجاوزتني تلك الكومة الهائلة من الأطعمة دونَ تباطؤٍ عند ربعٍ الدورة، وصدمت ربلتي ساقيّ لدى مرورهـــا. كان الألم حادّاً، ومفاجئاً بعـــض الـــشيء. رفعـــتُ نظـــري، مصدومةً، إلى غريمتي التي لم تتوانَ عن صعقي بنظراتهـــا. ثـــار سخطي، ولكن ككلِّ مرّة، انقبضت معدتي وأسبلتُ عينـــاي. كانت تلك علامة التنافسُ بالنسبة للمرأة البدينة التي استفادت منها لتعجّل من مرورها. من جديد، وبمؤخرة العربة، هذه المرّة، صدمت ساقي. كان الألم شديداً جداً إلى درجة أنّـــه جعلـــني أرتعد. وتلاقت أعيننا مرّة أخرى، ولكن لم تنفكُّ حـــتى مجـــرّد كلمة اعتذارٍ من شفتيها المضمومتين.

حينها حدث انفجارٌ في داخلـــي، هيروشـــيما مـــصغّرة كنّست – مؤقّتاً للأسف – شكوكي ومخاوفي وترددي وحيرتي. أخذتُ أشتمها وأسبّها بالعربية، بشراسة شديدة بحيث شعرتُ أنني سأطعنها في صدرها. لمرّة واحدة، لم أتعثّر في كلماتي، فضلاً عن أنّها تدفّقت من تلقائها، سيلاً عارماً، دفقةَ حمضٍ حـــارق، ولا يهمّ إن لم تفهم منها شيئاً. في نظري، وجب على الـــسخطً أن يخلي مكانه لشعورٍ أقلّ نبلاً – أكان يجب انتظار الذهاب إلى متجرٍ كبيرٍ حتى أشعرً أخيراً بالكراهية؟ إلى درجـــة أنّ المـــرأة انتهتً إلى التراجع.

– هذا غير ممكن، لابدّ من استدعاء حارسٍ، صدر صوتٌ شائخٌ من جهة ما من الطابور.

هدّأني التعليق على الفور، وكأنّه قد أُلقي عليّ دلو من الماء البارد. من جديد، فكّرتُ بالسلطة والزيّ الرسمي والجُنحة، والاستجواب، كلّ تلك الأشباح التي تطاردني منذ أن وضعت قدميّ خارج سجني. نضب سيل الشتائم في فمي، وبجهد جهيد، لم أترك مكاني في الطابور، هذا المكان الذي ظفرتُ به للتّو عنوةً. أهو انتصارٌ جيّد؟ أجهل ذلك. ليس هناك ما يُحسَد عليه المرء في أن يشبه دافعي العربات. ولكن خالطني شعورٌ غامضٌ بأنّ ايريك سيكون فخوراً بي، لكوني للمرّة الأولى، سوف لن أعيش عار مدّ الخدّ الآخر.

هيبيرناتا* في باريس

عدت من جديد، إلى مقهى لو فلور، عشّ الـــذكريات، حيث أستعيد كما ليس في أيّ مكان آخر، الذكريات الغامضة لتلك التي كان بمقدوري أن أكونها فيما مضى. اليوم، أنا مختلفة جدّاً بحيث يبدو لي أنّني قد أراها جالسةً هنا، إلى طاولة بجـــانبي، دون أن أتعرّف إليها, دون أن أتعرّف إلى نفسي. ولكنَّ، وأنـــا في لا فلور، أكاد أكون كاملةً بلا تغيير، متجدّدة، خليطـــاً، لا يحيل دون التحام فوضوي لطيش الماضي وعُصاب اليوم. هـــذا المقهى، الذي لا يزال غائماً بالدخان ومكتظاً بالناس، بالنـــسبة لي بقايا نكهة حلوى مادلين... إنّه صلةُ وصلٍ بين عالمين.

في المرّة الأولى التي وجدتُ فيها ديكور لا فلور، فاضـــت الدموع في عينيّ. جلستُ بخجلٍ، طلبتُ فنجاناً من القهوة كما كنتُ أفعل إبّان تلك الأيام الهانئة، وارتشفته برشفات صغيرة، مستلذّة بطعم مرارها. لوقت طويل، بقيتُ ساكنةً، تائهةً نَهْبَ ذكرياتي. كان الهواء مشبعاً بدخّان السجائر، كما في الـــسابق. قلّما كان الصخب المكتنف، المصمّ للآذان، يضايقني، ربّما لأنّه كان ينبعث من الديكور. كان الجميع أشبه بالبطـــاريق أكثـــر قبحاً من أيِّ وقت مضى، السيّاحُ الذين يتـــدافعون ليحـــاذوا أشباح سارتر، ومثقّفو الحيّ الذين يـــأملون أن يحـــذوا حـــذوَ أجدادهم، والطلاب الأثرياء، وعابرو السبيل المذهولين بكـــلّ هذا الصخب المثار في المقهى.

---

* لقد استخدمت الكاتبة هذه الكلمة في إشارة إلى "البيات الشتوي" أو "السبات" أو "التخدّر" وهو النوم الشتوي لدى بعض أجناس الحيوان.

كانت حدود الصالة وفيّة جدّا لذكراي بحيث بدا لي وكأنّ الزمن قد توقّف بمقهى لو فلور، تماماً مثلي، وكأنّه عاش بإيقاع الأزل دون أن يضحّي بطقوسِ عصرٍ غريبٍ عليّ. وكم كان مؤثراً ذلك القدر من التضامن بحيث صعدتُ السلّم باتّجاه المغاسل، ويدي تنزلق على الدرابزين الخشبي وكأنّها تداعب كتف صديقٍ قديم. ولكن لدى الخروج من المغاسل، أخذ الصديق القديم يضحك هازئاً. لأنني أردتُ أن أغسل يدّي، ولم يكن هناك لا صنبور الماء الدافئ ولا صنبور الماء البارد، ولا حتى خلاّط عجيب على شكل مقبض، كما في مغطس ايريك. « لا داعيٍ للذعرٍ»، قلتُ في نفسي وأنا أبحث من الجهتين عن المغسلة التي كان فيها الصنبوران سابقاً.

ولكنّهما لم يكونا في أيّة جهة. شعرتُ بالضيق، تحقّقتُ من أنّ لا أحد قادم قبل الانهماك في تفقّد الأمكنة. أتكون هذه الأزرار على الحائط؟ كلاّ أنّها لوالب لم يدرها أحدٌ قط للحصول على الماء. هناك أيضاً كرةٌ ما، مغروزة بساق يعبر الحائط. لا شكّ أن الأمر يتعلّق بصنابير جديدة: تُدارُ نحو اليسار للحصول على الماء الساخن، ونحو اليمين للماء البارد. وما أن طبّقتُ نظريّتي، حتى وجدتُ أنّ يديّ امتلأتا بالصابون، لأنّ الكرة السحرية لم تكن سوى صابون مرسيليا النديّ. وأنا في تلك الحالة من الحيرة والمهانة، دخلت زبونة أخرى ابتسمت لي بشرود، فرددتُ عيها بإيماءةٍ من رأسي، مخفية يدي المليئتين بالصابونِ خلف ظهري.

شاهدتها تمرّر يديها تحت الماء، وتفركهما بالصابون بعنف،

ثم تدخل الحمّام. سمعتُ، غير مصدّقة، الباب ينغلق بينما لا يزال الماء يرشَح. هكذا يسيل الماء للآخرين ولكن ليس لي...

بقي لي القليل من الوقت قبل أن تخرج الزبونة من الحمّام. من جديد، انحنيت، وفتّشت في المغسلة ومحيطها. أين يا تُرى ضغطت؟ أيكون هناك دوّاسةٌ على الأرض؟ لا يمكن للماء إدراكها، أو ربّما أُختُرِعَ الماء الذكيُّ. بعد نفاذ جميع الوسائل، جثوتُ على ركبتي لأفتّش في أسفل المغسلة. أيكون هناك زرٌّ مخفيٌّ فيها؟ لن يفشي لي سرَّ الصَنْبَرة السحرية سوى أنبوبة كنتُ أتبعها كخطٍّ توجيه. منهمكةً في اكتشافي مثل هوارد كارتر في اكتشافاته حولَ آثار الفرعون توت – عنخ آمون، لم يسعفني الوقت لأنهض حينما خرجت الزبونة من الحمامات وألقت عليّ نظرة ملئها الانـدهاش. تلعثمت، وغمغمت، واختلقتُ لنفسي قرطاً ادّعيتُ فقدانه لأبرّر وضعيتي. انحنت السيدة الكريمة، متعاطفة معي، بدورها متظاهرة بالبحث عن قرطي، رغم احتجاجاتي.

– شكراً يا سيّدتي، سيكون الأمر على ما يرام، سأعثر عليه.

استغلّت السيّدة ذلك لتتحقّق من أنّ قرطيّ في أذنيّ، مرغمة إياي أن أغوص في كذبتي. جاثية في حمامات عامّة لمقهى من مقاهي سان جيرمان، اختلقتُ في الحال زوجاً آخر من الأقراط، ادّعيتُ أنها كانت موجودة في حقيبة يدي، الحقيبة التي كانت قد فُتحتْ سهواً، وسقطت منها على نحوٍ مفاجئٍ قطعة مجوهراتٍ كنتُ أخصُّ بها أختي. نهضت الزبونة، مقتنعةً

إلى حدٍّ ما من خلال سيل الكلمات، ومنتشية بالتفاصيل، وألقت علي نظرةَ ارتياب، ثمّ مرّرت يديها تحت الصنبور. حصلت المعجزة للمرّة الثانية، وأخذ الماء يسيل. وأنا جاثية على الأرض في وضعية التلميذ، أدركتُ بأنّه يكفي أن تمرّر الأيدي تحت الصنبور كي يأتي الفرَج.

عادت الزبونة إلى طاولتها، وبقيت وحيدة من جديد. تغطّت يداي بالصابون الجاف، وتلبّس الخجل كامل كياني، مغلّفاً كبريائي بكفنٍ سميك. مررت يدي بهدوء تحت الصنبور، فانساب ماءٌ فاترٌ بتلذّذ بينَ أصابعي. يا إلهي، هل انقضى قرنٌ لكي يتخلّى العالم عن الصنابير، لكي تراك المغاسل من تلقائها وأنت قادم؟ هل بقيتُ وقتاً طويلاً جدّاً في حالةِ سبات؟

تساءلتُ مطوّلاً عمّا تكون قد آلت إليه الدنيا في الخارج، وإذا ما سأكون قادرة في وقت ما على أن أتلاءم مع العقليات الجديدة، وأندمج في المناقشات، وأفكّ طلاسم لغة العامّة والاختصارات والمصطلحات المكتوبة بالأحرف الأولى. ولم أكن أدري إن كان أبناء جيلي لا يزالون مناسبين لي، إذا ما أُثيرت ذكرياتنا المشتركة. هل سيكون بمقدوري أن أهتم من جديد بالأخبار والسينما والسياسة؟ كلّ هذه الأسئلة، طرحتها على نفسي لمئات المرّات. ولكنني لم أهتمّ فقط بمستقبل الصنابير. لا يمكن لأحد أن يتصوّر بأنّه سيأتي يومٌ يسيل فيه الماء من الصنابير تلقائياً.

فالعالم قد تزيّن بكل أنواع الأدوات والأجهزة، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنّ كلّ هذا الوقت الذي

أضاعه العالم في اختراع موزّعات الصابون، كان من الممكن أن يستثمَر في إطعام الجياع، أو اختراع الخلاصة الأساسية من الجزر أو رتق طبقة الأوزون. ولكنني لم أبلغ نهاية مفاجآتي. فما أعتقده من النوادر، هو، ببساطة، العالم كما هو عليه الآن...

لم يزل شيءٌ يدعني أن أفترض أنّ ملوك العبث قد عاثوا في باريس تغييراً إلى حدّ أنّ المدينة ستتحول بالنسبة لي إلى ديكور من خارج الأرض، غير قابل أن أتخلّص منه بدون دليل طريقة الاستخدام. أهو الافتتان أم الضيق، لا أدري أيٌّ من أحاسيسي انتابني أولاً، بيد أنّ أمراً واحداً كان واضحاً: أنا طفلٌ، وليدٌ جديدٌ في جسد امرأة بالغة؛ بعد قليل، ربّما سيكون عليّ أن أتعلّم استخدام شوكة الطّعام.

ترعى الدولة– الحامية أدقّ شؤون حياتنا. لقد أُبلغت أن كلّ نفقات أمراضي، الخفيف منها والعضال، سيتكفّل بها، من الآن فصاعداً، «الضمان الاجتماعي»، وهو جهاز إداري هائل، يسدّد، لقاء قليلٍ من الوقت وورقة ثبوتية تقدَّم إليه، كلّ التكاليف، حتى قيمة القَطرات التي يقطرها المرء في أنفه بين عطستين.

– عليك الانتساب إلى الضمان الاجتماعي، قيل لي، دون التجرّؤ على الإفصاح بأنّ السنوات التي قضيتها في السجن قد جعلت حالتي الصحية سيّئة بالتأكيد.

لستُ الوحيدة التي تعاني. لا نزال نحمل على أجسادنا آثار تلك السنوات الرهيبة. تعاني ميمي من نوباتِ صرعٍ ترديها

أرضاً، وأُصيبَت ماريا بالسرطان، ويعاني رؤوف من التهابات رئوية انتانية، وأصغرنا عبد اللطيف، روحه هي التي أخمدوها قبل كلّ شيء.

الانضمام إلى الضمان الاجتماعي مسألة بسيطة، مجرّد بعض الإجراءات. ساعدني ايريك في ترتيب أوراقي، الأوراق الثبوتية للمسكن والميلاد والكهرباء والتلقيح، أيّ نسبي الإداري، إذا صحّ القول. تكدّست كل تلك الأوراق في محفظة، هي عبارة عن خرجٍ بلاستيكيٍّ يحوي كلّ ما أنا عليه، مترجماً بالأرقام والرموز. يشبه مركز الضمان الاجتماعي، الذي يقع في طريقٍ غير نافذة ويتوارى خلف الأحرف الأولى من اسمه الذي لا يُلفَظ، هو محطّة. لم أعتد أبداً على الكتمان، وفي الحال، أخذت بتلابيبي رائحة التشوّش والضوضاء والانتظار والضغط النفسي التي حامت وتوعّدت. ماذا كنتُ قد تخيّلت؟ مكتبٌ صغيرٌ خالٍ، بعض النبتات الخضراء، مضيفة بابتسامة ودودة، واسمي بحروفٍ كبيرةٍ على بطاقة دعوة...

المكتب الصغير العادي غير موجود. عوض ذلك، توجد غرف زجاجية* فردية يستقبل فيها موظّفون بدا عليهم الإرهاق الناس بين بابين. يجلسُ الزبائن – أيُقال الزبائن بالنسبة للضمان الاجتماعي كما بالنسبة للمتجر الكبير؟ – على كراسٍ مستقيمة استقامة العدالة، وهم يقيمون الحجج ويتلوّون، ويقومون بحركات مبالِغة، ويدوسون على حقائبهم التاي

* استخدمت الكاتبة عبارة aquarium لتشير إلى المكاتب المستقطعة بألواح من الزجاج والخشب داخل صالة كبيرة، وهي مكاتب صغيرة ومفتوحة تستخدم اليوم بدل المكاتب الكلاسيكية المؤلفة من غرفة مقفلة

دون أن يتبيّنوا ذلك. ولكن قبل بلوغ المكاتب هناك صالةٌ، صالةٌ فسيحةٌ مفروشةٌ بأرائك زرقاء يستسلم فيها رهطٌ حقيقيٌّ للرياضة المفضّلة للناس الأحرار: الانتظار. شعرتُ بأنّ العيون تعاينني، إلى درجة أنّ خديَّ احمرّا: لماذا أنا الوحيدة التي أمكث واقفةً، متشبّثة بخُرجي النفيس؟ كلّما بقيتُ جامدة هنا، كلّما أزعجني ثقل النظرات. سرى خدرٌ غادرٌ في ساقي، وصعد إلى نخاعي الشوكي. بدا لي أنني سأتحجّر هنا، وأزيّن إلى الأبد بهو الضمان الاجتماعي، منصوبةً على قاعدة، ستُثبّتُ عليها شاهدةُ قبرٍ تخليداً لذكرى المشرّدين عديمي الجنسيّة.

دوّى رنين خفيف، في الحال، اتّجه ثلاثون زوجاً من العيون كعين واحدة نحو ساعة حائط، تتربّع في أعلى المكاتب، أعلنت عن الرقم 164. قام شخصٌ لمْ يُنادى باسمه، عَبَرَ البهو ودخل إلى مقصورة.

164...إنّه أمرٌ محيِّر، تساءلتُ عما يمكن لهذا الرقم أن يناظره. أيكون المقصود دعوةً في ساعة محدّدة؟ هذا مستبعد، بما أن الساعة هي الآن 11 صباحاً، وأنّ الرقم 164، وإن فُكّك بكل الاتجاهات، سوف لن يعطي سوى الساعة 16.04، لا بل 16.40، وهذا لا يتوافق مع الرقم المُعلَن. تبقى نظرية الأرقام المحدّدة، الخاصّة بكل « زبائن » هذه المؤسّسة المحتَرَمة. ربّما يكونوا قد رُقِّموا، ودُمغوا كسجناء – لقد قيل لي بأنّ رقمي المستقبلي للضمان الاجتماعي سيفيدني كجواز مرور في كلّ إجراءاتي المهنية. انقبض قلبي: ماذا لو كان لهم جميعاً رقمٌ، وأنا ليس لدي؟

حينذاك، غادر زبونٌ إحدى المقـصورات واتّجـه نحـو المَخرَج. وفي الحال أعلن الحاسب عن الرقم 165، مـع نفـس ذلك الرنين الخافت. نهض الشاب المرتدي لسترة رياضية، مـرّ من أمامي ملقياً عليّ نظرة تحدٍّ، دون أن يخفض صوت مسجّلته المحمولة. لقد اتّضح كلّ شيء... إنّه الزبون رقم 165، لا يهمّ كثيراً إن كان في اليوم، أو الصبيحة، أو الأسـبوع. ولكـن، كيف عرف ذلك؟ ربّما، اعتادوا على أن يحسبوا فيما بينـهم، ولذا كانوا جميعهم ينظرون إليّ بطرف العين. كنتُ، بلا شكٍّ ، وأنا واقفة وسط العدم، أخلّ بحسابهم. جلستُ، بذهن مشوّش، عازمة بثبات على أن أدعهم جميعاً يمرّون. ولكن للأسف، كلّما ينصرف بعضهم، يصل آخرون إلى الصالة، وتتالـت الأرقـام على الشاشة دون أن يعيرني أحدٌ أدنى اهتمام. واقفـةً، كنـتُ موجودة. جالسةً، لستُ سوى أثاث. 170, 180، 190. رأيـتُ أناساً يذهبون، ويأتي آخرون. كنتُ كعامل حقيقيٍّ في مرفـأ. وإذ أصبح ذلك فوق احتمالي، جازفتُ بالاتّجاه نحو المرابي سعياً للإشارة إلى حضوري. بذلتُ أقصى جهدي لأخفي تـشنّجي، وانتظرت. انتظرتُ طويلاً. انتظرتُ أن يشرح « زبونٌ »، طيلة خمس عشرة دقيقة، الفاجعة المرعبة للبريد الذي لم يتلقّاه أبـداً، والذي - على ما يبدو- سيحرمه من الدفع الذي يحقّ له. كلاّ، لم يرسل شكوى. كلاّ، لم يحتفظ بنسخة ورقة الرعاية خاصّته.

- ولا أتحدّث عن العرب، الذين لم يعملوا قط بحيـاقم، والذين ليس لديهم أيّة مشكلة في استيفاء حقوقهم. هؤلاء أنـا مَنْ أعرفهم. يُعطى لهم هذا – أشار إلى معصمه – وينتهون بأن يأخذوا منك يدك كاملةً. ولا يكتفون بذلك، بل يقبضون عن

الجميع: الأم، البنت، الأبناء، الأعمام، الأجداد! ليس لـديهم حتى الأوراق الأصليّة، وتسدّدون لهم المستحقات كاملةً. ومَنْ الذي يدفع؟ أسألكم أنتم عن هذا؟

العربية التي هي أنا، تنتظر باحتشام في ركنٍ من البـاب الذي خرج منه « الزبون » المسلوب مختالاً في غطرسته، ليس دون توعّد الموظّفَة بصواعق الجحيم بل وأسوأ، برسالة مسجّلة. أثارت الفتاة شفقتي، تصوّرتُ نفسي في مكانها، وقد أُشـبِعَتْ شتماً من قبل وغد دون وجه حقّ. وان لم يكن الأمر سـوى هذا: كيف تتصرّفُ هذه المرأة الحرّة لتقضي ثماني ساعات يومياً تحت لمبة نيون، في مقصورة وردية اللون مزجّجة، حيث يـأتي كلُّ واحدٍ يحمّلها كلّ مصائب المؤسّسة؟ أخذتنيً حماسة مفاجئة للتضامن معها، فشعرتُ بمخاوفي تكاد أن تتلاشـى، وبلطافـة عفوية كافأتها بعبارة: صباح الخير يا سيّدتي العزيـزة، والـتيً بالكاد جعلتها ترفع عينيها.

- 190؟

شلّني السؤال في الحال.

– عفواً؟

أشارت بضيقٍ إلى المُعْلِن.

– 190. إنّه أمامكِ.

وبتأثير تربيتي السليمة، شرحتُ أنني، لستُ الـرقم 190، ولا أيّ رقم آخر، وأنني ببساطة جئتُ أنتـسب إلى الـضمان

الاجتماعي، ولم أبلّغ قط بأنّه كان هناك حاجة إلى رقم، وأنـني سأكون ممتنّة لها إن أرشدتني إلى فن وطريقة أن أكون مدموغـة بدوري، كثورٍ في المسلخ.

نظرت إليّ الأنتيليّة• بلا قلقٍ، دون أن تتخلّى عن برطمتها المتشنّجة.

– لا أفهم شيئاً. أَلَم تأخذي رقماً؟

– لا، يا سيّدتي.

– خذي رقماً، قالت لي مشيرةً إلى آلة في المدخل، لم أكن قد ميّزتها عن مُطْفِئة الحريق. وانتظري إلى أنْ يُنادى لكِ.

يوجد الوجه الآخر للعالم المعاصر تحت أقدامنا. مساحاتٌ شاسعة من المعارض والمزاريب والأنفـاق ومـداخل المتـرو ومواقف للسيارات تحت الأرض، تغوص بعمق مستويين وثلاثة وأربعة وأحياناً خمسة مستويات. لم أستطع الامتناع عن التفكير بذلك، حينما تجوّلتُ في طول جادّات العاصمة المكتظّة بالناس. إنّه عالمٌ حقيقيٌّ يميد بضعة أمتار في الأسفل، عالمٌ من الظلمـات يجهل أشعة الشمس الصيفية. سرعان ما لاحظـتُ أنّ البـشر الأحرار ينفرون من الهبوط إلى تحت الأرض، كما لـو أنّهـم قضوا فيه قسطاً كبيراً من حياتهم. تبلور السراديب مخـاوفهم وقلاقلهم، كطفلٍ يرفض أن يُطفَأَ مصباح سـريره، المتـراس الأخير في مواجهةِ العتمة. المترو، والأقبية، وموقف السيارات، والكثير من الديكور حيث يحوم شبح الاعتـداء – وسـواسٌ

• نسبة إلى جزر الأنتيل ـ المترجم-

بامتياز لكلّ مدينيٍّ يحترم نفسه — متوعّداً.

ومع ذلك فإن باريس مدينة هادئةٌ نسبياً، حتى لو كانت غابةً، بماذا ستكون الأقبية أقلُّ أماناً من أزقّة منطقة الهال حيث يتنشّق شبّانٌ محطّمون المخدّرات تحت أرتاج العربات؟

باختصار، أنا التي أخاف من كلّ الناس ومن كلّ شيء، لا يصيبني أدنى خوف حينما يتعلّق الأمر بالنزول إلى تحت الأرض. بل يتملّكني هناك شعورٌ غريبٌ بالعذوبة والسكينة. بعيداً عن الضياء وعن هياج الخارج، أنغلق على ذاتي. على السطح، أكون في حالة عرضٍ. أراقب أفعالي، ميّتةً ذعراً. تحت الأرض، استغرق في التفكير، في القراءة، يهدهدني الطنين المخنوق للمترو.

لم أفهم قطّ لماذا تشلّني الحشود في الخارج، بينما لا ألاقيها في عربات المترو. باستثناء ساعات الذروة حيث يتحوّل البشر الأحرار إلى سمك سردين، وحيث يشعر المرء بأنفاس جاره قريبة

جدّاً بحيث أشعر بالغثيان، فإنّ الناس الذين يشغلون المترو مختلفين — في النهاية– بالنسبة لي. هل أعيش من أجلهم؟ أجهل ذلك، ولمرّة واحدة، لا أطرح على نفسي السؤال. كرسيٌّ بمقعد متحرّك، زاوية مقعد، وإذ بي مبحرةٌ في رحلة أريدها بلا نهايةٍ، موزونة بإيقاعات الرَّجّات المسكّنة للقطار المنساب على السكك. هناك، تحت الأرض، أستغرق في القراءة، وأتخلّص من

رتابة الحياة اليومية. من حينٍ إلى آخر، أرفع ناظري، لا

لأعاين المحطات المتتالية بل لأرسل نظري في عتمة الأنفــاق. في محطة ريومور–سيباستوبول، أدركتُ أنّ جماعاتٍ مــن صــغار الفئران كانت تعيش في البنى المعدنية للمقاعــدً الــتي يقــرأ المسافرون عليها جريدهم بانتظار المترو. لا أحد مــن بينــهم استدار أبداً ليرصد الخراطيم الجهرية التي كانت تعبر جحــوراً صغيرة، لأنه ليس لديهم سوى همّ واحد: أن يروا النور بأسرع وقت. حدث لي وأن دسستُ بعــض قطــع البــسكويت في الجحوُر، وأن شعرتُ بأنّها منهوشةٌ من الداخل. يجري الحديث كثيراً عن الجرذان التي تغزو الأقبية، أمّا أنا فلم أرَ سوى هــذه الفئران الصغيرة، التي لها قدرة غريبة على البقاء في عــالمٍ مــن الإسمنت.

كما أنّ هناك رجالٌ يسكنون هذا العالم، لاسيما عنــدما يحلّ الصيف محلّ الصقيع والجليد. وقد تبيّن لي بأنّه إذا كانــت المقاعد، على الأرصفة، قد أبعدت عن بعضها ما يقارب المتــر، فذلك ليس، كما كنتُ أعتقد، لتُتاح لي القراءة بهدوء، وإنّمــا لمنع هؤلاء الرجال من النوم عليها. فالناس الأحرار لا يحبّــون مشهد بؤس الآخرين. وبخلاف الفئران، لا يمكن لهؤلاء الــذين يسمّون بـــ «مَنْ لا مأوى لهم » الاندساس في الجحور، اتّقــاءً للبرد ولنظرات الآخرين.

أحبّ مواقف السيارات، ربّما أكثر من سواها، لأنّهــا دائماً مقفرة. نلتقي فيها بأشباحٍ تلامس الجدران، باحثة بيــأسٍ عن سيارهًا بالنظر. بالنسبة للبقية، فهي عبارة عن مــساحاتٍ شاسعة من مصابيح النيون المهمَلة، وسيارات فارغة متراصــة على مدى البصر. لدى مروري بهاَ، تخيّلت قصّةً لكــلٍّ منــها،

سائقاً، عائلةً، هؤلاء الناس المجرّدين الذين لن يخيفـوني أبـداً، لأنّهم نتاجُ تخيّلي، إنّهم ينتمون إليّ.

لزمنٍ طويل، تخيّلتُ شخصيات وحكايات. أخذتُ عائلتي في استراحةٍ مع حكاية ذات أحداث غريبة، حكايةٌ استغرقت زمن سَجننا الشاقّ، حكايةٌ عاشت وتقدّمتْ وشـاخت معنـا. وكشهرزاد في الأسر، لأحد عشر عاماً، كنتُ، ليلةً بعد أخرى، ابتكرتُ حكاية تجري في روسيا القرن التاسع عشر. كانـت « الندائف السوداء » تصف بدقّة مُلغزة، سيما وأنني لم أكن قـد وضعتُ أبداً قدمي في روسيا، قصورَ سان بطرسبرغ، وأعمـال القوزاق، والنزهات بالزلاّجات على ضفاف الفولغا المتجمّـد. كان عندي مخيّلة غنيّة! في الخارج، كان سعير الليالي المغربيـة، ولكن كان في قلوبنا طَوْفُ جليد متخيّل. كان كلٌّ واحد منّـا يحلم، وكان رؤوف يصفّر حينما لا يعود يسمع القصّة.

لفرط ما سردتها، غدا أبطالها مألوفين جداً بحيث بـدا لي وكأنني عشتُ إلى جانبهم؛ هكذا يصبح المرء كاتباً أو حالماً أو مفصوماً في شخصيته. ثمّة شيءٌ قليل مـن تلـك الحكايـة في الطوابير الطويلة للسيارات التي تشغل أقبية سراديب بـاريس. إنّها علبٌ فارغة، تروي القصص التي يُرادُ لها أن تُسمَع جيداً. إنّه عالمٌ مصنوعٌ على مقاسي، عالمٌ لا يريدُ أحدٌ أن يحكمه، لأنّه لا يوجد فيه أحدٌ.

حينما كان المال ملموساً

على مدى ما أتذكّر، اتّسعت محفظتي لثروتي. ولكن، كان المال بالنسبة لي شيئاً ملموساً، مفهوماً يمكن جسّه والذي كان يخشخش في جيوبي لحساب خياطي الضفة اليسرى. كنتُ أحيله أثواباً من ديور أو سان لوران، ومصاريف عند كاستيل أو ريجيني، وعطلاً رائعة أقضيها مع أمّي في نيو يورك أو لوس أنجلس.

في عالم البشر الأحرار، تغيّر شكل المال نفسه. فبعد أن بقي سليماً مستقراً على مدى قرون، لم يجد ما هو أفضل من أن يتغيّر ويتحوّل، خلال سنوات، في الوقت الذي عدتُ فيه إلى الحياة. ألا بدّ أن يهرب مني كلّ شيء وكأنّه يعاقبني على كوني غائبة لأمد طويل جدّاً؟ طبعاً، لا تزال الأوراق المالية، كما القطع المعدّنية، المسمّاة بالبيضاء أو الصفراء، حسب قيمتها، موجودةً، ويمكن للقدماء أن يتشبّثوا بها، مثلما هو الشيك العجوز الطيّب الذي يبلغ مفهومه من العمر ما يقارب مائتي عام. وطبعاً، لا يزال هناك أناسٌ يتكلّمون بالفرنكات القديمة، وبملايين السنتيمات. ولكنّ الحقيقة هي أنّ المال قد غيّر وجهه. لقد أصبح مجرّداً، عائماً، يُلعب به مثلما يُلعَب بالفيش* في الكازينو.

تشغل ثروتي من الآن فصاعداً قطعة صغيرة من البلاستيك، والتي يمرّرها المرء إلى النادل دون التفكير بها، وهو

* Jetons (فيش): تستخدم بديلاً عن المال في ألعاب القمار في الملاهي، وتقصد أن المال النقدي الملموس نذُر وحلت محله هذه القطع البلاستيكية الممغنطة ـالمترجم.

يتابع حديثه. قبل أقلّ من ثلاثة أشهر، كنتُ أندهشُ من الآلــة السحرية لقيد الحسابات المصرَفية، وأنا أُقْسم بأقدس ما عندي على أنّني لن أسقط أبداً في التجريد. أن أدفَع هكذا بالهواء غير وارد. لا بدّ أن أرى نقودي، أن ألمسها، أن أحــصي الأوراق المتبقية معي، وأن أجري في مخيّلتي الحساب الذهني للنقود التي أُعيدَت إلي، وللبخشيش الذي تركته للنادل. تُكــربني بطاقــة الائتمان، تفصلني عن الواقع. ومع ذلك... وحرصاً منه علــى ألاّ يراني أعيش في الماضي مثل أولئك المسنّين الذين، رفــضوا رفضاً قاطعاً تداول الشيك، في زمن البطاقة المصرفية، استخرج ايريك لي بطاقة زرقاء، برّاقةً. تحمل اسمي بحــروف مذهّبــة، لم أكلّ عن النظر إليها. قيل لي بأنني، بهذا المفتاح السِّحري، لــن أكون أبداً في ضائقة: يمكن استخدامها في كلّ مكان، لدفع ثمن المشتريات، وأينما رُفِضَتْ البطاقة، هناك أجهزة صرف آليــة تحوّل البلاستيك إلى نقود، إنّه حلمٌ خيميائيٌّ حقيقــي. يجمــع الناس الأحرار، من حولي، هذه البطاقات بخيلاء ظاهر... حــتى المَحافظ قلّدت الآخرين، تاركةً الجزء الجميل منــها لبطاقــات الائتمان. غالباً ما تحتوي المَحافظ البطاقــات ذات المــصراع الواحد ثمان أو عشر بطاقات منها. كانت علامة النجاح، في ما مضى، هي ترك حزم الأوراق المالية تظهر للعيان، أمّا اليــوم، فأفضل علامة لنجاح المرء هي التنزّه وقد عُجّت محفظته بكــلّ ألوان القوس قزح. يوجد منها ما يناسب كلّ الأذواق، وكــلّ الصُور، الأمر الجوهري هو رصّها بما يكفي للشعور بوجودها. لأنّ العالم كما وجدّته لا يعترف بأبنائه سوى من خلال شــبكة عملاقة، كلّ شيءٍ فيها وقفٌ على بطاقة الائتمان.

في الفترات الأولى، ظلّت بطاقتي الزرقاء في قاع محفظتي، لا تجدي نفعاً سوى في تغذية خوفي من أن تُسرَق. هذا الشيء الذي يُفتَرَضُ به أنّ يسهّل الحياة، لم يتوانَ عن إفساد حياتي، مضيفاً همّاً إضافياً إلى همومي، كنتُ بغنى عنه.

– وإن سُرِقَت منّي؟

– لن تُسرَق منك، أجابني ايريك. في أسوأ الحالات، وبمخابرةٍ هاتفية، تقدّمين إبلاغاً.

إبلاغ؟ لن أتصوّر، في أحلامي الأكثر طيشاً، أن أضايق المصرفي في عمله لأصرّح له بشفقة عن فقدان بطاقتي الزرقاء. بالتأكيد، سيستجوبني، ويكرهني، وربّما سيوقع عليّ غرامةً. كنتُ أحمل ذلك العبء كما تحمل صبيّة مفتاح البيت حول رقبتها: أشياءٌ كثيرةٌ تقومُ على شيءٍ صغيرٍ جداً، فلمجرّد فكرة فقدانه، يكون نهارها فظيعاً.

لحسن الحظ – إن تجرأتُ على قول ذلك– أنّ بطاقة الائتمان، بخلاف المفتاح حول الرقبة، محميّةٌ برمزٍ من أربعة أرقامٍ سحرية لا يمكن للمرء من دون الأرقام أنّ يفعل بها أيَّ شيءٍ، على الأقلّ هذا ما أظنّه. وقد نُصحتُ بإلحاح أن أحفظها عن ظهر قلب، ولكن ماذا لو نسيتها؟ ثلاث محاولات عقيمة وتُقفَل البطاقة – لا تسألوني بأيّة معجزةٍ –، وتصبح غير قابلة للاستخدام.

ماذا يحدث في هذه الحالة؟ لا أريد حتى أن أعرف ذلك. على الأرجح يُستنفَر المصرف، وقد يستدعي التجّار الشرطة:

بطاقةٌ بلا رمز هي بطاقةٌ مسروقة. وهكذا احتلّت أربعة أرقـــامٍ حياتي، وشغلت كلّ مكان، مستذكرةً ذاكـــرتي القويّـــة قـــدرَ الإمكان. سجّلتها على ظهر مفكّرتي الـــصغيرة، علـــى ورقـــة مطويّة أربع طويات في قاع محفظتي، على دفتـــر مـــذكّرات في البيت، على لاصقة خلف البرّاد، وحتى على تجويف معصمي، بقلمٍ من حبر سائل (فوتر). لفرط ما ردّدهّا، أذكرها كما لـــو أنّها تاريخ ميلادي، ولكن مَنْ يدري، ربّمـــا ننـــسى صـــدفةً، وهكذا يمكن تجنّب الكارثة.

– من التهوّر أن تتجوّل مع الرّمز، قيل لي في النهاية. ففي حالة السرقة، سينال الشخص كل ما يلزمـــه، وســـيمكنه أن يفرغ حسابكِ.

لأمد طويلٍ، تجنّبتُ استخدام أجهزة الصرف الآلية. كـــان تنظيم مشترياتي، وطعامي، وكسائي، وتبضّعي بواسطة قطعـــة البلاستيك تلك يصبح بالنسبة لي أمراً يمكـــن احتمالـــه بـــل ومألوفاً. ولكن سحب السيولة النقدية من آلة وسط الـــشارع كان شيئاً مختلفاً تماماً. كان الإحساس المزعجُ بالتخطيط لسطوٍ ينتابني في كلّ مرةّ كنتُ أهّيّأ فيها لاستخدام الـــصرّاف الآلي، وكنتُ أعود واهنة العزم، ممسكةً ببطاقتي كَمَنْ يصوّب سلاحه ويجول بلا كللٍ من حول مصرف دون أن يتجرأ على دخوله. تتناثر في باريس أجهزةُ صرف آليّة كثيرة، مثـــل CIC، CCF، كريدي ليونيه، الشركة العامّة، BNP ...، تلزمك بـــاختلاس المال منها. تتميّزُ كلُّها بلوحات مضيئة، ويد تدسّ بطاقةً، إنّهـــا دعوة إلى الفجور. تشكّل هذهٍ اللوحاٍت جزءاً مـــن المـــشهد،

بنفس طريقة « مواقــف الحــافلات » الجديــدة المبرقَــشة بالإعلانات التي حلّت محلّ أعمدة موريس.

ولما كان المرء لا يفلت من قدره، وجدتُ نفــسي ذات صباحٍ جميلٍ في طابور الانتظار أمام صرّاف للشركة العامّة، في مكانٍ من أطراف محطّة ليون. لم يكن من الممكن تفاديه، كنتُ بحاجةٍ إلى ما يكفل لي الاستمرار، ولم يكن لديّ لا الوقــت ولا الإمكانية للمرور بالبيت، ولا كذلك بالمصرف. على مبعــدة بضعة أمتار، كان صرّافٌ بالأسود والأحمر يبــسط يديــه لي، وانتهى بي الأمر أن استسلم له. ولكن ليس بلا عناء... لمرّتين، ولثلاث، مررتُ أمام الآلة، أرمقها بطــرف عــيني بارتيــاب. انتهيتُ إلى الاقتراب منها، بانحراف، لآلَفَها كما لأعتاد علــى الفكرة. في جوف معدتي، كان يولد ذلك الإحــساس الــذي أميزه بين جميع الأحاسيس: الخوف، القلق، مزيجٌ من المشاعر لا يحمل، حقّاً، اسماً. إذا كان لا بدّ من تسميته، فسأدعوه تنــاذر* العالم الحرّ.

الآن، في الطابور الذي تشكّل أمام الكُوّة الآلية، أنتظــر دوري. وتدافعت كلّ أفكار العالم في رأسي. هــل سأحــسن التعامل مع سير الآلة؟ لا شيء مؤكّد. هل ستتعرّف إلى بطاقتي، مثلما يتعرّف صنبور مقهى لو فلور على أيادي الزبائن؟ ألــنْ يُطلَب منّي رمزٌ غير رمزي ورقم حساب والضمان الإضــافي لموّلي، ورقمي في الضمان الاجتماعي؟ الأسوأ هو أن الطــابور قد طال من خلفي الآن: كانت امرأةٌ وخلفها عامل باللبــاس

* تناذر: تزامن أعراض مرض من الأمراض -المترجم-

الأزرق الخاصّ بالعمل ينتظران دورهما بتذمّر. وقد بدا عليهما علامات التوتر العصبي، لأنّ الشخص الذي يستخدم الصرّاف لا يستعجل، الأمر الذي أصبح، في سنوات التطوّر هذه، إثماً قاتلاً. تنفّس العامل نافخاً، ونظرت المرأة إلى ساعتها. راودت ذهني فكرة أن أهرب، ولكنني أدركتُ بأنّه لن يكون الحال في مكان آخر مختلفاً. فالوقت منتصف الظهيرة وباريس تعجّ بالناس. لن أعثر في حي مزدحم لهذه الدرجة على آلة تركها كل الناس بحيث سيمكنني أن أنطلق دون تحفظ في إجراء الاستكشاف حيث سيمكنني أن أطلق العنان لنفسي، دون تحفّظ، في إجراء أبحاث الاكتشاف.

جاء دوري. تجرأت بالكاد أن أنظر خلفي: زاد شخصٌ آخر على الطابور. وإذ لم أعد أحتمل، التفتُ نحو المرأة التي تليني:

– أتريدين المرور ربّما، يا سيّدتي؟

– كلاّ، من فضلك، أنتِ كنتِ هنا قبلي.

تمتمتُ بكلمات شكرٍ لم تصل، قبل أن أستدير نحو الوحش. أعلنت لي شاشة ملوّنة بتهكّم

" أهلاً وسهلاً بك » وكذلك « تفضّل بإدخال بطاقتك». إن حدث وعجزت عن معرفة التعامل مع الآلة، سينقذني رسمٌ صغير، يمثّلُ يدي وبطاقتي ومأخذ البطاقة، وحتى الخانة الرقمية في الأعلى تماماً.

بهدوء، أخرجتُ بطاقتي مثلما طالب الصرّاف الآلي، وأنا

أنظر ذات اليسار وذات اليمين، مذهولةً بفكرة أنّ يستطيع أيّ شخص أن ينقضّ علي وينتزع مني بضربة واحدة كل ثـــروتي. التفتُّ إلى الوراء: ربّما لهذا رفضت المرأة التي كانت تلـــيني أن تأخذ مكاني. ولكنّها لم تتحرّك قيد أنملة. فتّشتْ حقيبتها بإتقان. فدسستُ بطاقتي في الصدع، ولكن حينما شعرتُ بها خُطفَت، تشبّثتُ بها، رافضةً تركها تمضي. عجباً! كان يتهيّأ لأن يبتلعها. وماذا لو رفض أن يعيدها إليّ بعد ذلك؟ وماذا لو اختفـــت إلى الأبد دون أن تترك أثراً؟ الأمر الأسوأ هو أن تُلفَظ من الآلـــة بعد ذلك بساعات، وأن يستولي عليها أيٌّ كان ويغـــير علـــى المحلّات على نفقة الغير.

للحظات، قاومت نهم الصرّاف الآلي، قبل أن أنتزع منـــه بطاقتي. تنفّستُ، وعدتُ إلى رشدي. القليل الذي أعطيته إياه لم يكف لتحديد هويّتي: استمرّت الشاشة في عـــرض «أهـــلاً وسهلاً بك» وأسمعني العامل تأفّفه وسخطه من جديد. سينبغي إذاً أن أدع ثروتي الأغلى تذهب إلى أعماق هذه الآلة التي تُبدو أحشاؤها للعيان... للمرّة الثانية، قدّمت بطاقتي باتّجاه مَبْلَـــع الصرّاف الآلي، الذي شفطها دون أن يستعيد أنفاسه. رغمـــاً عنّي، وكعاشقين افترقا قسراً على رصيف محطّة، أرخيتُ قبضتي وتركتُ بطاقتي تعيش حياتها. سُمِع صوتٌ آليٌ، وبعض الصفير، ثمّ تغيّر لون الشاشة.

« تفضّل واكتب رمزك السرّي.»   أكتب رمزي السرّي، هنا؟ وسط الشارع؟ من جديد التفتُّ إلى الوراء.

– هل ستقضين الليلة هنا؟ توجّه إليّ بجفاء الرجل ذو بزّة

العمل الزرقاء، مسروراً للغاية بملاقاة نظرتي.

غمغمتُ بكلمات وكأنني أُبرّر موقفي. تلوّيت وحاولت أن أشيح بوجهي عنه وطَرطقتُ أرقامي الأربعة باضطراب. حتى أنّ الجهاز كافأني بعبارة « رمز غير صحيح، كرّر من فضلك ». جمّدت رعشةٌ عظامي، بحيث استحالت الأرقام التي طرطقتها أنجماً صغيرة. عدمتُ الوسيلة لمعرفة ما إذا أخطأت. وأنا في ذروة الذعر، أعلنت الشاشة محاولة ثانية. محاولة ثانية، الآن؟ أعلم بأنّ في المحاولة الثالثة، سأكون مفلسة؛ وبطاقتي معي.

تحقّقت من الأرقام الأربعة المخفية في قعر محفظتي بإلقاء نظرة عليها. لم تتغيّر، لا يتغيّر الشيء، قسراً، في دقيقة حينما يكونُ رقماً. لحسن الحظّ، نجحت المحاولة الثانية بفضلٍ عيون الآلة، التي كافأتني بشاشة جديدة. 200، 400، 600، 800، غير ذلك. كيف يمكنني الحصوٍل على 200 فرنك؟ حاولت أن أضرب الرقم 200 على ملامس الآلة، ولكن لم يسفر عن ذلك شيء. ضغطتُ، يائسةً، على أحد الأسهم المحيطة بالشاشة، متسبّبة بعبارة « تفضل بالانتظار » المشؤومة. نسأل مصرفك، أعلنت الآلة، وتوقّف قلبي. لماذا يسألون مصرفي؟ ليس هناك ما يؤْخَذُ عليّ.

« تفضّل واسترد بطاقتك». استوليتُ على ثروتي كطير جارحٍ، وأخفيتها بعزاء في قعر جيبي. لقد مرّ الأصعب. سمعتُ ضجيجاً معدنياً جديداً، ارتفع مصراعٌ، وانزلقت نحوي أوراقٌ مالية جديدة جدّاً لدرجة تثير الشكّ في أن تكون مزوّرة. 200

فرنك، مرّة، مرتان، ثلاث. 600 فرنك! مذعورةً، نظــرتُ إلى أوراقي، حسبتها، وحسبتها من جديد. لقد أخطأت الآلة، أنــا واثقة من ذلك، وأعطتني أموال شخصٍ آخر. كدتُ أن أوزّع الورقتين الزائدتين على الشخصين اللذين كانا ينتظران، فربّمــا أن هذا المال هو لهما.

في أوّل غرفة هاتف صادفتها، اتّصلتُ بايريك لأروي له مغامرتي المزعجة، لأرجوه أن يتّصل بالمصرف، ليــبلغهم بــأنّ ورقتين من فئة مائتي فرنك، سُحبتا من حساب غير حــسابي، انسحبتا تلقائياً. أنا مستعدّة لإعادهما، في الحالً إن لزم الأمر، لو أنّ هذا الصرّاف اللعين كان يرضى بأن يعمــل بــالعكس، ويبتلع الأوراق المالية مثلما يزدرد بطاقات الائتمان.

– لا تشغلي بالك، أجابني رجل حياتي ، مطمئناً، لا بــدّ أنكِ قد ضغطتِ على الزرّ غير المناسب...

على ما يبدو، أن الكوّات الآلية لا تخطئ أبداً، ولا صنبور لا فلور منع الماء عن زوجٍ من عشرة مــن الأيــادي. ربّمــا ضغطّتُ حقّاً على الزر الخاطئ، واخترتُ السهم الخاطئ. ربّما انقلبت المبالغ. في كلّ الأحوال، هذه الموزّعات الآلية للأوراق المالية، هذه الوحوش الباصقة للأموال التي تحلّ محــلّ مــوظّفي الكوّات ليلَ نهار، لن تعطيك أموال الآخرين. مطلقاً. بــذلك الاطمئنان الغامض، سأنتظر بعد ذلك على الأقل خمسة عــشر يوماً والخوف من مخالفة القانون ينهش أعماقي، حــتى يــصل كشف حسابي، الذي ذكر بوضوح سحب ستمائة فرنــك، في نفس ذلك التاريخ الذي واجهت فيه واحداً من أشباحي.

لهذا، لا يمكنني العزم على قبول مبدأ الائتمان. تربيتي وقيمي والغياب الطويل الذي حذف منّي أشياءً من العالم، كلّ هذا يحثّني على رفض الميل المعمّم إلى إنفاق أموالٍ لا وجود لها. حبستُ نفسي لزمنٍ طويلٍ مرغمةً لئلاّ أكبّل نفسي طواعيةً بقلاقل الائتمان وهمومه. يُغروننا بالكثير من الأشياء، بالكثير من الكنوز التي تعمّر أحلامَ أولئك المستعدينَ لأن يتكفّلوا لعشرة أعوامٍ، لعشرين عاماً، بحكمٍ بلا استئنافٍ في سبيل سيارة جديدة عاديّةٍ. ماذا لديها أكثر منْ غيرها، هذه السيارة التي تدفعهم إلى اقتراض بنسبة مئوية تُدعى تفضيلية؟ مقاعد من الجلد، وهواء مكيّف، ولونٌ زاه، وإطارات من الألمنيوم للعجلات؟ يا للمهزلة! لو أنّ الأمر لم يكن يتعلّق سوى بي، لكنّا عشنا عشرين عاما بنفس سيارة بيجو العتيقة، ولكان كلّ سنتيم مقتَصَد من سيارة مرسيدس سيضخّم حساباً مجمّداً، لفصولَ الشتاءِ العصيبة.

ليس لحالتي كمستكشفة في عالمٍ مجهول الكثير من الفوائد، اللّهمّ سوى هذه: لن تكون حاجاتيَ أبداً نفس حاجات الأحرار. أنا أيضاً، كنتُ شابّة، طائشة، ضحية الدُّرجة (الموضة) والدعوات إلى الاستهلاك. اليوم أعرف أموراً قضى البعض أحياناً حياةً كاملة كي يفهموها: جوعي لم يُسدّ بعد.

لابدّ من القول بأنّي، منذ عودتيَ إلى الحياة، مذهولة بالحيز الذي يشغله الآن الإعلان في دنيا أمثالي. قبل سنوات، كان يجري الحثُّ على الاستهلاك، ولكن عدا عن أنّ السجن قد قرض ذكرياتيَ، لا شيء كان يضاهي الصخب العشوائي

لإعلانات اليوم. جدران المدينة مغطاة بإعلانات تنبسط عليها ألبان وألبسة وعطور. التلفاز عبارة عن أسهم نارية للإعلانات، لكثرتها أُصبتُ بدوّار: قبل الأفلام، وبعد الأفلام، وخلال الأفلام. بين الأخبار والنشرة الجوية، يُدسُّ متجرٌ كبير أو محلٌّ للنظارات. العديد من البرامج « قُدِّمَتْ لكم » من قبل معلنْ. في المجلات، كلُّ صفحة من أصل اثنتين تغري الناس الأحرار بمحاسن ومنافع ما لا يملكونه. فتيات رشيقات في الخامسة عشرة بجسمٍ خالٍ من العيوب يمجّدْن مزايا مرهمٍ مضاد للتجاعيد. صورٌ لبُحيرة مرجانية مياهها فيروزية تنيرُ ممرّاتَ المترو، مدموغة بـ « عَرضٍ خاصّ » يثير الأحلام.

رحلاتُ طيرانٍ بأسعارٍ مخفّضة إلى آخر الدنيا، حواسيب مكتبية، ستيريوهاتٌ، درّاجات رياضية، هناك من العروض ما يناسب كلّ الأحلام وكلّ الأعمار. حتى المسنّين الذين يُسمّون العجائز لأنّه لم تعد الأشياء تُسمّى بأسمائها الآن، هؤلاء المسنّين الذين من المفترض أنّهم قد بلغوا حالة الرزانة والحكمة يجري إغراءهم واجتذابهم بفضل كراسٍ بمسندين للجلوس وحيدين ببلاهة أمام التلفاز، أو بأثاث الحديقة، الذي سوف يرتّبونه بعناية ، تحسّباً لليوم الذي قد يقرّر فيه الأطفال، الغائبين منذ زمنٍ طويل، زيارتهم. الأسوأ من هذا، تُباعُ لهم مآتمَ وصكوكَ تأمينٍ على الحياة وأمكنة في المقابر، تجنّباً لأن يزعجوا الآخرين حينما تأتي ساعة إقلاعهم الأبدي عن الاستهلاك.

البؤس

ألبير صديقي، ومع ذلك فهو ليس صديق أحد، لأنّنا نمرُّ من أمامه دون أن نراه، إنّه جزءٌ من المشهد، كأعمدةٍ الإشارة أو الحاوية في ركنٍ من الحي. لم يعُد يُقال متشرّد – بطلتْ العبارة في أثناء غيابي– وإنّما « بلا مسكن ثابت»، وخاصّة SDF، كسباً للوقت. ومع ذلك فهو لديه مسكن، يكاد يكون ثابتاً، بسقوط الليل، في زاوية قصيّة، أسفل واجهة مخزن لبيع الأحذية. تحت خفاف ثمنها مائتي يورو، يضع حوائجه البسيطة: كيسُ نومٍ، وسادةٌ مرتجلة مكوّنة من سترة ملفوفة اسطوانياً، وكأس ماكدونالد مُلْقى على الرصيف، إنَّ حدثً وحاول أحدٌ ما أن يتخلّص من القطع النقدية الصغيرة التي تشوّه جيوب البزّات الأنيقة. ينام ألبير هناك كلّ مساء، عدا ليالي الشتاء الأكثر قسوةً حيث كانت حافلات بيضاء تحمّل مَنْ لا مسكن لهم لتجنّبهم الموت برداً. لمرّة أو مرّتين، اضطرَّ إلى حزم متاعه، مطروداً من قبل الجيران الذين كانت الرائحة تزعجهم، أو من قبل مدير المخزن العائد لتدقيق حساباته. كما أنّه هوجم، ذات ليلة صيفية، من قبل مجموعة من الشبّان الذين أوسعوه ضرباً اعتباطيّاً، بسبب الرياضة.

ألبير صديقي، وليس هذا على سبيل الكلام فحسب. وإذا كنتُ أُسعَدُ بإملاء طاسه بين الفترة وأخرى، فما كان يدفعني إلى ذلك الشفقة. هذا خطأ. فبخلاف الناس الأحرار، أشعر بنفسي على ما يرام صحبةَ المتسوّلين. أَفْضَل حتّى من صحبة الذين يملكون المنازل الذين يوقظون بالضرورة أحزاني

وقلاقلي. أمّا الذين لا مأوى لهم، فلا يغشّون ولا يخدعون. إنّهم لا يتغيّرون، وأجد نفسي في طريقتهم الساذجة واليائسة في التوجّس من العالم. كم من الوقت أمضيته مع ألبير وأقرانه في الحديث بتواتر عن كلّ شيءٍ وعن أتفه شيء، عن العالم وشقائه؟

لم أعد أدري. ولكن يبدو لي أنني كرّستُ لهم من الوقت أكثر ممّا كرّسته لأصدقائي. لا تؤثّر مفاتن الإعلانات عليهم، كما عليّ؛ إذ كيف يمكن الانسياق للاستيهام على الموقع الجديد، عندما ينام المرء خاوي البطن؟

لألبير أربعون عاماً وماضٍ فوضوي قاده إلى أسفل عمارتي. أحياناً، يروي لي سنواتٍ تشرّده. وأحياناً أخرى، يتدفّق بوحاً، يتكلّم عن أيامه التي لا تنتهي، وعن الطاس الذي يصعب من أن يمتلئ... ويهتمّ بي، بلا تملّق، بلا مجاملات الناس الأحرار الذين يبذلون الكثير من الجهد لإثبات أهميتهم للآخرين إلى حدّ أنهم يسهون بذلك عن الإصغاء إليك. لا أحبّ أن أدسّ نقوداً لألبير؛ فالاستجداء يضايقني. والغريب، بينما هو يعفّ عن الاعتقاد بأنّ المتسوّل يخجل ويستحي، كنتُ أنا مَنْ أتضايق لفكرة رؤيته يمدّ يده للآخرين. بين الحين والآخر، كنتُ أحاول أن أعطيه القليل من المال دون أن يُفهم من ذلك أنّه صَدَقَة... أو ، أوفّر له قليلاً مما يهمّه، قليلاً من الطعام، قارورةً، وجريدة.

فليأكلوا، ويشربوا، ويدخّنوا، ويحشّشوا، فإنّ ألبير وأقرانه يعيشون على هامش عالم البشر، مرمين على الأرصفة

كأكياس القمامة، لغرضٍ وحيد هو أن يَحْيوا. أنا أيضاً أدركتُ ذلك، هذا السعي الحثيث إلى العيش حتى اليوم التالي، دون أن أعرف حقّاً لماذا. هل غريزةُ البقاء، أم هي الأمل، وقوّة العادة؟ أجهل ما يدفع اليائسين إلى التمسّك بالبقاء إلى أقصى حد.

كلّ يوم، تتلاشى نقودي مدراراً في المترو، تتلقفها كل دواعي العالم السفلي. مشرّدون، متسوّلون، موسيقيون، بائعو الصحف أو الحلوى... يمرّون خلسةً في حياة أولئك الذين يسبلون عيونهم لدى اقترابهم، يتابعون بلا كلل كأنّهم يعدّون الركاب، متنقلين من مترو إلى آخر. طفلٌ جائع، سقفٌ من أجل الليل، ما يكفي لوجبة ساخنة، بعض القروش لدفع الإيجار. من هو الصادق بينهم؟ لا يهمّ إن كان الكلُّ صادقاً أو لا شيء من ذلك، فأنا أشعر بعوزهم فطرياً. في انتظار من يلبّيهم، يتجوّلون في المقطورات، وهم يمدّون يدهم في الممرّات أو على السلالم، تحت الشمس الحارقة. تعمّقت لازمتهم في السلوك إلى حدّ لم تعد تثير اهتمام أحد إلا نادراً. لحظةَ خطابهم، تتشنّج الوجوه خفيةً، وتتقطّب الحواجِب، تنشدّ العيون إلى المجلات أو كتب الجيب. لقد أصبحت قدرة البشر الأحرار على غضّ النظر عن بؤس الآخرين فطرةً ثانية. إنّهم ببساطة ينغلقون على أنفسهم. وأنا أراهم غارقين في قراءتهم أو في التأمّل في أحذيتهم، تراودني شكوكٌ بشأن الصَدَفة التي يغلقونها ثانية عند اللزوم. هل يتصنّعون اللامبالاة لينسوا بأنّهم قد ينضمون، ذات يوم، إلى ألبير في عالمه الرتيب؟ ربّما يحافظون على كمال محفظتهم فقط؛ فلكثرة ما يتخفّف المرء من قطعه

النقدية الصغيرة، يجد نفسه مرغماً على صرف ورقة نقدية، حينما يقرِّر شرب فنجانٍ من القهوة.

من جهتي، أعطي بلا تمييز (غالباً خطأً، إذا صدّقتُ أقوال أصدقائي، الذين يعلنون لي بأنّ مافيا حقيقية للتسوّل تعيثُ فساداً في باريس)، بعض القطع النقدية الزهيدة والتي قلّما أشعر، بخلاف أغلب الناس، بأن قطعتين أو ثلاث قطعٍ مرمية في قبّعةٍ تنقذهم من مشكلتهم مع عذاب الضمير.

بتأثير ألبير وآخرين، شعرتُ بأنني أعود نافعةً، وأنني أنسى عُصابي النفسي لأمدّ يدي إلى أولاء الذين ينامون تحت المطر. وهكذا، وبكلّ براءة وسذاجة، اتّجهتُ طوعاً إلى خدمة مجانيّة في مؤسسة SAMU، الاجتماعية. ربّما لابدّ لكلّ واحد أن يجد هناك هدوءه وتوازنه. وقد لا تكون الوسيلة الفضلى لراحة الضمير سلسلة من الجلسات الاستبطانية التي تستغرق الواحدة منها نصف ساعة لقاء مائتي يورو. بقوّة هذه القناعة الجديدة، رحتُ أبذل مساندتي للملفوظين من المجتمع. ولكن شتّان بين الأفكار العظيمة والواقع. ذات ليلة، سارت باريس غير منتظَرَة، شرسة، طافحة بالعَوَز والأوباشً تحت أبصاري. من خلال الزجاج المعتم لنوافذ حافلة SAMU، ارتفعت أنوار المدينة كنجيمات خافتة... ووددتُ أن أعود إلى بيتي. راحت قراراتي الكبرى، وهمّتي حديثة العهد، وورعي هباءً. انطويت على نفسي، مذهولةً بالكثير من الحزن. شعرتُ بنفسي أضعف بكثير من أن أتحمّل المزيد، ونقضتُ وعدي. بعد ليلة حزينة من الخدمة، وما يكفي لتغذية كوابيسي للسنوات القادمة.

– هذا لا يهمّ، قالت لي مسئولة الوحدة، معظم الناس لا يقاومون الصدمة.

شقّ علي أن أقول لها بأنّ قلبي ينقبض، وأنّ جُبني يثقل عليّ. الأسوأ هو أنني أعلنتُ بصوت عالٍ وقويّ لمن كان يريد الإصغاء إليّ بأنني كنتُ أقتحم ميداناً العملَ الإنساني، عاتبةً حتى على الأكثر فتوراً لعدم بذل أيّ جهد للتخفيف عن التُعساء. كفتني ليلة واحدة لأدرك بأنني لم أكن أملك رباطة الجأش والجلد الكافيين لأواجه ضيقاً آخر غير ضيقي... لعدّة أيام، قمتُ بدورة طويلة لأتجنّب واجهة تاجر الأحذية. لمجرّد فكرة النظر إلى صَديقيّ ألبير، الأخ في المصيبة لذلك الرجل الذي شاهدته يموت على رصيف، بسبب ليلةٍ صيفية طويلةٍ جدّاً.

في محطّة سان لازار، يُبدي البؤس وجهاً جديداً. إذ تمثل في ذلك اليوم، اتّخذ في قسمات وجه سيّدة عجوز، وتصعد ببطء إلى الرصيف. تجرُّ حقيبة ثقيلة وقُفّةً وعصا، وكان من الواضح أن لا أحد ينتظرها لحظة وصولها. حذائها مهترئ، وحقيبتها رثّة، وثيابها رمادية وبالية على صورة السنوات التي تثقل كاهلها. شاهدتها تتقدّم، شبحاً بائساً محنيّاً في المدّ البشري النازل من القطار. أهي عائدة من رحلة أم أنّها، كغيرها، تقيم في ركنٍ معتمٍ من المحطّة؟ لا شيء يتيحُ تأكيد أي احتمال. كاد المسافرون يطرحوها أرضاً، وهم يتجاوزونها من اليسار ومن اليمين، ويصدمون عصاها لدى مرورهم بها. سبعون عاماً في وادي الدموع هذا لتنتهي وحيدة، متشبّثةً بأمتعتها...

العالم الذي أتيتُ منه بعيدٌ عن أن يكون مثالياً، ولكنّه

علّمني احترام العجائز، ونقل المعرفة والتقاليد، ومعنى العائلة. لدي ذكرى سهرات حيث كانت نساء يحملن على جباههنّ تجاعيد وقورة يتربّعنَ صدارة المجلس، وهنّ يروين قصصاً لم أكن أستسيغها. في المجتمعات الشرقية، لا يتمنّى أيٌّ كان الموت قبل أن تدركه الشيخوخة...

من جديد، أشاح البشر الأحرار بنظرهم. يوماً بعد آخر، تزداد دهشتي لقدرتهم على إشاحة وجوههم عن بؤس الآخرين، وقد تفسّر ذلك العناوين البارزة للصحف، التي يصعب عليّ أحياناً تصديقها. يبدو لي أن عبادة النزعة الفردانية بلغت خلال عشرين عاماً ذروتها.

بمشاهدة تلك العجوز التي تسير وحيدة إلى مصيرٍ يَحيْدُ عنه المارّة، تذهلني المفارقة اليوم على نحوٍ خاصّ. قد تموتَ على هذا الرصيف دون أن يقترب أحدٌ منها. في أحسن الأحوال، قد يستدعي شخصٌ ما رجال الإطفاء أو رئيس المحطّة. أهو الخجل أكثر منه اللامبالاة ما يدفعهم إلى الإشاحة ببصرهم، إلى الاستغراق في أحاديثهم، إلى حثّ خطاهم؟ كم سيكون بسيطاً الأخذ بذراع هذه السيّدة العجوز، ومبادرتها بابتسامة، ومساعدتها في حمل أمتعتها... شاهدتُ لامبالاة الآخرين، فأسبلتُ ذراعي. عاتبتُ الحشد على ما لم أفعله أنا نفسي. ولكنني لستُ بين الحشد. لا أزال لا أشكّل جزءاً من عالمهم. الشبح، الشاهد الشفّاف، وهو من يحكم. أبحثُ عن قوى لأجل الفعل دون أن أعثر عليها. إذا كان عليّ أن أستبقي واحدة منها، فهي قوّة التألّم، قوّة النزف من الداخل.

- سوف لن يمكنك قط إيواء كلّ الكلاب الشاردة، قيل لي.

أعرف ذلك، لدي من الهموم ما يكفي لئلاّ انشغل بهموم الآخرين. ولكن هذا أقوى منّي: الضيق يستجوبني. بل ربّما ويجذبني.

الشهيّة

أنا قادمة من عالم لكلّ كسرة خبزٍ فيه قيمة. طيلة سنوات، لملَمْتُ الكثير من تلك الكِسرات وحفظتها بحيث لو رادفتها في صفٍّ متواصلٍ لرسمت خطّاً بطول طريقي من هنا حتى المغرب. في حكايات طفولتي، كان بتي بوسيه petit poucet يستعيض عنها بالحصى ليهتدي بها إلى سبيل منزله؛ أمّا من جهتي، فسأكون قد أعطيتُ كلّ شيء كي لا يُعثَر عليّ أبداً، كي أترك خلفي البيت الذي كان غولٌ مُتَوَّجٌ قد فرشه بالألم والمعاناة.

لا قيمة للفتات عند الإنسان الحرّ، ولا حتى للخبز الذي تنتج عنه هذه الفتات. فهو يُقطّع على عجلٍ وبلا عناية، وتُرمى قطعٌ منه في سلّة وإذ به يذهب لتزيين المائدة. في أحسن الحالات، سيُغمَس في طبقٍ فارغٍ أو سيُقضَم، مسقيّاً بالخردل، في انتظار وصول الطعام « الحقيقي ». الخبز هنا للتسلية، لأن الجلوس إلى المائدة يكاد أن يكون لعبة. لعبة لها قوانينها وأنظمتها ومجاملاتها البسيطة وسلال خبزها التي ستُفرَغ في حاويات ضخمة حالما تنتهي الوجبة، مثلما تُفرغُ منفضة سجائر.

لقد عانيتُ الكثير لأتعوّد على المخازن وعلى مصاطبها لعَرض البضائع والتي تطول لكيلومترات، وعلى مائة صنف من الأرغفة الطويلة لخبزها، بحيث بدا لي العالم بمعزل عن الإصلاح محنة جديدة، لا مناص منها طالما أنّ المائدة هي محور العالم الحرّ.

كلُّ شيءٍ يمرُّ من خلالها، الصداقة، الحب، الأعمال، العائلـــة؛ فتناول الطّعام هو جواز مرورٍ لكلِّ شيء.

– سنتناول الغداء حينما تشائين، يا عزيزتي.

تناول الغداء... أي أن يجد المرء نفسه في مطعـــم، وســـط حشد جاء هو الآخر من أجل الكلام أو التفاوض أو التحطيم أو الإغراء، أو رؤية الذات في فراغ العيون، أو توقيع عقـــدٍ أو الاتفاق على أمر.

مَنْ يهتمّ بطبقه؟ الشّرهون، الذوّاقون، لا طائل من اللباقة، أولئك الفخورين بدفع سعرٍ مرتفعٍ جداً لقاء« تشكيلة صغيرة » من الفضلات الكمالية تنبسط على المائـــدة في زخرفـــات يصعب على المرء أن يميّز فيها بين ما هو للأكل وما هو لتـــزيين المائدة. هنا جزَرٌ مقطّعٌ على شكل دوّارة الرّياح من قبل فنّـــان حقيقي... هناك، كميّة من الصَلصَة مثيرة للاســـتفهام، دقيقـــةٌ للغاية بحيث يُعتَقد أنّها منسوخة بعنايةٍ من قبل معلّمٍ ياباني. مـــا الداعي للخضار الدقيقة المعدّة على شـــكل نجمـــةٍ أو الورقـــة الطويلة التي تزيّن كلّ شيء؟ الأمرُ عصيٌّ علـــى القـــول. وإذ تنتابني الحيرة، سأدع الكلّ في زاوية من الطبق. لأنّ « المطـــبخ الكبير الجديد » يدعني أكثر حيرة من المطبخ الصغير.

الطعام في "المطبخ الكبير" فخري وشرفيّ، ولكنّـــه مـــثيرٌ للسخرية أيضاً. وإذا كان، في خمّـــارة الزاويـــة، هـــو ذريعـــة للانصرافَ إلى الثرثرة، فإنّه، في المطاعم الكبيرة، يتيح للأكثـــر ثراءً أن يخلدوا إلى مراسم هيبة حقيقية. أنظر إليهم يتّخـــذون

أوضاع متكلّفة، ويستغرقون في قائمة الطعام بهيئة شاعر متأمّل. « مقارض الزيزان البرّية (أو المتوحشة)*، عصير الكَرْكَند المعصور بالهليون الأخضر، وتفّاحاتها الصغيرة الجديدة من زيلندة بقشرة ملحية ». يجب انتظار مدير الصالة ليأتي ويجلب لي طبقي باحترام وتقدير كما لو كان يحملُ طفل اللّه وهو يحمل: « ثلاث فطائر صغيرة من الزيز البحري مع قليلٍ من الصلصة والبطاطا ».

بلقمة واحدة، سيتلاشى هذا الزيز البحري. وسيُضاف إليه الطبق الأوّل والجُبْن والحلوى والخمر والقهوة والهاضم، لتبرير فاتورة حساب فلكية. مائة وخمسون يورو للشخص الواحد، وربّما أكثر (لم أرَ الأسعار سوى بطرف عيني؛ إذ لا يُعطى للنساء سوى قائمة طعام بلا أسعار). بماذا يقتات فوجُ من هؤلاء SDF (مَنْ لا مأوى لهم) الذين ينامون على بعد مائة مترٍ من هنا، والذين سيقنعون بطعامٍ بلا مواصفات، لا برّي، ولا جديدٍ ولا صغيرٍ.

ولكن الأكثر غرابة يبقى هو الوجبة قبل الوجبة... أثناء الاختيار من القائمة (لابدّ من الاعتراف بأنّ رؤية الأسماء التي لا تنتهي لكلّ طبقٍ، جعلتنا نقرأها بأسرعٍ من قراءة الكتاب المقدّس)، جلب لنا النادل صينية من المسلّيات، مغطّاةً بقطعٍ صغيرة من المعجّنات والحلوى واللُقَم الصغيرة. يوجد عليها كلُّ ما يمكن تصوّره بل وأكثر، بنماذج مصغّرة، كوجبة عيد في بيتٍ للدمى. سمكٌ، لحمٌ، كُعيكات فاكهة مملّحة، قشدةٌ، رغوةٌ،

* استخدمت الكاتبة عبارة Sauvage

صلصةٌ، خضارٌ، قُريدسٌ، عجينةٌ مورّقة، عجينةٌ مقطّعة، عجينةُ بيتزا. كلُّ هذا على صينيّة من فضّة.

طيلة عشرين عاماً، أكلتُ لأبقى على قيد الحياة. في سجننا، كانت الفئران والجرذان تأكل حينما تجوع، ولكن ليس نحن. لقد اعتدنا، بالقوة. وما عُدنا نأكل لنتسلّى، أو لنتبادل الرؤى حول العالم.

بلا خطورة، وبلا قلق. بينما كان الناس الأحرار يساومون حول قطعة لحم من الضلع، كان لنا، عائلتي وأنا، الحقّ في لترٍ من الزيت شهرياً، وشمعة واحدة لكلّ شخص، واثني عشرَ بيضة لكلّ خمسة عشرة يوماً. اثنتا عشر بيضة فاسدة متعفّنة، شكّلت لأمدٍ طويلٍ كنزاً مطبخياً بالنسبة لي...

بالنسبة لمن ينضّد البيض « الحيوي» في عربة أو يطلب طبقاً من عجّة البيض على رصيف مقهى لا فلور، يكون مبدأ التعفّن نسبياً تماماً. فبالنسبة لي، لا تكون بيضةٌ فاسدة حينما تتجاوز رسميّاً تاريخ صلاحيتها، بل حينما تظهر على قشرها، التي طالما عرفها الناس الأحرار بيضاء أو شقراء، طبقة مخضرّة. طيلة عشرين عاماً، لم أعرف البيض إلاّ بهذا الشكل، كدتُ أن أنسى أنّه كان فاتح اللون... أخي الشاب، الذي كبُر في السجن، لم يرَ أبداً قبل إطلاق سراحه اللون الحقيقي لبيضة. لم يكن بيضنا أصفر ولا أبيض، وإنّما أسود كالحبر، كعتمة الجُحر الذي كنّا نتعفّن فيه.

ولكوني مكلّفة بإعداد الوليمة التي كانت تزيّن، كلّ

خمسة عشر يوماً، مائدتنا المشتركة، كنتُ أكسر ليلاً قشور البيض المخضرّة لأدع السائل الأسود ينزل في قصعة. كانت تفوح من تلك العجّة الكابوسية رائحةٌ نتنةٌ تنتشر شيئاً فشيئاً عبر الليل، بما يكفي ليصبح ذلك البيض، الذي لن يُطعمَه أحدٌ لكلبه مخافة أن يتسمّم بها، قابلاً للأكل. وهكذا بتغطيس قليل من الخبز البائت في الخليط، وبإضافة قبضة من الحليب المسحوق وقليلٍ من السكّر وملعقة من حساء الزيت إليها، كنتُ أُعدُّ نوعاً من «الحلوى»، فطيرة ضخمة مشوّهة كنّا نستلذّ بها. كانت رائحة القلي التي تعلو الزنازين عيداً لنا، كانت تساوي في نظرنا كلّ الزيزان البحرية في الدنيا.

أمّا الخبز، فكنّا ننظّفه بدقّة خلال جلسات تنظيف مطوّلة حيث كنا نحاول تخليصه من طبقات العفونة ومن بَعر الجرذ أو الفأر، حسب الأيام. لأننا كنّا نخفي ذخيرتنا من الخبز تحت بلاطة، بمنأى عن جولات التفتيش اليومية، وبذلك يمكن تسمية الجُحرِ الترابي بالمخبأ حيث كانت الجرذان تأتي لتنازعنا عليه، ملوّثةً إياه ببولها، وقاضمة ما كان بوسعها. مثل البيض، كان أسوداً... إنّ الألوان الفاتحة بخصوص الغذاء هي، كما أعتقد، دليلٌ على الحريّة. كانت كلّ قطعة، كلّ كسرة منه نفيسة لأنّها كانت تزيد ذخائرنا. كان ذلك مخزننا الكبير الخاصّ بنا، مطبخنا الكبير والصغير، حسب المقادير التي نتزوّد بها. اليوم أيضاً، وبعد مضي كلّ هذا الوقت، أغضب لرؤية أناس، منخرطين في أحاديثهم، يصنعون تلقائياً كُريات من لبّ الخبز ستنتهي مرمية في المنفضة. كم شخصاً منهم، ما أن يفرَغون من لبِّ أول قطعة خبز، يتناولون سواها دون التفكير في تحويلها كلّها إلى فتات، دون وضع قطعة صغيرة منها في أفواههم؟

النظرة المشدوهة التي ألقيها على كلّ واحد وعلى كلّ شيء لا يمكنها أن تكون موضوعية طالما أنّ المقارنة ستُجرى مع ماضيّ أنا. ولكن ماضيي يشغل أغلبية حياتي. وحياتي بين هؤلاء الناس غير مفهومة. إلى متى سيعكّر ردُّ الفعل هذا صفائي وحلْمي؟ في السجن، كان أمل الوصول إلى العالم الحرّ يستحوذ عليّ. الآن في العالم، أبحث عن المفرّ... والأمل.

المرأة التي أجرت مقابلةً معي تبلغ الأربعين من عمرها، أو ربّما أكثر. أصرّت على أن نتكلّم على المائدة لأنني كنتُ قد عانيتُ من الجوع طيلة عشرين عاماً.

– سيكون لقاؤنا على الغداء أكثر متعة وألذّ، قالت لي عبر الهاتف، بينما لم نكن قد التقينا أبداً من قبل.

ألذّ وأكثر متعة، كلمة قوية بعض الشيء، لأنّ الصحافية ما كادت تصل حتى عبست أمام قائمة الطعام، وتذمّرت لأن بيتزا التونة ليست بسمك الأنشوا *، وتمنّت لو أنّهم يستبدلون لها الفليفلة بالبصل، لأنّها لا تحبّ الفليفلة، على الأقلّ المشوية منها – لا بأس من النيئة أو المملّحة؛ أرادت أن تعلم إن كنتُ أحبّ الفليفلة المشوية. ربّما ستُضمن ذلك مقالتها. بدأتُ أفهم لماذا لم أقرأ جريدتها أبداً.

مرّت ما يقارب عشر دقائق من التفاوض مع النادلة، التي لم تكن متيقّنة من الفليفلة، وسيكون عليها أن تسأل الطاهي...

– في المرّة الأخيرة، لم تكن البيضة ناضجة بما فيه الكفاية،

* نوع من السمك المقدّد

أضافت الصحافية. إنّ نوع الشيء هو ما يجعلك مريضة لنهارٍ كامل.

- لا تقلقي يا سيّدتي، سأبلغُ هذا للمطبخ...

- آمل ذلك!

والآن تتخذني شاهدة، وتردّد بأن بيضة نيئة تثقل على المعدة، وطلبت موافقتي ولّما لم تنلها، انتقلت إلى أمرٍ آخر، ثائرةً لغياب المنفضة، ولكون مياه بيرييه فاترة وهذا ما لا يُغتفر. أَتريد مكعبات من الثلج؟ كلاّ، لا تريدها، إنّها تعطي طعماً غريباً.

- فلنتحدّث عنكِ، قالت لي فجأةً، بنبراتِ عالم نفساني.

تحدّثنا عنّي، بينما هي تشرّح البيتزا بتقزّز. بعناية فائقة، فرزت، وضعت جانباً الحواف (السميكة جداً)، البيضة (الناضجة جدّا هذه المرّة) حبّات الزيتون (التي تستغرق إزالة نواهًا وقتاً طويلاً) وبعض حبّات الفطر التي لم تكن تستسيغها. اعتذرت:

– لا أفهم، عادةً ما تكون لذيذة جدّاً.

وافقتها على أمل أن تغيّر الموضوع. ولكن إذا كان الأمل يُحيي، فإنّه غالباً لا يصنع المعجزات.

- هذا مستحيل، لا بدّ أن صاحب المطعم في عطلة.

لم أستطع منع نفسي من النظر خلسةً إلى طبقها، وأرى فيه الكويمات التي كانت تديرها في الطبق بشوكةٍ وهي ساهية:

تلك التي ستذهب إلى حاوية القمامة، وتلك التي تغرف منـــها بين الفينة والأخرى لتتغذّى، وثالثة قيد الفرز، التي تموّن الاثنتين الأخريين. للحظات، زاغت بأبصارها عنّي لتتحكّم بالتشريح؛ فلكلّ جزء مصيره الخاص. حبّة زيتون؟ إلى الحاوية. عرقٌ طويلٌ من جبنة موزوريلاّ؟ في الكومة « المخصّصة للأكل ». إنّه أمـــرٌ لا يُصدَّق ما يمكن للبشر الأحرار أن يفعلوه بطبقٍ بسيطٍ مـــن البيتزا...

أما طبقي من البيتزا، فلم ألمسه أو أكاد، شـــعرتُ بـــأنني لستُ على ما يُرام، مركونة جنباً إلى جنب مع زبائن آخـــرين يتكلّمون بصوت عالٍ ويضحكون ويشربون ويدخّنون. قـــلّ الهواء من حولي ولم أستطع منعي من التفكير بكلّ ذلك التبذير، بكلّ ذلك الطعام الذي سيؤول إلى حاويات ضخمة للقمامـــة، بكلّ تلك الصحون الذاهبة إلى الفرز من قبل زبائن يستسيغون هذا ويعفّون عن ذاك، زبائن لا يعرفون معنى الجوع، فيجدون البيض غير ناضجٍ.

دفعت الصحافية جانباً صحنها الملـــيء ببقايـــا العمليـــة المفتوحة على البيتزا، قبل أن تعلن بأنّها لا زالت جائعة وتشتهي « تحلية صغيرة ».

- تمام؟ سألت النادلة.

- ممتاز، ردّت الأخرى، التي تكلّمت، في نصف ســـاعة، عن البيتزا خاصّتها أكثر مما تكلّمت عن سجني.

ثمّ توجهت إلي:

- حلوى (كريم بروليه) عندهم رائعة.

لم آخذ تحلية. كما أنني لم أكن جائعة لدى وصولي، ولأنني لستُ ممن يمكنهم تناول الطعام دون جـــوعٍ... فلابـــدّ لي أن أحسّ بتشنّجات المعدة، وأشعر بالدوّار والخواء قبل أن أجلس إلى المائدة. لأتناول الطعام، لابدّ لي مـــن أن أكـــون في حالـــةِ حرمان منه، مثل مدمنٍ. الشيء الوحيد الذي يـــنقص البـــشرَ الأحرارَ الذين أشكّل جزءاً منهم الآن، هو بالضبط الحرمـــان. ولكنني كنتُ أنسى بأنّ ليس لديهم الوقت ليكونوا محرومين.

للمرّة الأولى، أدركتُ أنّ حدّة حكمي قد هدأت. ربّمـــا أنا الآن على السكّة الصحيحة... ذات يوم، سأجيد فهمهـــم، بل وربّما أدافع عنهم. ربّما. ذات يوم، سيلقي عليّ شبحٌ ذات النظرة التي ألقيها عليهم. إنّها مسألة وقت. هـــذا مـــضحكٌ، تُحال المسائل دائماً إلى الوقت...

آنذاك، فكّرتُ برويّة، في طعم البيتزا ذاك... وددتُ لـــو آخذ كلَّ شيءٍ إلى البيت، ما لم آكله وما لن يأكله الآخـــرون. فالتخزين يبقى عندي فطرة ثانية. كلّ تلك الصحون نـــصف الفارغة المحكومة بالرمي في الحاوية أيقظت في داخلـــي غريـــزة حيوانية. لقد أصبحتُ كالسنجاب، أكوّن، يوماً بعـــد يـــوم، مدّخرات لعهود الحرمان. والحال أن تلك العهود لن تأتيَ أبداً، على الأقلّ في الوسط الثري الذي أعيش فيه. وهكذا تنتـــهي مخزوناتي المخفية في زوايا البرّاد أو قاع الخزائن، عاجلاً أم آجلاً، إلى الحاوية. المواد المخفية، النصف قطعة من حلوى كيش، مـــا تبقّى من سندويش، الخبز بالزبيب المخدوش، بقايا العجين، كلّ

ما خزّنته بعناية ولا يُسمَحُ لأحد بمسّه. هذه المؤَن ملكي أنـــا! ليس لأحد الحقّ لا في التصرّف بها ولا في رميها؛ فهي مخزّناتي، مؤَني تحسّباً للشتاء.

– أرجوك، ارمِ بقية البطاطا المقلية هذه، قال لي إيريك متوسّلاً، إنّها تتعفّن إذا أعيد تسخينها.

رفضتُ بشدّة، وأنا أعلم مع ذلك بأنّ مصير البطاطا المقلية خاصّتي محسوم. التخزين أقوى منّي. بعد ذلك ببضع سنوات، سأكتشف الولايات المتحدة، فردوس الـــسناجب ذاك حيـــث يخصّص كلّ شخصٍ وهو يحمل الـــ« doggy bag » خاصّــته حقيبةً قلّما تكون، رغم اسمها، مخصّصةً لإطعام الكلاب.

في بيتي أيضاً، أعاني أمام صحني من نفس الحاجة لعـــدم إفراغه تماماً، للإبقاء على شيء يسير سيزيد مدّخراتي. لا أرمي شيئاً، فالرمي تمزيقٌ.

كلّ يوم، أرى مجموعات من المراهقين عند خروجهم من مطاعم الوجبات السريعة، وأذرعهم محمّلة بأكياسٍ ورقية مليئة إلى حوافها بكلّ شيء وبأيّ شيء. الماك الفلاني، والتروك ماك، يأخذون منها أكثر مما يحتاجون، ويضيفون بعـــض اليـــوروات للحصول على وجبات « ماكسي » والكوكا بالحجم الكبير، والبطاطا المقلية المنفوشة، والتشيزبرغر الإضافي. إمّا أن ينهوها أو لا يبالون بها أبداً؛ فنظراً للفارق الزهيد في السعر، كثيراً ما يُؤخَذ كلّ ما هو بالجملة ويُرمى كلّ ما هو فائض. علاوة على ذلك، حينما تحقّ للمرء شطيرة مجانية، يكون مبـــدأ العـــصور

الحديثة هو التالي: هذا عرض؟ سآخذه إذاً. رغم احتمال رميه. ورغم احتمال تعفيره. يشعرون بارتياح بالغ من رؤية أي شيء يقدّم لهم مجّاناً، من ألاّ يضعوا أيديهم في محافظهم، لدرجة أنّهم قد يفضّلون الموت على أن يرفضوا عرضاً. مع أنّ ذلك الرفض هيّنٌ على القول، وقد قلته بنفسي: «كلاّ شكراً، لستُ جائعة بما يكفي لتناول التشيزبرغر الإضافي.» ونُظِـرَ إليّ كحيوانٍ فضولي.

– خذيه، إنّه ضمن الوجبة على كل حال.

رأيتُ وجبات هامبورغر بالكاد قُضمَت، مرميّة في الحاويات أمام مطاعم الوجبات السريعة، وشطائر لم يُقطَع منها سوى لقمة واحدة لتذوّقها، قبل تركها هناك. والغريب في الأمر، أنّه حتى (من لا مأوى لهم) SDF لا*يقربونها. نظرتُ، حائرةً، إلى الناس الذين يتضوّرون جوعاً ولكنّهم يرفضون التقاط وجبة هامبورغر مخدوشة، وكأنّها تحمل كلّ فيروسات العالم. في وقت ما، كانت هذه الشطيرة نفسها، مقضومة أو غير مقضومة، لتشكّل بالنسبة لي وليمة حياة... حتماً نعيش في مملكة التبذير، التي حتى بؤساءها يشمئزّون من الطعام. ولكنّه صحيحٌ بأنّ مَنْ لا مأوى لهم يشربون النبيذ أكثر مما يأكلون... وذلك ليتخدّروا، ليتدفئوا، ليبلغوا اللذّة من الباب الضيّق.

الخمّار، سوف يقولون لي. إنّها مهنة مستقلّة تماماً، بالإضافة إلى أنّها ليست في متناول الجميع.

آه حسنٌ...

إلى ذلك، أدركت سريعاً حقيقة أنّ SDF ليسوا الوحيدين الذين يشربون؛ ففي المسرح الغنائي الكبير، يأخذ الكحول الدور الأوّل على الدوام. أيّاً كانت المائدة، من مطعم فطائر الحي وحتى لو غران ڤيفور، تناول الطعام يعني احتساء المشروب. بين المشروب الفاتح للشهية، والنبيذ والبيرة والهاضم، يُغمَرُ أيُّ غذاء بالكحول. وجبةٌ بلا كحول تُعتَبَر كئيبة؛ لم أفهم بعد بماذا تكون وجبة مرويّة أكثر هناءً إلى هذا الحدّ، ولكن لو كنتُ قد فهمتُ ذلك، لما عُدتُ سجينة مُطلَقٍ سراحها بلا معالم ولا جذور.

النبيذ، على نحو خاصٍّ، يتركني في حيرة من أمري. فهو يُراقَب، ويُرتَشَف، ويُنْظَر إليه بشفافية، ويُعثَر فيه على نكهة هنا، وعلى نغميّة هناك، يُعتقَد بأنّه ممتاز مع السمك، أو مضحكٌ مع الحلوى. يلزم قاموسٌ لجدولة أوصافه، وشهادة بوليتكنيكي للفراغ من دقائقه. ولأنّ كلّ إنسان حرّ لا يودّ الاعتراف بجهله، في أيِّ مجالٍ كان، يغطُّ أحدهم أنفه في الزجاجة ليدلي بتعليقه القصير على النبيذ. بشكلٍ عام، يُسكَب القليل من النبيذ في قعر الكأس قبل تقديمه للرجال. لابدّ من تحريك هذه القطرة في قعر الكأس لسبب أجهله، وشمّها بعمق، ومن ثمّ احتسائها، بتمزُّز، واتّخاذ هيئة وقورة وموحية. ثمّ يأتي التعليق، الذي ينتظره كلّ من على المائدة وكأنّها كلمة النبي. إنّه جيد. لم يفحُ بالرائحة بما فيه الكفاية. له رائحة الكشمش. إنّه مجفّف. إنّه لاذع. إنّه فاتر. إنّه ممتاز. إنّه أقلُّ جودة من المرّة السابقة. وسيوافق الأكثر رزانة بهزّةٍ من الرأس، وهو الرضا

الصامت الذي كان النادل ينتظره، مزروعاً وقارورته في صمت ورع. فيما يبدو لي، إنّ نتيجة طقوس الترحاب هذه هي دائماً ذاتها: يُقدّم النبيذ ويُشرَب. لم أرَ قط قارورة تُرْفَض، ومع ذلك، بقي ذلك الطقس متّبَعاً.

ما أن تنتهي كلّ هذه الحركات الاستعراضية، يُزدَرَدُ المشروب النفيس دون أن يُعار أدنى اهتمام، جُرعةٌ مع السلطة، وأخرى أكبر مع لحم الفخذ، وفي كلّ مرّة فرغ كأسي، يُملأُ لي دون أن أُسأل إن كنتُ ظمآنة.

لا أهمية للظمأ والجوع، فالمسرح اليومي للمائدة يقدّم ظهراً ومساءً المسرحية ذاتها، والتي نأخذ فيها دوراً أعقد بكثير مما ينبغي. وإذا كان لابدّ من إسناد ذلك السدور لي، كنتُ سأحيله دوراً بسيطاً؛ أن يأكل المرء حينما يجوع ويشرب حينما يعطش، الأمران اللذان، على علاّتهما، بدوا لي لزمنٍ طويلٍ نفيسين.

ككلّ المقتلعين عن جذورهم، انبهرتُ بجذور الآخرين، إلى درجة أنني أحسد أحياناً الباريسيين الذي ألتقي بهم، والذين أكبر مغامرة لهم هي أنّ يغيّروا الدائرة التي يقيمون فيها. لا شكّ أنّ هذه الطقوس الموروثة من التقاليد تجري بسهولة بالنسبة لهم. الخبز والنبيذ، هم ثديي فرنسا هذه التي يشقُّ عليّ كثيراً أن أجد نفسي فيها...

المائدة الوحيدة التي استمتعتُ بها حقّاً منذ إطلاق سراحي (إذا أمكن إطلاق تسمية مائدة على حصيرة مفروشة مباشرة

على الأرض) هي في صحراء الأطلس. هنـــاك في الـــصحراء، يقتاتُ بدوٌ ضنينون بالكلام في صمت على حفنة من الـــبلح، ويبدو لي أنّهم قد فهموا كلّ شيءٍ بحسٍّ الحياة. أنا، ابنة البربر وحفيدتهم أشعر بنفسي أكثر هناءً وسعادةً في الزُهدِ في المأكـــل من أن أكون في طقوس العربدة العبثية.

أشعرُ وكأنني أيضاً بدوية مثل أهـــل الكثبـــان أولئـــك. فليعطوني قليلاً من الماء، وبضع حبات من البلح، وشـــيئاً مـــن الرزّ أيام العيد؛ وسأكون أسعد امرأةٍ في العالم.

الكتابـة شهادةٌ على حياةْ

النجاة. كنتُ مذنبة بالنجاة. إثمٌ غريب. وحدها إمكانية أن أدلي بشهادتي، أن أقول للعالم أجمع بـأنّ المغـرب لم يكـن في الحقيقة تلك الديمقراطية التي يساندها الغرب، وخاصّة فرنسا. لابدّ أن تُكشَفَ هذه الهمجيّة المقنّعة بالملكية للجميع. إذ يمكن لرواية حقيقتنا، التي شاركت في الكشف البطيء عـن مـصير السجناء السياسيين، أن تساعدني في المضي قـدماً. بكتـابتي لرواية السجينة، التي لم يكن بوسعي تقييم مـستوى نجاحهـا بالتأكيد، كنتُ أُعزّمُ* الماضي، كنتُ أتحرّر منه جزئياً، ولكـنني أيضاً كنتُ أعاني من عبء دور محدّد: دور الضحيّة. إذا شـاء المرء أن يرى الأمور بتفاؤل أكثر، لاَ يزال صدى كلمات اوبرا وينفراي يرنّ في أعماقي: «لقد وُلدْت لتكوني رسولةً.» لقـد قضيت وقتاً طويلاً حتّى أطلقتُ رسالةً، وقد حرمني ذلك أحياناً من أن أعيش حياتي. منذ أن حصلتُ على آدم، عرفتُ بـأنني تخلّصتُ من أن أكون ضحيّة. ولّى الماضي، وأصبح المـستقبل يعنيني.

الكتابة. لسنوات طويلة، كتبتُ دون كتابـة، لانعـدام الورق والقلم. حفرتُ كلَّ كلمة في ذاكرتي، تحسّباً ليوم قـد ألدها فيه من جديد، بعيداً عن الـسجن. قَطْعـاً. علـى ورق حَقيقيّ، وبقلم حقيقيّ. بحيث أعطي أخيراً حياةً ماديّة للكتـبَ المتردّدة المتطايرة في داخلي. نضج كلُّ واحدٍ منها بأناة، علـى

* اي اكتب تعويذة او رُقية

مدى عشرين عاماً. فهمتُ منها الكثير، قصصاً، وأقاصيصَ، وحكايات، ومراسلات، مقاطعَ من حياتي وحياة الآخرين... تعلّقتُ بكلّ واحدة من تلك القصص، بكلّ شخصيةٍ فيها، بكلّ لغزٍ يكتنفها، وبكلّ خاتمةٍ تنتهي بها.

كان من الطبيعي أن تكون من بين أولى المتع التي انسجمتُ معها، متعة زيارة معبدها المقدّس: المكتبات. وما أكثرها في باريس. ولكن، في العالم الحرّ، ها هي الكتب بنفسها قد تغيّرت.

دخلت صدفةً، متظاهرة باللامبالاة، إلى مكتبة ضخمة على الضفّة اليسرى وطلبتُ كتاباً بنبرة مازحة. ماذا كنتُ أتوقّع؟ ربّما مكتبة أحلامي، محلّ جميل بألوان نضرة، ورفوفٌ من خشب أصهب، ومكتبيٌّ بشوشٌ، يكون قد قرأ إلى آخر سطرِ كلّ عملٍ يعرضه على رفوف المكتبة. رجلٌ بشعرٍ أشيب يكون قد عرفني، وربّما سيكون قد علّق بدقّة وكفاءةٍ على مزايا وعيوب شهادتي. لا أدري إن كان المكان موجوداً قبل ولادتي الجديدة، أم إنّه ليس سوى ثمرة خيالٍ ممسوسٍ بالمقدّس. يبقى أنّه لا بدّ من البحث جيّداً على الطاولات. المكتبيّ المثالي موجود، ولكن لديه الكثير مما ينبغي فعله، غارقٌ تحت عبء الإصدارات الجديدة والضحايا اليوميين، والنائحين والمتعجرفين. هل أنا في حالة منافسة؟ للأسف، نعم. لا أريد أن أبيع مصيبتي، ولكن قانون السوق هو الأقوى. علي أن أبلغ مكانتي. الكتبُ في كلّ مكان وليست في أيّ مكان، فالعرض فائضٌ بكثير عن الطلب.

كم هو عددنا نحن الـذين نـشهد ونـروي ونـضحّي ونكشف عن آرائنا؟ أمتنع عن الإحصاء.

الكتب كبقية الأشياء: ثمّة الكثير منها، يختار المرء حيالها. فليس هناك من سياسيٍّ أو مسرحيّ أو شخصية عامّة إلا وكتب مذكّراته أو أفكاره أو رؤاه أو مختاراته المفضّلة مـن الأغـاني الفرنسية أو ألبومه للصور العائلية. أكاد أشعر بالخجـل مـن الانضمام إلى هذه النخبة: لقد دخلت شهادتي ضمن الكمية التي لا يمكن الإحاطة بها من الإصدارات الجديدة.

قلتُ في نفسي، حانقةً، إن ألمي فريدٌ مـن نوعـه. مـن سيمتلك الجرأة على أن يأخذه عليّ؟ إنّ ترجمة هذا الألم هـي التجربة التي تتطلّب القوّة. ومن جهة أخرى، كان ابتكار هذا الكتاب ولادةً رمزية. تسعةُ أشهرٍ مـن العمـل، إلى جانـب صديقتي الصحافية ميشيل فيتوسي، أفضت إلى حكاية لا أنجح في إقناعي بأنني بطلتها. تسعةُ أشهرٍ طويلة وقاسية، كنتُ أنظر خلالها إلى الأمام، دون أيّ التفات. لثلاث مرات في الأسبوع، رويتُ لميشيل أيّام العزّ والشقاء. تكلّمت بـلا حـدود، بـلا محظور، بلا تنفّس. بدأنا أحاديثنـا بـالخوف مـن أن نكـون مراقبتَين، وأودعَتْ تسجيلاتنا حالاً في مـأمنٍ عنـد الناشـر، وكأنّها ستكونَ سرّية. أكان ذلك ذهاناً هذيانيّاً؟ ربّما، ولكننا كنّا مقتنعتين بأنّه يتمّ التنصّت على هاتفينا. كانت بيننا رمـوز سرّية: «الطاجن» أو «الوصفة» كانتا تعنيان بأننا سنـستأنف العمل معاً. سكوت! الآذان المعادية تنصت إلينا. بعض المشاهد المخجلة، التي نسيتها أنا بنفسي، طفت على السطح. ذكـرتُ

للمرّة الأولى طفولتي المزدوجة، المتواطئة مع الطغيان، والخادمة له. انفتح القصر الملكيُّ لأحلامي كعُلبة بَنْدور*. وهكــذا، ألم يكن معلّمنا للقرآن، الشيخ ذو الهيئة الشامخة، الــذي كــان يرغمنا على تقبيل يده، ذلك الرجل الوليّ الذي كــان يــؤمن بالجنّ ويقرأ السور القرآنية، هو أوّل من نظر إليّ كــامرأة؟ إلى أيّ مدى ذهب حينذاك؟ أحتفظ منــه بالإحــساس الغــامض والخَجل لرجلٍ أثارته فتاة صغيرة في الثامنة من عمرها. دعــتني ميشيلَ، سرّاً، أن أستشيرَ عالماً مختّصاً بالجنس. الذي ســيُفهمني الحقيقة، المكبوتة، الحبيسة. إلى هنا تعود مخاوفي المــسبقة مــن العلاقات الجنسية، المقرونة بفكرة الهيمنة. طبعاً، أتذكّر ذلــك، ولكنني أردتُ أن أنسى.

بعيداً عن شعوري بالتخفّف من خلال شهادتي، يتنــامى الخوف الذي يصاحبني منذ أربع وعشرين سنة خلت: الخــوف من الانتقام، الخوف من جلاّديَّ، الخــوف مــن عنــادهم في حرماني الأبدي من ركنٍ منير، الخوف على أهلي، الخوف مــن الحياة. عبثاً أجد نفسي بعيدة عن سجّانيَّ، في منجى تامٍ خلــف ترس وسائل الإعلام، يبدو لي أنّ كلّ شيء قد ينقلبُ في رفّــة جفن. ممَّ أخاف، واقعيّاً؟ أخاف الكثير من الأشياء كي لا أجد فيها سوى سبب وحيد. بعض الأهوال راسخة في داخلي عميقاً جدّاً بحيث تعصىَ على المنطق. أستيقظ أحياناً في منتصف الليل، في ساعات باهتة، حيث لا يعرف المرء تماماً إن كان لا يــزال يحلم، معتقَدةً أنّني أسمع وقع خطى على الدّرج، وصرير بــاب

* آلة موسيقية -المترجم-

المدخل الذي ينفتح، وسجّانين خارجين من جهـات مجهولـة، قادمين يبحثون عنّي لأقضي مزيداً من العقوبات على جرائم لم أرتكبها. لا شكّ أنّ البراءة تولّد إثمها الخاصّ، تولّد في ذاتها وفي نظر الآخرين الشُبهة.

إذاً، اخترت بوعيٍ تام أن أعود إلى الجحـيم، أن أقـود ميشيل إلى كسر هذا الباب الذي اقتضى منّي أربعة وعـشرين عاماً لأجتاز عتبته. أنا بلا هويّة أو أكاد.

في اللحظة التي أبدأ فيها بالاعتراف، لا أعود أعرف من أكون. لمن أستطيع أن أبوح: كلاّ، لم أحلم بأبي، لقد حلمـتُ بالحسن الثاني. حينما كنتُ أستيقظ، كـان يعتـريني الخجـل والعار. لم أكن أستطيع مشاطرة ذلك مع أهلي: سـوف لـن يتفهّموا موقفي. لم يكونوا قد تربّوا في القصر، مثلي. وكنتُ قد اقتنعتُ أحياناً بأنّ الملك لم يكن جديراً، وبأنّه كان قد عجز عن الوفاء بمهمّته كأب متبنٍّ وحامٍ، حينها أكون قد كرهته! كانت ميشيل، المختلفة عنّي جدّاً، تجيد إعادة الثقة إلي، وامتـصاص تلك المشاعر المتناقضة، كمولّدة كلمات. كانت شرنقة أحتمي بها، ملجأً كنتُ أصل إليه أحياناً محبَطَة واهنـة العزيمـة. كنّـا نشرب شاياً وكان الطفلان، ليا وهوغو، يقاطعاننـا بفـرحٍ. كانت الحياة قد انتشرت من حولي، تشيع نواة عزلةٍ.

أحياناً، كنتُ أصل، مسلوبة الشعور بالاتجاه أو بالوقت، إلى بيت ميشيل متأخّرة، مَغيظَةً لأنّ باب بيتها يكون قد غيّـر مكانه، أو أنّ موقف الحافلة كان قد غُيِّرَ خلسةً من شـارعٍ إلى آخر. حينذاك، لقّبـتني ميـشيل « مونغوليتـا ». « أَوْقفـي

أوفقيرياتك»، كانت توبّخني بابتهاج. كنتُ أتكلّم كثيراً، دون إعطاء الإيضَاحات المتعلّقة بالحدث والتي كانت ميشيل توليها أهمية؛ فكانت تقول لي، بين الابتسامة والشوران: « Only facts». كانت تعرف حالتي: كنتُ قد فوجئتُ بحادث غير متوقّعٍ. كنتُ مرّبحيّة عابرة سبيل. مع ميشيلَ كنتُ أضحكُ أيضاً، إلى أن تجري دموعي، باستحضار ما كنّا قد عانيناه في الإبقاء على روح الفكاهة. أحبّ الضحك ولكن لا بد من شخصين على الأقلّ لأجلَ ذلك. هذا الكتاب مثلاً، كنّا نبتكره لكي أتوقّف عن أكون ابنة الجنرال أوفقير، الضحية، كوزيت السجينة، الأميرة المقتلعة من رقاد القصر. كنتُ في حاجة إلى أحد ما، لأنني، بمفردي، لم أكن لأنجح في ذلك. مع ذلك، كنتُ قد حاولت الكتابة، لمئات المرّات، من خلال مقتطفات، ولكن كان من المتعذّر تجاوز العقبة.

ميشيل إمرأة ماهرة، ناضجة، وهي صحافية ملتزمة وروائية وناشرة لأعمالها، أمٌّ لطفلين ناجحين. ورغم مسيرتها الصاخبة حينما كانت في سنّي، فقد ألّفت حياةً وحقيقةً، في انسجامٍ كاملٍ مع ذاتها ومع خياراتها ومع أنوثتها. لديها كلّ ما أعدمه. إنّها تلك التي كان يمكن لي أن أكونها في ظروفٍ مختلفة.

بعد الكتابة، كان النجاح. نجاحٌ فرنسيٌّ أوّلاً، وأوروبيٌّ ومن ثمّ أمريكي، أي نجاحٌ عالمي. حينما كنتُ أصل إلى دار ناشري في شارع سان بير، كان باستطاعتي أن أقضي ربع ساعةٍ أمام الواجهة: كنتُ أرى كتابي، تتوسّطه صورتنا نحن الستّة،

الأطفال في ريّق العمر، عينوهم داكنة. لم يغيّرني النجاح، بل على العكس من ذلك، ولكنّه أخرجني من الخفاء. القراء، ردود الأفعال، المؤتمرات، كان كلّ شيء يأتي بلا ترتيب، أمواجاً من الأيادي الممدودة. أجاءَ ذلك بعد فوات الأوان ؟ لماذا لم يستجب كلّ هؤلاء، من كاتب افتتاحيات، ورجل سياسة، وحركة نسائية محنّكة، مبكراً، حينما كنّا بحاجة لهم؟ نعم: لماذا؟

بالتفكير العميق بذلك، لا أدري حقّاً ما الذي أثيره لدى قرائي: أهو تعاطفٌ، أم مجرّد نزوعٌ إلى المعلومة، أم فضولٌ، قليلٌ من التلصّص الحاني الذي يساعد الناس في أن يقارنوا مصائبهم بمصيبتي. في صالونات الكتاب*، بينما كنتُ خلف طاولتي الصغيرة، كان كلٌّ واحد يأتي ويحتكُّ بمصيبتي. في مونبلييه، لا زلتُ أذكر رجلاً مغربياً مسنّاً، أخذ به الحنين إلى ما كان يعنيه لقب أوفقير، أهداني سجّادة! في مدينة أخرى، كان الناس يسألونني، وكأنني الأم تريزا، كانوا يطلبون الوصفة السحرية للتخلّص من الشقاء، التعويذة المضادة للشقاء. وفي مدن أخرى أيضاً، كان ضحايا آخرون لأنظمة أكثر فساداً ينازعونني في لقبي كبطلة! متى سيُفهَم أنني لا أشارك في ماراتونٍ للألم؟

هذا النجاح، لا أنظر إليه ككاتبة وإنّما كامرأة؛ فأنا أعرف أفضل من أيِّ شخص أن كتابي قد يتحوّل فيلماً أو ريبورتاجاً أو مقالةً في صحيفة. هذه شهادتي المهمّة، وإذا كانت

* المقصود معارض الكتب Salons du livre

تثير ضجّةً، فذلك لأنّها تكشف أهوال سلطة شمولية والقسوة الهائلة لملك. حاولت – وان كنتُ نهب القلَق والرُعب– أن أستلذّ بانتقامي. شعرتُ أنني قاتلةُ ملك، آملةً لو أنّ الحسن الثاني قد حظي بالوقت الكافي ليقرأني قبل موته. حتى وإن لم يقرأني، ما كانت مخابراته السرّية لتتخلّف عن إعلامه بأنّ تلك التي اعتقد بأنّه أفناها إلى الأبد تُسمِعُ صوتها للعالم. بالمعنى الحقيقي مثلما هو بالمعنى المجازي.

للمرّة الأولى التي عبّرتُ فيها عن آرائي أمام الجمهور، أبعد من الكلمات، مذهولة – كتمثالٍ حقيقي– كنتُ مفتونة جدّاً بسحر أن أُسمِعَ صوتيَ للناس.

بدا لي صوتي، وهو يسير في مكبّرات الصوت، غريباً، رنّاناً، دون أن أعتبر بأنّه صوت طفلة مرتجفة خجلاً. التوت يداي في كلّ الاتجاهات وانعقدت معدتي. ولكن السحر فعل فعله بعد كلّ حساب. أصاخ المستمعون السمع إليّ، بصمت مطبق، منجذبين نحوي لدرجة أنّ انتباههم كاد أن يكونَ محسوساً. استمعوا إليّ. نظروا إليّ. احترموني. وولدتُ من جديد. استعدتُ وجودي. ومع ذلك كنتُ نفس تلك التي جرى تجاهلها بشموخٍ طيلة شهور. دبّت الحياة فيّ، كلمة بعد كلمة. ماذا هناك أكثر إدهاشاً للإنسان من ذلك الإحساس بالعودة إلى الحياة، بإطلاق صرخته الأولى في الرابعة والأربعين من عمره، وخاصّة، بأن يكون مدفوعاً بفكرة البدء من جديد؟ لأنني لا أُكمل، وإنّما أبدأ.

أنا ممتنّة لكلّ القراء، لكلّ هؤلاء المجهولين الذين منحوني

فرصة أن أروي قصّتي. الآن أيضاً، وطبعاً في المغرب، يحدثُ لي أن ألتقي بأناسٍ يبتسمون لي، يتقرّبون إليّ، ويقولون لي ببساطة: شكراً. لا أدري ماذا أقول، ولكنني مازلتُ متأثّرة، وكأنّها المرّة الأولى والوحيدة.

تتالت البرامج، ورغم كلامي الذي بقي في العمق هو نفسه، إلاّ أنّها لم تتشابه. طوال ساعتين خلال نقاشٍ طويل، تكلّمت وأجبت بتواترٍ على أسئلة، ورويت من جديد وباستمرار ما قادني إليّ هنا، أمام جمهورٍ جالسٍ باحتشام وكأنّه في عرضٍ مسرحي. النقاشات أقلّ تأثيراً من مؤتمرٍ صحافي (تلك الجلسات المطوّلة التي يتحدّث فيها المرء بمفرده يلفّه صمت كاتدرائية)، ولكنّها في المقابل تشلّني بإمكانية عدائية محتَملة من المتحاورين معي. ماذا كان سيجري لو أنّ أحدهم أخذ يذمّني، ويدافع بقوّة عن قضيّة جلاديَّ، بل ويشكّك في كلامي؟ كنتُ سأعدم وسائلي. أعلم أنني كنتُ سأعدم وسائلي. لحسن الحظّ، لم يحاول أحدٌ حتى يومنا هذا أن يجعل ثقتي الهشّة تهتزّ.

دائماً، تكون اللحظات الأولى مفزِعة. يجلس المشاركون الآخرون، يسترخون، يرقبونني بطرف عينهم وكأنّهم يعرفون مسبقاً ما سيسألونني عنه. بالنسبة لهم، البث المباشر مجرّد لعبة، أما بالنسبة لي، فهو حفلةُ تعرٍّ أمام الجمهور، نوعٌ من العلاج النفساني بالصدمة. ككلّ مرّة، راودتني الرغبة في أن أترك الميكروفون والحضور والمناقشة هناك لأعتزل بعيدة عن النظرات... وحالما تنساب كلماتي متتالية، تكاد تكون خارج

سيطرتي، لا أعود أميّز الوجوه بين الجمهور، ولا أعود أخشى عدوانية المشاركين، تهدأ أنفاسي وتستقرّ، ويكفّ قلبي عن الخفقان الشديد. بكلمة واحدة، أُروّض القلق.

– آسفٌ لإزعاجكِ...

رفعتُ رأسي، مستغرقة في أفكاري. بعد مناقشة، كنتُ مثل ملاكمٍ عاد إلى حجرة الثياب (ذاك الذي لا زال واقفاً، وليس الآخر): خاوية، مرهَقة. ولكن متخفّفة من ألمي أيضاً. أكاد أكون هادئة رائقة. الرجل الذي انتصب أمامي للتوّ، هو في الخمسينات من عمره. بدت عليه تلك الهيئة الرزينة والمجتهدة التي تكون أحياناً للأطفال الذين لديهم شيءٌ هام ليقولوه.

– كنتُ أريد أن أُهنّئكِ فقط...

شكرتهُ بتهذيب، وأنا أتساءَل عما يمكنه أن يهنّئني عليه. ربّما على الحديث دون أخطاء. أمّا سوى ذلك، فأنا حصيلة ما فعلت بي الحياة.

– ... وأقول لكِ بأنني سعيدٌ للغاية بأن عرفتُ أنّ والدك هو الآن رئيس الجمهوريَة!

حتى إذا كان الموتى يعودون حقّاً من قبورهم، كان على والدي في ذلك اليوم أن يعود دَرْويشاً.

– الأسبوع القادم، ستقومين بتوقيع على الكتاب، قال لي الناشر، هذا ليس مثيراً للاهتمام ولكن، هنا، لابدّ من الإذعان.

التواقيع. لا شيء يدعو للقلق، قلتُ في نفسي، بالنسبة لمن خرجت من سلسلة متواصلة من المقابلات والمناقشات، وهي كابوس كلّ انطوائية تحترم نفسها.

لأنّ كهف التوقيع هو حلبة، يلعب فيها المؤلّف، حسب استعداداته، دور الثور، دور مصارعٍ أُسيء إعداده كثيراً أو قليلاً، لا بل، بالنسبة للأكثر تعاسةً، دور الضحية التي تُرمى فريسةً للسباع لتسلية الدَّهماء.

– ها إنّكِ ترين، كلّ هؤلاء الناس هنا من أجلكِ! قال لي الناشر بحماسة، معتقداً بلا شكّ أنّه يُريحني.

– حقّاً؟

– أعتقد أنّهم يصطفون لتهدي لهم كتابكِ بعباراتٍ منكِ، إلاّ إذا كانوا يظنوّن أنّكِ تديرين الصندوق.

– الجميع؟

– الجميع.

لم نتجاوز أبواب تلك المكتبة التي سبق ورغبتُ في أن أولّي هاربةً منها. كلّ هؤلاء الناس هنا من أجلي... هذا كلّ شيء عدا أن يكون خبراً مفرحاً، لأنّ العدد يصنعُ حشداً، والحشدُ يُصيبني بالانقباض. كان ثمّة أناس من كلّ المستويات ومن كلّ الأعمار، من السيّدة كما ينبغي إلى الطالب الصغير المفلس، بسرواله الجينز البالي. هناك وجوهٌ أكثر ما كانت مغربية، معنيّة طبعاً بحديثي، ومجموعة من الأمريكيين الذين

تساءلتُ إن كانوا قد قرأوا الكتاب بنصّه الفرنسي، وسـيّدة مصحوبة بعدد كبيرٍ من الصبيان لا بدّ أنّهم سيضجرون للغاية في عالم الكتبِ بلا صُور هذا. أيهتمّون جميعهم بي، بقصّتي؟ يصعبُ عليّ تصديق ذلك. ربّما فقط ينتظرون إفشاء معلومات مسلّية عن النظام، تفاصيل غيرِ منشورة عن الحسن الثاني. ما الذي لم أفكّر به عاجلاً ؟ غالباً ما لاحظتُ أنّ المجلات الشعبية قد حظيت بنجاحٍ باهرٍ في حياة هذه النّمال المجهولة، الضاجّة بالنشاط. يعلم المرء منْ خلالها بشتّى الأمور حول الرؤوس المتوّجة؛ يُقرأُ فيها، في أُلفة صالات الانتظار، مصير الملوك وطيش الأمراء ومجونهم. حينها، خشيتُ أن يُنتظَر ذلك منّي، وقائع شاذّة بعض الشيء عن خفايا السراي الملكي. «في الحياة الخاصّة لملك المغرب». «الحسن الثاني المجهول». «أنا، الأميرة المخلوعة».

طبعاً، أعرف بعض الأمور، فتحتُ قلبي ورويتُ قصة حياتي. ولكن ان كانوا يريدون شيئاً غير قصّة حياتي، فسيخيب ظنّهم بشهادتي. لم أهاجم قطّ وطني، يبقى المغرب بالنسبة لي تربةً ساحرة، استمد منها قواي. إنني أُصفّي حساباتي مع الملك. كانت لدي فكرة راسخة: تفتقر المجتمعات الحديثة، أوروبية كانت أم إسلامية، إلى الحدّ الأدنى من الحريّة كي لا يشعر المرء بأنّه حبيس قوالبها.

– اجلسي، نفث الجلاد الذي أعدّ ذلك الإعدام. أترغبين في كوبٍ من الماء؟

استدرتُ نحوه، مندهشةً لوجوده هنا. أهو صاحب المكتبة؟

لم أعلم شيئاً عن ذلك. خفق قلبي سريعاً. لم أرغب لا في الجلوس ولا في شرب كوبٍ من الماء.

لو كنتُ قد أردتُ شرب كوب من الماء، لكنتُ سأفعل ذلك في بيتي، بين جدران أربعة، بعيدةً عن عشرات الأزواج من الأعين هذه، التي تراقِب أدنى ردود أفعالي. من جديد، دبّ الخوف من الآخر في داخلي، تقدّمت السجينة على الكاتبة، واحتجتُ إلى ثبات كبير كي لا أعدل عن موقفي وأدلف إلى أوّل سيارة تاكسيٍ فارّةً من المكان.

علت أكداس الكتب على الطاولة كالأبراج. انزلقتُ، خفيةً، على كرسيّ لأضع واحدة من الأكداس بيني وبين طابور الانتظار. لكنّ لا شيء سيُحسن إخفائي عن أنظار ذلك الطابور، الطويل جدّاً بحيث لم أتجرّأ على رفع ناظري. شاهدتُ، من مكاني، أجساداً تتدافع، وأيادٍ ممدودةً نحوي.

ما كدتُ أجلس، حتّى قاطعني صوتٌ به غُنّة:

- إلى كريستيل ودادو!

- ماذا؟

مكثت فتاةٌ في حوالي العشرين من عمرها أمامي، وقد ضمّت إلى صدرها نسخةً من كتابي وكأنّ أحدٌ ما كان سينتزعه منها.

- الإهداء؛ إلى كريستيل ودادو.

سيدسُ كريستيل ودادو كتابي في مكتبتهما، فخورين ببضعة السطور المخربَشة بعجلةٍ:

« بمحبّة، م. أ » بمحبّة، حسب التعبير الشائع، كما لو كنّا نعرف بعضنا منذ الأزل. بمحبّة... إنّها الصداقة المتجرّدة من الماديّات التي تختلقها اللعبة الكبرى لوسائل الإعلام. ثلاث كلمات مكتوبة على غير هدى على صفحة بيضاء، تماماً تحت الإهداء « الفعلي »، وها أنا ذا أتحول إلى معرفة قديمة.

– تبدين في أحسن حال، قال رجلٌ تائهٌ في طابور المجهولين، مندهشاً، خائب الظنّ في الواقع.

كدتُ أن أعتذر عن عدم كوني شبح المعتقَلَة ذي الثلاثين كيلو غراماً الذي كان يأمل أن يراه. ولاقيت، واحدةً فواحدة، النظرات المحملقة التي كانت تمتدّ نحوي وكأنّها لتجتذب أنظاري. البعض منهم هنا ليعبّروا عن مساندتهم ومحبّتهم، وآخرون لإرضاء فضولهم المنحرف أحياناً. أنا ممتنّة لهؤلاء كما لأولئك؛ فمن خلالهم أستمر، تارةً حقيقية وتارةً مصطنعة، موجودة ومتصوّرَة بالتناوب، ولكن دائماً حيّة، وهذه الحقيقة تبرّر كلّ شيء.

بمرور الوقت، اعتدتُ على التوقيعات، مثلما روّضت الميكروفونات. للحظات، تظهر أطيافٌ تعتم عليّ نهاري، وتطاردني لأوقات مديدة، وأحياناً لأيّام عديدة. هذه الأشباح الشرّيرة تنفي تجرِبتي، وتصرخ متّهمة إياي بالكذب أو المبالغة، وترفض أدنى اتّهامٍ ضدّ الملك مثل أسوأ الوشايات.

ودائماً يتعلّق الأمر بمغاربة، مواطنين منفيين بمحض رغبتهم، ابتدعوا لأنفسهم، بعيداً عن الدار البيضاء، حركات

وطنية ساخطة. في فرنسا وغيرها، يلوّح هؤلاء المصلحون بخطاب تشكيكي يجمّد ظهري؛ فوالدي أصبح جلاّداً بدل الجلادين، وأنا أصبحتُ أداة دعائية مأجورة لصالح الآخرين. لا يشكّل هؤلاء المعارضين، في مقابل الأغلبية العظمى من قرائي، سوى حفنةَ، ولكن الغريب أنّ هؤلاء هم مَنْ تركوا الأثر الأعمق علي، وتأكيداهم تقع عليّ وكأنّها علامات بالحديد الحامي على جسدي. لا شيء أسوأ من الإنكار، من هزّ الكتفين لرجلٍ لا يعرف شيئاً ويعتقد أنّه يعرف، والذي، بتعليقٍ لاذعٍ، يكسحُ عشرين عاماً من الآلام والعذابات وكأنّها لم تكنْ قد وجِدَت قطّ.

صالون جنيف للكتاب ليس مختلفاً كثيراً عن صالون باريس؛ فبدا لي وكأنني سبق وأن عشتُ ذلك الشعور بالانسحاق تحت عشرات الأطنان من الكتب، وسط مدٍّ بشريٍّ غفيرٍ بحيث تختلط الوجوه. أين أصدقائي، ناشري، وملحقتي الصحفية؟ أين ايريك؟ ربّما كانوا قريبين جدّاً، ولكن في كلّ الأحوال سوف لن أراهم.

تتنافس كبرى دور النشر بلوحات إعلانية، بلافتات، كلُّ واحدة أكبر من الأخرى. قُبّة ضخمة لإحداها، ألعاب ضوئية ساطعة لأخرى، يجب أن يكون الهدف مرئياً من بعيد، لأنه لا بدّ من البيع. من طاولتي التي أُجلسْتُ عليها لأوقّع كدساً من كتبي، شاهدتُ شيئاً أشبه بمئذنةٍ تدور، في جهة وسط الحشد.

توقّف زوجان، لفظهما مدّ المتسكّعين، أمامي، وعاينااني كما يُعايَنُ حيوانٌ في قفص. كدتُ أتحسّب لأن أُرمى بحفنة من

الفول السوداني... حاول الرجـل والمـرأة، دون أن يخفيـا فضولهما، قراءة عنوان كتابي؛ ليس هذا صعباً جـدّاً، هنـاك عشرون كتاباً منه على الطاولة.

– ما هذا؟ سألت المرأة.

– تعلمين... المرأة– قاطعة الطريق، أجاب الرجل خافضاً نبرته، ولكن حتى يُسمَع الصوت في صالون جنيف، لابدّ مـن الصراخ بأعلى ما يبلغ...

– مَنْ تكون هذه؟

– أجل، الهندية...، ألا تتذكّرين... لقـد شـاهدناها في التلفزيون.

حينما رأيتهما، يتشبّث الواحد منهما بـالآخر، يرمقـانني بطرف عينهم، متضايقين بعض الشيء ولكن غير قادرين علـى مقاومة الفضول، سألتُ نفسي مَنْ من بيننا حقّـاً في القفـص. انتهى الرجل بأن بادرني بابتسامة أشبه بتكشيرة، ثمّ شدّ زوجته من ذراعها.

– تعالي، يوجد سوليتزر هناك.

سمعتُ ثانية صوتهما بعد برهة:

– أيّةُ هندية؟ لا أتذكّر!

– أجل، المرأة المسنّة التي اُغتُصِبَت... في الهند...

–آه، نعم! قل ذلك، كم هي نحيلة...

الهندية المقصودة تصدّرت الصفحات الأولى للصحف تقريباً في تزامنٍ معي؛ فقد خصّص لها موضوعٌ في اليوم الذي كنتُ قد أُستضِفتُ فيه أثناء نشرة الأخبار التلفزيونية. كانت تلك الفتاة، المغتَصَبة، المُهانة، قد تحصّنت في قرية جبلية، وشنّت من هناك حرب عصابات حقيقية ضدّ النظام، متزعّمة عصابة. وكانت، الوجه النسائي لُروبن الأدغال*، تناضل ـ إن أسعفتني الذاكرة– في سبيل قضية النساء، وفي سبيل عزّها، وربّما أيضاً لأسباب أقلّ نبلاً. معاً جنباً إلى جنب، في نشرة الأخبار التلفزيونية ذاها، ها نحن الاثنتان نمتزج بمرح, لأنّ الألم لا هويّة له...

* المقصود روبن هود الشخصية الأسطورية المعروفة

مغربي

« المغرب: مملكةٌ بألف نكهة »...

منذ أيام، ينتشر هذا الشعار على جنبات كلّ حافلات باريس، على قاعدة المنارات، والكثبان، والبيوت المبيضة بالجير، والأزقّة الساطعة بالألوان. المرّة الأولى التي رأيتُ فيها هذه الإعلانات، مكثتُ جامدة كتمثال، لرؤية صورة سوق المدينة تبتعد على خلفية حافلة. ثارت ذكرياتٌ كنتُ أظنّها غير مؤلمة عنيفةً في داخلي. ذكرياتٌ تُغيّر وقعها الآن في كلّ ركنٍ من الشارع وأنا أرى وطني يمرُّ على طول جادّة سان — جرمان. لعشر مرّات في اليوم، الشعار نفسه يتكرّر على صورٍ مختلفة، جمالٌ عند مغيب الشمس، سوقٌ، بضعةُ نخلات. والكسكسو الأبديِّ الفائح على طاولته النحاسية، الذي يُسيلُ لعاب سائقي الحافلات التائهين وسط الزحام. منذ وصولي إلى باريس، ويجري دفعي باستمرار إلى أن أعلن كُرهي للمغرب. بالنسبة للناس الأحرار، العالم على صورة فيلم الساعة 20.30 التلفزيوني: هناك الأخيار والأشرار، وينال الأشرار عموماً عقابهم في النهاية، اللّهم إلا إذا كانوا ملوك المغرب. وكما هو الحال في الأفلام، لا بدّ أن تكون نهاية تحرّري سعيدة happy end، سعادة بلا لونٍ معتدلٍ لن تستولي عليها أصغر ذرّة من الحنين.

يا لفظاعة هذا البلد، قال أحد الأصدقاء متأسّفاً وهو يهزّ رأسه برزانة.

عن أيّ بلدٍ يتحدّث؟ عن بلدي، بلا شك، وبعبارات مروّعة إرضاءً لي. ماذا يعرف عن المغرب، عن تجربتي، عن العتمة والظلام والنور في مملكة الألف نكهة؟

من جهة أبي، محمّد أوفقير، ومن جهة أمّي، فاطمة شنّا، أنا سليلة البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كان مأوى ومأمن عائلتيهما، مهيّأين دائماً للسائلين والمحتاجين، الذين يكثرون في تلك المناطق الصحراوية المقْفَرة. يُعتقَد بأنني أميرة: أنا سليلة الشعب. في السوق، غالباً ما يُقال لي: ولكنّك تساومين كبربرية! لقد وجدتُ صفائي وحبّ المغرب في الصحراء. لقد طفْتُ البلاد بطولها وعرضها، غالباً صحبةَ صديقتي صباح، صَديقة كلّ المحن، وأنا أمنح مكانة أثيرة لتفيلاليت، مهد أجدادي لأبي. أشعر نفسي ضاربة الجذور في هذه الأرض. وسط الكثبان الصلصالية اللون، وتلك المساحات الشاسعة من الرمال السمراء المذهّبة، وتلك الواحات من النخيل المأهولة بالبشر الزُرق، يسود صمتٌ مطبقٌ. أدركتُ أين كانت جذوري. أنا مغربية عميقة الجذور. في مراكش، وليس في المأمونية أشعر أنني في بلدي. لا تساوي الفنادق الباذخة شيئاً عندي: فمهما حدث، أنا من طبقة دنيا! ساحة جمع الفنا، الفنا الذي يُستخدم منذ بعض الوقت ساحة إضراب حيثُ كانت قد عُرِضت أجساد ورؤوس المنكّل بهم. عندما يحلّ المساء، كنتُ أجلس على مقاعد خشبية بسيطة مرتّبة حول طاه مرِح يشوي أسياخَ الدجاج، ويطهو الطاجن باللحم وبالخضار، أيِ طعاماً بسيطاً. يتجمّع الجائعون من حولنا، في جماعات، وأوزّع

الأطعمة اللذيذة بإفراط على من يرغب: تلك المتسوّلة التي أحنى العمر ظهرها، وتلك الفتاة الصغيرة ذات العينين الواسعتين الداكنتين، المرتدية أسمالاً لا تقللّ من وقارها. أشاهد، متلهيّةً، السيّاح الذين يُفتنهم سَحَرة الثعابين. يحدث أحياناً أن يتعرّفَ عرّافٌ إليّ فيأتيني ليتنبّأ بمستقبلي. إنّه لا يواجه خطراً كبيراً!

بعد ذلك بعام تقريباً، كنتُ أقود سيارتي الضخمة ذات الدفع الرباعي، في شوارع الدار البيضاء. وأنا أغلق عيني، وكأنني أتعلّل بجوقة الصفارات، كدتُ أصدّق تنبؤ ذلك العراف. فقد وجدتُ نفسي، متوتّرة الأعصاب، وسط ازدحام على الطريقة المغربية: أكثر صخباً، أكثر تلوّناً، أكثر تلوّثاً بالتأكيد من هنا، لأنّ الحرارة والشمس تضاعفان عشر مرات من الضرر الذي يسببه الديزل. كنتُ أقوم بستِّ جولات من الذهاب والإياب، وربّما أكثر أحياناً، بين أستوديو تصوير ومكاتب، ضمن وظيفتي الأولى كامرأة حرّة والتي تكمن في القيام بكلّ المهام لوكالة إعلانية... كانت تتطلّب في الواقع أن أقضي معظم وقتي وسط ذلك الازدحام لإرضاء نزوات مخرج غريب الأطوار. بات لدي الآن وضعاً خاصّاً بي، راتباً، وظيفة معروفة، وإذا كانت لا تستطيع أن تنسيني بأنني لا زلتُ لا أملك الإذن بالطيران إلى فرنسا، فإنّها تزوّدني بمظهرٍ نفيسٍ من مظاهر الشعور بشخصيّتي.

استغرقت مَنْمَلَة الدار البيضاء، من حولي، في فورة من الألوان والأضواء. تدفّقت الحشود على طول الشوارع

الرئيسية، وتعالت أصوات الراديو والتلفاز والصرخات والضحكات والأصوات المتشابكة المتسرّبة من كلّ نافذة ومن كلّ شرفة ومن كلّ محلٍّ مفتوحٍ على الشارع. بدا كأنّ الجميع يتجرّعونَ الحياة، بينما أنا أنتظرُ، يضنيني القلق، حبيسةَ سيارتي ذات الدفع الرباعي وكأنني معزولة. ولم أجد في ذلك، عدا السلام الربّاني، سوى نفاذ صبرٍ متعاظم جعلني أتلوّى في مقعدي، يتملّكني الجوع شيئاً فشيئاً.

ثمّة لحظات تتداخل فيها العينان والمعدة، وهكذا كانت حالتي وسط برج بابل ذاك، فالشيء الوحيد الذي جذب اهتمامي هو المنقلة الصغيرة لبائعة متجوّلة لخبز السَميد، على بعد مائة متر منّي. لو لم أكن حبيسة تلك السيارة اللعينة، لأسرعت الخُطى كي أستسلم لفيضٍ من تلك الفطائر المغربية اللذيذة، التي بلغتني رائحتها الشهيّةً رغم المسافة ورغم كون زجاج السيارة مغلقٌ والهواء مكيّفٌ. اشترى شابّان، وكأنّهما يزدريان بي، خبز السَميد، الساخن جدّاً لدرجة يصعب عليهما الإمساك به. انتابتني دوخة خفيفة، في حين ذكّرَتني معدتي، بجوقة من القرقرة، أنّ عاملةً أمينة عليها ألا تنسى أن تتغذّى.

تحوّلت الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر، بعد أن تقدّمنا لبضعة أمتار فقط في الشارع المزدحم، حينما دُقَّ زجاج سيارتي، فجأةً. انتفضتُ، من المفاجأة أكثر منه من الذعر، لأنّ للخوف في المغرب حدود، حدودُ سوف لن أجدها، فيما بعد، في أوروبا.

إنّهما الشابان اللذان اشتريا للتوّ خبز السَميد. عبرا

الشارع، واقفين وسط دفق السيارات، وأشارا بأن أخفض الزجاج.

– خذي، يا سيّدتي، قال لي أحدهما وهو يمدّ نحوي رغيفاً من خبز السميد ملفوف بورقة جريدة.

أمسكتُ، مذهولةً، بما كان غاية كلّ استيهاماتي في تلك اللحظة.

– كنّا سنمرض لو أكلناه دون أن نعطيكِ منه، شرح لي الآخر مبتسماً.

انطلقت الصفارات، وما كدتُ أن أتمتم ببعض كلمات الشكر حتى أطلقا سيقانهما للريح، مستأنفين طريقهما وكأنّ شيئاً لم يكن.

هكذا هي المغرب، أكثر من سجون شبابي. إنّهما مجهولان لاحظا النظرة اليائسة لسائقة مجهولة، على رغيف خبز. إنّها لحظةٌ كمال، يشعر فيها المرء بنشوة كَونه ليس وحيداً في الدنيا. ربّما توجد بلدانٌ أخرى حيث تكفي نظرة بسيطة ليعبّر المرء عمّا يُريد، حيث لا يمكن للمرء أن يعزم على تذوّق غداءه دون إشباع امرأة جائعة. سأحبّ المغرب إلى الأبد، وسأدافع عنها، أنا التي سرقت المغرب عشرين عاماً من عمرها، في مواجهة أولئك الذين يقدحونها. وطني ليس المَلك المتربّع على عرشه. وطني ليس تلك الآلة القمعية التي يعبث بها رأسٌ متوّجٌ كما يعبث بسلاحٍ. وطني، هو هذا الشعب الذي يمدّ يده إليك دون أن ينتظر منكَ أيّ مقابل، شعبٌ لا تلوي رأسه حتى رائحة أطيب الفطائر في العالم.

للذهاب لزيارة عائلتي في الرباط، يمرّ الطريق الأقصر على المتاريس التي تتاخم، وسط مركز المدينة، سور القصر الملكـــي. يخترق شارعان رئيسيّان من جهة إلى أخرى هذه الدارة المقدّسة في عيون كلّ المغربيين، والتي كانت داري فيما مضى. ولكـــن لمجرّد فكرة العبور بها، تنقبض معدتي، وتثور في داخلي أســـوأ الأهوال، غير المضبوطة، وتدفعني إلى القيام بأطول الالتفافات. إلى أن جاء يومٌ منعني فيه أمرٌ طارئ أن أسلك أطول الطـــرق، فوجدتُ نفسي في مواجهة قلعة الخوف تلك، مقرّرة العبور.

بخلاف القاتل الذي يعود دائماً، كما يُقال، إلى مـــسرح جريمته، نادراً ما يميل السجين إلى التجوّل تحت نوافذ جـــلاده. خاصّة عندما تنوء الأسوار تحت الذكريات، عنـــدما تنـــضح بالضحك والعبرات في آن...بقيت طفولتي رهينة ذلك الـــسور المهيب، حيث توقّفت فوراً، كساعة محطّمة.

عند أسفل المتاريس، بدا لي وكـــأنّ ســـيارتي لم يعجبـــها الموقف، اغتاظت، ورغم ضرباتي الخجولة على دوّاسة البنزين، لم تتحرك سوى القهقرى لحو سور القصر. على البوابة، بادرني شرطيٌّ يرتدي بزّة نظامية فضفاضة بإشارة آمرة:

– تقدّمي!

تقدّمت، لو كان يعلم إلى أيّ مدى تقـــدّمت. أشـــارت لوحة إعلانية بأنّه لا يمكن تجاوز سرعة 40 كيلومتراً في الساعة، وهي سرعة تفوق الصوت بالنسبة لي، فتجرأتُ بمـــشقّة علـــى لمس دواسة الغازات. قد يروني، قد يسمعوني، تجاوزني المـــشاة

بلا مشقّة، والسيارات من خلفي وجّهت إليّ نداءات ساخطة عبر مصابيحها (إذ ليس من المستحسن على الدوام التزمير داخل دارة أمير المؤمنين). انتابني شعور بالدوّار والانهاك والغثيان، كنتُ كامرأة حامل حقيقةً. ربّما من جهة ما، تنفرج نافذةٌ وتكشف عن وجه مألوف... عين ثاقبة قد تتعرّف عليّ في الحال من خلف الزجاج الملوّن لسيارتي ذات الدفع الرباعي.

اختلطت الذكريات من حولي، تارة سعيدة وعذبة، وتارة فظّة حارقة؛ انبعثت الحياة في الجدران وشرعت تروي حكايتي، وأنا الصغيرة المنكمشة على نفسي في سيارتي، رأيتُ كلّ دقيقة تجري كأنّها الأزل.

ضاق أحد السائقين ذرعاً، وكانت مقدّمة سيارته ملاصقة للدفاع الخلفي، ومدّ رأسه من السقف المفتوح لسيارته:

– هل ستنامين هنا أم ماذا؟

لقد نمتُ هنا لزمنٍ مديد. ولذلك يشقّ علي كثيراً أن أتقدّم اليوم. قُبالتي، وعلى مَبعدة بَضع مئات من الأمتار، ينتظرني انعتاق جديد: الحامل الثانية، البوّابة التي خرجتُ عبرها من القصر إلى الأبد. لدى وصولي إلى أسفل المَحْرَس، تباطأت سيارتي من جديد، الأمر الذي لا بدّ أن يُعدّ مأثرة في نظر التعساء الذين يتبعونني. رماني دركيُّ الحراسة بنظرة تكفي لأن تصيبني بمزيد من التكزّز. وأنا في منتهى القلق والارتباك، أعملتُ يديَّ وقدميّ بنشاط، وانتهيت إلى التوقّف المفاجئ على نحوٍ مثيرٍ للشفقة. اقترب الدركيّ، بينما انكببتُ على مفتاح

التشغيل كما في الأفلام المثيرة الرديئة.

– هل من مشكلة؟

– لقد توقّفت فجأة، قلتُ وكلّي أملٌ أن تخفي نظارتاي الشمسيتان حيرتي وهويّتي.

طاف الرجل حول سيارتي، بينما قلبي يخفق خفقاناً شديداً. لماذا تكزّزتُ من ذلك الدركيّ، مع أنّ أمثاله أظهروا، منذ إطلاقي، لطفاً حيالي؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك. أريد الانصراف. عبور القصر قتل فيّ كلّ منطق، وإذ استسلمت لقلقي بعض الشيء، انتهيت إلى التخيّل بأنني سوف لن أخرج قط من هنا.

عاد الدركيّ، في هيئة الواثق من نفسه.

– هذه هي المشكلة مع سيارات تويوتا. صهري لديه واحدة مثلها.

– آه حسن، قلت ذلك بنبرة مَنْ سيُجهَز عليها على قارعة الطريق بطلقٍ في رأسها.

– أعطِها قليلاً من الغاز، هكذا، وراح يقلّد ضربات دواسة البنزين بيده المفتوحة. وستنطلق في الحال.

أقلعتُ من جديد، حابسة أنفاسي.

– أرأيت، استأنف الدركيّ بلهجة المنتصر. أنا أعرفها، سيارات تويوتا.

برؤيتي أرتعد في كلّ ركنٍ من الشارع، قد يُعتَقَد بأن

بلدي مملكة همجية يسود فيها قانون الأقوى. هذا خطأ، وأكاد أحقد على نفسي من هذا الخوف الذي يعشعش في أعماقي ويشلّني. أعلم أنّ النظام قد استفاد بذكاء من الهجمات الإسلاموية لفرض إصلاح المدوّنة، الرمز السري للعائلة السلفية التي اختزلت، منذ قرون، حقوق المرأة إلى شيء لا يُذكَر. حتى اليسار امتنع عن إلغاء هذا القانون المهجور، إذ إنّ الرجال من جميع المشارب متّفقون بلا شكّ على هذه النقطة الأساسية: هيمنة زوجاتهم. لا بدّ أنّ الحكومة ستحتاج إلى كامل قوتها في الإقناع (واللّه أعلم بأنّها لا تفتقر إليها) لكي تُعطى للمرأة المغربية حقوقها في نهاية المطاف، وبذريعة مكافحة التطرّف الديني. لقد بنيتُ آمالاً على السياسة الإصلاحية لمحمد السادس، حتى وإن بقيت أمورٌ كثيرة لابدّ من القيام بها في مجال الحريات السياسية ومكافحة مظاهر التمييز واللا مساواة.

– أليس عسيراً أن تكوني امرأة في بلدٍ إسلاموي؟

– المغرب ليست بلداً إسلامويّاً.

– إسلاميٌّ، إذاً.

– ولا كذلك.

المغرب بلدٌ للتقاليد الإسلامية، حيث تمارس الأغلبية من سكانه إسلاماً متسامحاً. في بعض الأوجه، يُعدّ بلدي واحداً من أكثر البلدان تنوّراً في العالم العربي، وفي أوجه أخرى، يُضاهي الدكتاتوريات الأسوأ في العالم الثالث. حين يسلّم أمير المؤمنين روحه لإبليس سوف يتوجب الفرز نكهة بنكهةٍ كي لا يبقى

منها ألف بل مئة تكون كافية لتجعل من المغرب فردوساً لــن يعود هناك ألف نكهة، بل قد تكفي مائة منــها لتجعــل مــن المغرب فردوساً. إلاّ إذا استولى الملتحــون عليهــا، ليغطّوهــا بحجابٍ أسودٍ.

المُلْتَحيان

استغلّ الدين سنوات غيابي العشرين ليشغل مكانة متميّزة. أشعر به، في المغرب وفي سواها، ثقيلاً، مصبوغاً في بعض الأحيان بحركاتٍ همجية تضاهي الحرب الصليبية، والمحارق ومذبحة

اليهود. ما أن فقد العالم الحرّ معالمه، حتّى مدّ له يده بمكر، وقدّم له، عوض الخدمات النافعة والصادقة، الوعد بالإقامة الأبدية في الفردوس. يشقُّ علي أن أفهم كيف عادت التّمامية الأكثر سلفية دارجة بين الشباب مثل سراويل مراهقي السبعينات. ولكن ما يتركني مذهولة حائرة هو أن يتمسّك المرء بتوابيت مهجورة لأشباحٍ متعطّشة للدم ومتخمة بالجهل. ما الذي حدث كي يحتاج الناس من جديد إلى مرشدين مكفوفين؟

في البدء، اعتقدتُ أنّ التّمامية المتجدّدة لم تكن تعشعش سوى في وجوه آيات الله، المنصّبين فوق الأحياء الفقيرة لبلدان المشرق؛ ولكنّني أخطأت. تزدهر الحُجُب في شارع شانزيليزيه، ويوبّخ صبيةٌ، مهاجرون من الجيل الثالث، شقيقاتهم لخروجهنّ حاسرات الرأس. إلى متى ستُرْجَم الفتيات اللواتي يرتدين التنورة؟

كان صالون الكتاب* في باريس في أوجّ نشاطه، ومن بين جميع الناس المُتدافعين للحصول على توقيع كتابهم، كانت سيّدة

* المقصود بعبارة صالون الكتاب: معرض الكتاب

تنتظر دورها بوقار. لقد تعلّمت بمرور الوقت أن أتعرّف بنظرة على أولئك الذين يمدّون كتابهم دون أن يقولوا شيئاً، وأولئك الذين سيوجّهون لي بعض الكلمات، وأخيراً، أولئك، المتـولّين لمهمّة مقدّسة، الذين يستغرقون في مونولوجات طويلة غالباً مـا يشقّ عليّ إيقافها. لقد تلقّيت خلال بضعة أشـهر دروسـاً في الحياة أكثر مما يتلقّاه إنسانٌ حرٌّ طيلة حياته... أُقسم علـى أنّ هذه المرأة تنتمي إلى هذا الصنف الأخـير، الـذين يعطـون الدروس. انحنت بكامل جسمها على الطاولة الـتي تفـصلنا، التفتت إلى اليمين ومن ثمّ إلى الشمال، وبحذرٍ شديد، همست:

– كيف حدث أن وافق الملك على تبنّيك على الرغم من أنّكِ يهودية؟

فاقتربتُ منها أكثر، وكأنني أريد أن أضفي مزيـداً مـن الكتمان على السرِّ الذي نتقاسمه، وأسّريت لها، بنفس النـبرة الهامسة:

– لستُ يهودية، أنا مسلمة.

ساد الصمت. أصبحت عينها مدوّرة كعين سمكة.

– ألستِ يهودية؟

لم يكن ذلك في الحقيقة سؤالاً، الأحرى إنّه محضر ضـبطٍ فاجع.

– كلاّ.

هزّت رأسها، وكان كَيْلها في ذلك بليغُ الدلالة.

- آه، حسناً. ولكنني كنتُ واثقة أنّــ...

- كنتِ مخطئة.

تردّدت للحظة في مدّ كتابها نحوي بسبب هذا الاكتــشاف الرهيب، ثمّ ناولتني إيّاه بأطراف أصابعها، بشبه اشمئزاز. وقّعتُ عليه. استعادته، ودائماً بنفس التوجّس؛ بحيث أنبأني شيءٌ مــا بأنّها، عند أوّل حاوية تصادفها، ستتخلّص من شهادة تلك التي ظنّتها داعية للتعايش الديني، وإذ بها في الواقع ليست ســوى مسلمة. ربّما في يومٍ قريبٍ، ستُدمَغُ الكتب بعبارة: « مكتوب ليهودية، يمكنكم اقتنائه. » أو أيضاً « حلال 100%، اقــرءوا بلا خوف ». أسطوانات كاشر*، أفلام مبارَكَة من الفاتيكان، سيستطيع كلٌّ واحدٍ أن يتسلّى حسب مقياس ربّه.

الخطر لا يعود إلى الأمس، ودون أن أجعل مــن نفــسي كاهنة، منذ أن أُطلقَ سراحي عام 1991، كانت لــدي رؤيــة محذِّرَةٌ منه. وكأنّه للقطع مع أماكن طفولتي (وبابتذال أكثــر لشحِّ المال)، أقمتُ في حيٍّ يُدعى ناميا، يجاور حيّاً شعبيّاً جــدّاً رغبتُ أن أُعيد فيه اكتشاف المغاربة الأصليين. كــان يوجــد هناك، وعلى مسير بضعة دقائق مشياً على الأقدام، ناد صــغير للفيديو، كنتُ أتردّد عليه باستمرار، على أمــل أن أســتعيد الزمن الضائع. فحتى السينما لم تنتظرني أثناء غيابي، والقــصة الخيالية بنفسها قد تجاوزتني منذ زمنٍ مديد.

نادي الفيديو، الذي تعلوه لافتة متواضعة متخَلخِلة تحمل

* كاشر: لحم حيوان مذبوح حسب التقاليد الدينية اليهودية -المترجم-

اسم هوليود ستار، هو عبارة عن حانوت صغير، يُدار من قبل أربعة أخوة شبّان. أسدى لي هؤلاء الشبّان، الغارقين وسط الأكداس الفوضوية من الشرائط المسجّلة، كلّ النصائح التي أحتاجها، ووفّروا لي عودة الموتى الأحياء لصالح رين مان. بمرور الزمن، نمى تعاطفٌ بيننا؛ فسلّموني أشرطة مسجّلة في البيت بينما قمتُ بتسجيل الأفلام التي سيضيفونها إلى مخزونهم من الأفلام. ربّما حدث لي وأن أثنيتُ على أحد أفلامي الخاصّة، لفرط ما أُدير الحانوت بشكلٍ خاطئ.

– كيف تهتدي إلى ما تريد وسط هذا الركام؟

– لا أجدّ مشقّة في ذلك، أجابني واحدٌ من الشبّان ضاحكاً. قولي لي اسم فيلمٍ وسأخرجه لكِ في غضون ثانيتين.

اتّفقنا على ترتيب جديد، وشراء رفوف تتوافق على نحو أفضل مع تجارتهم. اخترعتُ لنفسي دور المدرِّب، وخطّطتُ لمستقبل الحانوت كمن يلعب المونوبولي. لا شيء يجعلني أخرج من عزلتي مثل انخراطي بتلذّذٍ في إستراتيجية التعدد الثقافي المستقبلية لهوليود ستار...

ولكن بعد عدّة أسابيع، عادت إدارة الحانوت من جديد إلى التسيّب. فلأكثر من مرّة، اصطدمتُ بستارٍ حديديٍّ خفيضٍ، ناهيك عن كدسٍ من الأفلام اختفت دون قيد أو شرط.

– ما الذي يحدث؟ كل شيء يسير بشكلٍ خاطئ، قلتُ للأخوين اللذين استقبلاني.

– الأمر طبيعي، أجاب أحدهما، لم نعد سوى اثنين وهناك

الكثير من العمل.

– اثنان؟ ولكن أين راح الآخران؟

هزّ الشابّ كتفيه وبدرت منه ابتسامة تدل على استسلامٍ.

الشابّان الآخران في المسجد الكبير. ومثل العديد من شبّان هذا الحيّ حيث لا يجد المرء ما يسدّ بــه جوعــه، انــضمّا إلى صفوف التّاميّة، واستبدلا سرواليهما الجيتر بجلبابين وحلقــا شعرهما الداكن وطوّلا لحية مدبّبة. أغراهما الملتحون بحــسنات الصلاة، منهجاً كغيره من المناهج لتحقيق الثــروة والنجــاح. العمل الصالح في الدنيا في سبيل مائة عذراء في الآخرة، إنّهــا مسألة...

توسّل آخر المدافعين عن هوليود ســتار إليّ أن أنــصح أخويهما وأُعيدهما إلى حضن الأمميــة الرأسماليــة. فبــدونهما، الحانوت (المتراجع بالأساس) معرّضٌ لخطــر الإغــلاق عمّــا قريب.

– أنت، سوف يصغيان إليكِ، قالا لي، قولي لهما بأننــا في حاجةٍ إليهماَ.

وعدتهما، ولو أنني أعرف أنه ليس لي وزن يُذكر مقابل إله التماميين، ولا حتّى مقابل أي إله.

بعد ذلك ببضعة أيام، سلك الملتحيان الضحيّتان شــارع نادي الفيديو، بهيئتين رزينتين تثيران السخرية بالنسبة لعمرهمــا البالغ خمسة وعشرين عاماً. جرى الحــديث مختــصراً، وإن لم

ينجح حائشو* الجامع بعد في نزع دماغيهما. بقـــي حـــديثهما متماسكاً، ولم يصطبغ سوى بعبارات مقتضبة أحياناً. وما هـــي تبريراهما؟ لم تعد التجارة مربحة... في الجامع، يـــستعيد المـــرء الأمل، أمل التضرّع إلى اللّه... الأفضل والمستقبل الأفضل، في الآخرة، قسراً، حيث يحتفل الشهداء بأحزمتهم الناسفة الـــتي تزعجهم قليلاً قبل يجلسوا في دار النعيم.

ـ فكّرا...

– لقد فكّرنا.

– فكّرا أكثر.

ماذا يمكن أن يُقال لهما إضافة على هذا؟ بدا لي أنّـــه لا طائل من ذلك، وافترقنا أصدقاء جيدين، ولكن مع شعور بأننا لن نحظَ بفرصة اللقاء مرّة أخرى. ذكّرني انقبـــاضٌ طفيـــفٌ في قلبي بضحكاتنا المجنونة في الحانوت الـــصغير، حينمـــا كنـــتُ أسألهما، والعيون مدوّرة، مَنْ يمكنه أن يكون مـــاد مـــاكس. سرعان ما سيكونان قد نسيا ذلك بنفسيهما.

لقد تسرّعتُ بعض الشيء في نعيي للشباب المغربي. فبعد بضعة شهور من ذلك، خطّأني ظنّي في شخص أخويَّ اللـــذين فقدهما، واللذين التقيتُ بهما من جديد، وهـــذه المـــرّة كانـــا يرتديان سراويل جينز وتي شرت، وقد حلقا ذقنيهما منذ وقت قريب، وعلى أذنيهما المسجّلة المحمولة. لدى اقترابي، انشقّا عن

* الحائش: من يطارد الفريسة للإيقاع بها. وهنا الإشارة إلى من يتربّص بالشبان في المساجد لكسبهم إلى صفوف الأصوليين ـالمترجم-

ابتسامة واسعة.

– نعم، نعم، لا تقولي شيئاً، نعرف.

لقد أخذهما الوهم لبعض الوقت، ولكـــن رغمـــاً عـــن تعطّشهما للأمل، انتهى بعد أن بلغ مداه. لقد أرادوا إخفاء ما هما عليه، بسبب تكوينهما العقائدي؛ فخافا مـــن أن يـــضيعا وعادا إلى رشدهما، بكلّ بساطة.

على غرار الأخوين السخيين، ليس الشباب المغربي باحثاً عن الهويّة، وربّما لهذا السبب ليست التربة التماميّة خصبة تماماً في المغرب مثلما هي في غيرها من البلدان. فالشباب، الفخورين بكونهم مغاربة، والمتمسّكين بجذورهم، لا يغازلون المتطرّفين إلاّ كعلامة تمرّد ضدّ نظامٍ متوحّش. لا يحتاجون سوى إلى شـــيءٍ واحد: الحريّة. الحرية والعمل. وفي هذا، لا أحد يفهمهم أكثر منّي.

اختفى هوليود ستار، قبض اللّه روحه، ولكن تحوّل، رغم أنف وخاصّة رغم لحية التعصّب، إلى متجرٍ صغير. مخزنٌ صغيرٌ مستحب، مموّنٌ بشكلٍ جيّد، يخدم جزءاً كبيراً من الحيّ. لقـــد عملتُ كثيراً إلى جانب الأشقاء الأربعة ليجعلوا من محلّهم تجارة قابلة للاستمرار، ويستثمروا نزوعهم المغامر. الأرقام مفرحـــة والإمكانات ممتازة، وعلى المدى القصير ستكون التجارة رابحة قبل نهاية العالم. لا ضير من نيل الأرباح على الأرض، بدلاً من العذارى في الآخرة. إنّه حساب قصير الأمد، على الأرجـــح لا نعرف صحّته إلاّ يوم موتنا.

سجينة الصحراء

العمل سوءُ طالعٍ بالنسبة لبعض الناس، ولـذّة ومخـدّرٌ ومسكّنٌ لآخرين. بالنسبة لي، اكتشفتُ العمل من جديد بعد كلّ تلك السنوات من السجن، واعتقدتُ بأنّه لـيس سـوى وسيلة للانخراط في عالمٍ لم يعد عالمي.

علينا ألاّ ننسى بأننا كنا ملاحقـين ومـراقبين، وأنـني الوحيدة التي نجوت، بمشقّة، من ذلك الحرمان من الحقّ الأكثر بساطة: حق كسب القوتً. انكببتُ على العمل بتلذّذ، متناسية كلَّ شيء أو جلّه لأتفرّغ لتصوير تلك الأفلام الإعلانّية الـتي اتّخذت مظاهر قضايا في غاية الأهمية. تركني المال لا مباليـة، ولكنني انكببتُ على كلّ مهمّة كلّفتُ بها، مهما كانت بسيطة، كما لو أنني أُرسَلُ في البحث عن الغرال*.

بفضل تدخّل الشخصيات المهمّـة الكـبيرة في المجـال السمعي البصري الباريسي، انفتحت أبواب العالم المهني قبل أن تدعني أبواب البلاد أمرّ لأعيش حياتي في بلد آخـر. ولكـنّ شرطة أمير المؤمنين يقظة، ومنذ بداية أوّل تصوير خصّصت له أعمالي، جاء « الأمن الإقليمي »، وكأنّها مصادفة، يقلّـب في سجلات الموظفين. إنّهم يرتابون في كلّ شيء وفي جميع الناس؛ على كلّ حال، الأمر يتعلّق بأخذ مشاهد فيلمٍ فرنسي– إيطالي؛ مَنْ يدري، فربّما يكون كلّ هذا وكراً لجواسيس، خطراً علـى النظام، على البلاد، على الملك...

* الإناء الذي استخدمه يسوع المسيح أثناء العشاء السري، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، قصّت العديد من روايات الفروسية أعمال البحث عن الغرال من قبل فرسان الملك أرثر –المترجم-

– مسألة أمن وطني، شرح للمنتج بهدوء موظّفٌ توارت عيناه خلف نظارتين سوداوين.

كلٌّ يعلم حقيقة أنّ ليس التقنيون الإيطاليون ولا المخرج الفرنسيّ هم من يُقلقون السلطات، ولكن اللقب اللعين الذي أحمله. أوفقير، مرادف الصمت والنسيان. اليوم أيضاً، يرنّ هذا اللقب كطلقة بندقية، والحال أنّ طلقـــات البنـــادق تجـــذب الشرطة، التي يكون همّها، كما هو معلوم، إعادة الأمـــور إلى نصابها.

ليس لابنة أوفقير أيُّ شيء تفعله – حـــرّة– بخـــصوص تصوير فيلم، ناهيك عن اتصالها مع أجانب.

لفرط ما تردّدوا باستمرار على مسرح التصوير، خلـــق حمّالو البنادق جوّاً من الرعب غير ملائم تماماً للعمل. قلّما برّر الخوف، مع أنّه العنصر المثير للمغرب، ســـلوك الأجانـــب في الفريق، المُرهَقين بالتهديدات الخفية التي تضغط عليهم دون أن تكون معلنة بوضوح. أمّا المنتج المغربي، فقـــد كـــان في ذروة الذعر، وعلى الرغم من الاستقبال الحار الذي خصّني به وسط الفريق، فقد انتهى بصرفي عن العمل بمجموعة ذرائع واهية.

– تفتقرين إلى الخبرة، قال لي وهو يرتّب مصنّفاته، دون أن يتجرأ على النظر إليّ وجهاً لوجـــه. ثمّ أنّ الميزانيـــات قـــد خفّضَتْ.

أخذ التمرّد بتلابيبي. بعد سرقة عشرين عاماً من حيـــاتي، يُسرَقُ مني حقّي في العمل (لا أجـــرؤ علـــى الحـــديث عـــن

الاندماج، لأنّ هذه العبارة ستفترض أنني قد ارتكبتُ جريمة)... واحتججتُ من جديد إلى كلّ الضغوط الخارجية لفكّ الملزمة السياسية ولإعادة دمجي بالفريق.

– يُسعدني أنّك قد عُدتِ إلينا، كذب المنتج، بابتسامةٍ منقبضة.

علمتُ بفطنة بأنّه أُرغمَ على إعادتي، وأنّ تهديدات بالانتقام المالي قد أخفت بلا شكّ التهديدات بانتقامٍ صرف بلا زيادة. أنا أعمل، فليكن، ولكنني أعمل لأنّ أحدهم أُرغِمَ على توظيفي. من الصعب في هذه الظروف الذوبان بلا تبصّرٍ في القالب، والاقتداء بزملائي في تفانيهم في العمل. كما أنّه من الصعب، وقد وقع ذلّ الطرد من العمل ومن ثمّ العودة إليه تحت رحمة الضغوط، توبيخ أولئك الذين يضطهدهم النظام...

لكلّ عملية تصوير، ولكلّ تحرّك، تجد الوكالة نفسها متّشحة بلباس الدرك وبالبوليس السياسي. وكمديرةٍ للإنتاج، ينبغي عليَّ طلب تراخيص التصوير من المحافظ، ومن الدرك ومن القائد (والذي يوازي المختار في المغرب، رغم لقبه الكبريتي على الآذان الغربية)... وجعلت رؤية هذه الطلبات موقّعة باسم أوفقير أكثر من واحدٍ منهم ينتفض من مكانه.

هبط الليل باكراً على الدار البيضاء، وأمنيتي الوحيدة هي العودة بعد نهارٍ طويلٍ من العمل المضني. ولكن قبل بيتي ببضعة شوارع، وقفتْ سيارةٌ BMW فارهة سوداء اللون في منتصف الطريق. أعملتُ منبّه السيارة للمرّة الأولى، ولكن دون

جدوى، وللمرّة الثانية، والثالثة، حاولت مناداة السائق الذي سدّ الممرّ. فجأةً، انفتحت بوابة السيارة، ونزل منها رجلٌ، متوعّداً. بشاربه المتبجّح، وبتلك الطريقة الفريدة في تصليب الكتفين، عرفتُ العسكري، كلبُ حراسة النظام، الذي لم تفلح بزّته المدنية الجيّدة التفصيل من التستّر علَيه. ولإعادتي لصوابي، أخذ يسبّني، وهو يلوّح لي بأوراقه العسكرية بازدراء.

– إنّكِ لا تعلمين مَنْ تواجهين!

أجل، أعرفه، أعرفه كثيراً. كل تناقض المغرب يكمن هنا، بالضبط، في تعسّف السلطة هذا الذي يتعارض بشدّة مع الشعور بالتعاضد الذي يميّز شعبي. الرجل كولونيل، ويتصوّر ككلّ الضباط بأنّه يتمتّع بسلطة شبه ملكية، ولم يتوان عن تهديدي بالأسوأ. الأسوأ؟ آه لو أنّه كان يملك أدنى فكرةٍ عما عشته.

للمرّة الأولى، لدى عودتي إلى البيت، أطلقت العنان لما كنتُ أتمتّع به من نفوذ لأخذ رجلُ الـBMW من شاربيه. أصبحت تعدّيات السلطة لا تُطاق بالنسبة لي، ومع احتمال أن أمارس واحداً من تلك التعدّيات بنفسي لإعادة الجلاّدين الصغار إلى نصابهم، سأفعل كلّ شيءٍ لكي لا أعود معرّضة لهذه التعدّيات.

ثمّة حكاية كهذه، فقد كانت ابنة مفوّضٍ في السابعة عشرة من عمرها أخرجتني من صالة سينما كمنحرِفة. في ذلك اليوم، كنتُ لا أزال واحدة أخرى، وكنتُ قد استسلمت،

بدلاً من أن أطلق العنان للنفوذ المطلق... كنتُ اشمئزُّ حينها من الحضور من خلال اسمي. كانّ الجنرال أوفقير الكلّي النفــوذ، وبكلمة واحدة منه، ليستطيع أن يصغّر والــدها المفــوّض إلى حجم خرقة تافهة؛ كان يكفيني أن يعرف الناس أنني ابنته. الآن ما عاد والدي موجوداً، والنظّار الصغار سمّموا كلّ دقيقة مــن دقائق الخمسة والعشرين عاماً من شبابي المسروق، وما من أحدٍ سيعينني على الوقوف على قدمَي.

بعد ثلاث سنوات ونصف من الكدّ في العمل، بدا لي أن الأبواب تنفتح أخيراً أمامي، ليس تحــت تــأثير الــضغوط أو التهديدات، وإنّما ببساطة لأنّ قيمتي المهنية قد عُرِفَتْ. لم يخضع معلّمي الجريء، ربّ عملي الجديــد، للــسلطة، اســتقبلني، واستمع إلي، وامتحنني مهتمّاً فقط بقيمة عملي. تــأثّرتُ بــه ودمعت عيناي؛ فمنذ زمن تتقاذفني الأيادي كعــبءٍ مــزعجٍ للغايةِ.

– أنا أوظّفك لقيمتك لا لشيءٍ آخر. أَتفهمين؟ لا شيء آخر. وإن كنتِ عديمة الجدوى، سأصرفكِ من العمل!

في تلك اللحظة، شعرتُ بنفسي إنسانة أخــرى. إلاّ إذا لم أكن قط شبيهة بنفسي...

لازال السجن يثقل عليّ، مثل ظلٍّ غــير مرئــي. رغــم الازدهار المهني الطفيف الذي حملته أعمالي وســط الوكالــة، لازلتُ لا أطيق التشوّش، وانتهى جــوّ التــصوير بإنهــاكي. ضجيجٌ، وأضواء، وألوان، وصرخات، وضغط نفسي... كــم

مرّة رغبتُ في أن أقفز إلى سيارتي، وأقودها في وجهتي على نحوٍ مستقيم، دون أيِّ هدفٍ سوى أن أذهب بعيداً؟

وجدتُ طريقي مصادفةً، أثناء تصوير وسط صحراء الأطلس. كانت الشمس تَسْفَع الرباط قويّة بحيثُ أُعلن عن درجات حرارة هائلة لدى وصولي. لدى انطلاقي بسيارتي الرباعية الدفعِ المليئة باللوازم، لم أتخيّل للحظة أنّ كلَّ كيلومترٍ أقطعه يقرّبني من الصفاء... هدف الرحلة: ورزازات وارفود، نوعٌ من هوليود صحراوي على الطريقة المغربية. لا يصدّق السائح الباحث عن الغرابة عينيه وهو يرى ذلك: كلّ النتاجات الأمريكية الضخمة، مهما تعلّق الأمر بالصحراء أو بالمساحات الواسعة، استدارت إلى هنا، على بعد خطوتين من القرى الجرداء التي تُزار على ظهر الجمل. إنّها هنا مملكة لورانس العربية، على مدى النظر أمام أعيننا. ارفود آلة عملاقة، أستوديو تصويرٍ في الهواء الطلق حدوده الوحيدة تخوم الصحراء. يتغطّى مدى هذا العدم، بانتظام، بالشاحنات والهوائيات، والخيام، وإدارات الإنتاج، والمساليط الضوئية، والثلاّجات. يُتَكلّم فيه بكلّ اللغات، العربية والإنكليزية طبعاً، ولكن أيضاً الفرنسية أو الإيطالية.

- أيزعجكِ الإقامة عند السكّان؟

- على العكس!

كنتُ، في آن واحد، فضولية بلقاء الناس البلديين ومرتاحة بالتخلّص من عبء الجوّ المكهرب للرحلة. ستستقبل القرية

الأقرب أعضاء الفريق غير الضروريين لحسن سير التصوير؛ من جهتي، كان عملي الإنتاجي قد أُنجز. يمكنني أن أسلس قيادي لهذه الآماد اللا متناهية التي تهدّئني، للهواء الحارّ جدّاً الذي نشعر به يتنفس هبوباً. نارجيلة اللّه العملاقة هذه تمنحني الدوّار، وبلذّة، أفتح ذراعيّ لأشعر برياح الصحراء تلجُ ثيابي.

قد تكون السيّدة التي استقبلتني قد وُلِدَتْ قبل ألف عام. لا شيء، في هيئتها أو في وجهها المخدّد، يشي بعصرنا. عيناها ناحلتا اللون لفرط الضياء، ويداها داكنتان وصقيلتان، وكأنّ الرمل قد قرضهما. حينما دعتني لدخول بيتها الترابي الذي يسوده ظليلٌ عذب، شعرتُ وكأن الزمن يعيدني إلى الوراء. تقاسمنا الشاي، والوجبات بل والصمت أيضاً، جالستين على سجاجيد عند مغيب الشمس. قلّلتُ من ظهوري على « المائدة المنظّمة»، التي تُقدّم عليها مع ذلك صوانٍ مدهشةٌ من الفاكهة، وقوالب كاتو، وأطباقاً صيفية طازجة. شعَرتُ بنفسي على أفضل ما يُرام عند العائلة التي استقبلتني والتي قضيتُ معها الوقت الأكثر صفاءً، ذلك الوقت القليل الذي لم يُطلب فيه حضوري للتصوير.

– إذاً، قولي أنّكِ أحببتِ هلتون ارفود، قال المخرج ساخراً.

في الواقع لم نكن نتوقّع وجود أسرّة « king size »، التي يمكن لثلاث رجال بدينين أن يناموا فيها فاردين أذرعهم، ولا بارات صغيرة مليئةً بأنواع المشروبات، ولا حمّامات من المرمر ولا واقيات ورقية من تلك، التي تجنّب المرء أن يضع ردفيه

حيث جلس آخرون قبله. لا ترتبك الصحراءُ بالكماليات. حتى ما هو ضروري غائبٌ عنها، والغريب أنّ الضروري يغدو فيها فائضاً.

– ماذا فعلت، من دون تكييف؟ كنتُ أُسأل وسط النداوة العذبة لمكاتب الإنتاج.

– يجب أن يكون المرء هناك ليصدّق الأمر، ولكن لم أحتج إلى التكييف.

لم أحتج إلى أيّ شيء آخر. لا سيما وأنني لم أشعر بالقلق. لأنّه تلاشى في رياح الصحراء، وبدا أنّه عازمٌ على أن يدعني بسلام وهدوء طيلة إقامتي في ارفود.

أهل الصحراء مقلّون في الكلام. ولكنّ بمرور الأيام، تآنسنا، مضيفيّ وأنا، بعمق وتبادلنا رؤانا المختلفة جدّاً حول العالم والحياة. المرأة التي أصبحت صديقتي لديها أربعة أطفالاً صغار، علاوة على زوج وأمّه، أكّدت لي بأنّها كانت في السابق أجمل نساء القرية. اليوم، لا تتحرّك السيّدة العجوز بوجهها المخدّد من الركن الأكثر رطوبة في الدار، وتكتفي بفرز العدس الذي جلبناه بالأكياس.

شيئاً فشيئاً، تجرّأت على أن أسألهم عن رأيهم في هؤلاء الغرباء الذين يغزونهم بانتظام والذين يستخدمون صحراءهم كديكور مسرحي. كنتُ أكاد أصيغ الأسئلة والأجوبة عليها لفرط ما شعرتُ بأنني أفهمهم. الغرباء؟ يبغضونهم، طبعاً. كدتُ أُقسم على ذلك.

لا شكّ أنني وحدي، وقد أظهرتُ نفسي منفتحة علـى ثقافتهم، نجوتُ من قساوة حكمهم. وبعد قليلٍ، قـد أغـدو الناجية الوحيدة من المجزرة التي سوف لن يتوانوْن عن ارتكابها، فيما لو ذهب، عرضاً، الفريقُ بعيداً في تدنيس تُربتهم.

ولكنّ صديقة البدو صُدمَت... كلاّ، لا يكره مـضيفيّ الغرباءَ. إنّهم فقط يلومونهم تأسّفاً على عدم دعوتهم لكي يمثّلوا في فلمنا! لأنّه سبق وأن شارك الزوجان والفتيات الأربع وحتى الجدّة في مقدّمة ما يقارب عشرين من فيلماً أمريكيّـاً. أهـي مقتضيات الممثلين الصامتين؟ القرية منفتحـة علـى الـدوام، وسكّانها يستلذون بتأدية الأدوار الثانوية. الأجرُ جيّد (كـلّ شيءٍ نسبي) والجوّ لطيف، نُشاهَد من قبل العالم، وتُقـدّم لنـا أشياءً بسيطة. لماذا يحرم المرء نفسه؟ كما أنّ الحياة ليست دائماً يسيرة في الصحراء، والموارد شحيحة...

لم أعدل عن دهشتي إلاّ عندما أخرجـوا لي صـرّةً مـن الأشياء التافهة، علاّقة مفاتيح، قدّاحات، قبعات، تي-شيرتات، أغلبها مدموغٌ بلوغو إنتاج سـينمائي ضـخم. شـرحوا لي، بافتخار، بأنّهم قد مثّلوا في هذا الفيلم وذاك، مع هذا الممثل أو ذاك (مع تشويه بسيط في لفظ اسمـه) بينمـا لا يـشاهد أيّ شخصٍ في القريةً التلفاز.

ربّما صديقتي امرأة الصحراء، وهـي تنـشر الـصدق والصراحة، هذه المرأة التي كنتُ أظنّها متحرّرة إلى الأبد مـن العبودية الطوعية للبشر الأحرار، تلقي في الظلّ غـيرة كـلّ النجمات المبتدءات اللواتي يجلن على مكاتب توزيـع الأدوار

أملاً في الحصول على دورٍ صامتٍ في نتاجٍ سينمائيٍّ رفيع. بكلّ بساطة، مضيفيّ من الروادّ القدماءِ لهوليود.

– هذا يفاجئكِ بعض الشيء، قالت لي مع ابتسامة ماكرة.

لم تعد تتكلّم عن ذلك، ولكنني تيقّنتُ من أنّها أدركت في لحظة ما كان يجول في خاطري. قد تكون معتادة على أن تقدّم دميةً مصوّرة لكلّ تقنيي السينما. كم واحداً من بينهم، مثلي، أخذ صورها إلى بلاده، وهو يبيّن لأصدقائه أنّ أهل الصحراء قادمون من عالمٍ مختلف جدّاً؟

– أتعرفين أنّ ابنتي تزوّجت من إيطاليٍّ، قالت لتنهي الحديث معي.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

– أشكر اللّه في كلّ صلواتي، وإنشاء اللّه، ستتزوّج الثلاث الأُخريات من أجانب.

– إنشاء اللّه.

لم أكتشف حقيقةَ هؤلاء الناس، بتناقضاهم ومفارقاهم، إلاّ من تلك اللحظة. إنّهم على ظهر حصان بين عصرين، يستغلّون واحداً منهما لترويض الآخر، دونَ أن يفقدوا شيئاً من مروءهم ولا من نزاهتهم. إنّهم أفظاظٌ، وأذكياء، ومتحفّظون وقلوبهم ملؤها الدفء والمحبّة. لم تستيقظ عفاريتي في أيّة لحظةٍ، لتمنعني من العيش إلى جانبهم لحظة حقيقية

لتعويض بعض ما فاتني. الصحراء شرنقة بالنسبة لي، فضاءٌ بعيدٌ عن حكم البشر، يمكنني فيه الخلود إلى تنفّسٍ منتظم. حينما حزم الفريق أمتعته، تاركاً الأطلس يستعيد معالمه، عرفتُ بأنني سأعود، لأنّ العالم صغيرٌ للغاية لينقطع المرء عن الأماكن الوحيدة التي يشعر فيها بأنّه يعيش.

بعد بضعة أشهر، عدتُ إلى الأطلس بتأثّرٍ وانفعال، وهذه المرّة، في إطار حملة إنسانية. جلتُ، برفقةَ صيادلة بلا حدود، في المنطقة لتوعية السكّان بمشكلة التراخوما، وهو مرضٌ يصيب العيون قد يؤدي، إن لم تتم معالجته، إلى العمى. خمسة عشر يوماً في العراء وسط الصحراء تلت رحلة مضنية، وجعلتني أستشفّ من جديد عالماً مثالياً، هادئاً وقاسياً في آن، البيئة الوحيدة – بجمالٍ خياليٍّ– التي وجدت روحي الراحة فيها.

القريةُ التي زرناها، جافّة، فظّة، ومَهيبةٌ كسكّانها. في ساعات ذروة الحرارة، تذوب ضواحيها في تشوّشٍ مدهش، يمنحها سراباً متدفّقاً يُلهب الخيال. كان الأطفالُ والنساءُ، الذين كلّفتُ بإعطائهم دروساً في المدنية (بعد عشرين عاماً من السجن، إنّها لسخريةٌ جميلة) أجمَل ما شاهدته أبصاري: عيونٌ واسعةٌ صافية على بشرات نحاسية تبدو وكأنّها تلتهمنا فضولاً. حينما انتهى درسهم (ساعةٌ ونصف، يصغون إليّ أتحدّث، وهم النهمون جدّاً للكلمات!) بدأ درس الرجال، وقد تأثّرتُ للاهتمام الذي رافق إصغاءهم إليّ. ما همّ مَنْ أكون، ومَنْ كان أبي، وما نفوذي. أعطوا قيمةً للوقت الذي منحته لهم، فقط

لأنّني منحته لهم. هل كان لابدّ من الغوص في قلب الصحراء لألقى أخيراً الاحترام؟

النساء متّشحاتٌ بالسواد، لا من أجلِ الاحتماء من نظرة استهجان من إله مبْغض للنساء، وإنّما اتّقاءً من سعير الصحراء اللافح. وأغطيةُ رأسِ الرجال تصفق في الهواء كأشرعة الخيام. شعرتُ أنني خاوية ورائقة في آن. جعلت الحياة منّي طفلةً للصحراء، أدركت ذلك منذ الكيلومترات الأولى التي قطعتها في ذلك العالم الذي لا أفق له حيث تتخم الصخرة بالحرارة وبالصمت. تندمل جراح الروح هنا أفضل من أيّ مكان آخر، ربّما لأنّ الأحاسيس تتقدّم على الكلمات.

بدت نساء القرية، جالسات جماعات على جدران خفيضة، وكأنّهنّ شَعَرْنَ بانبهاري بعالمهنّ لأنّهن يوجّهن إليّ التحيةً والترحيب كلّما اقتربت منهنّ. أَقَرَأْنَ أيضاً في روحي كما في كتابٍ مفتوحٍ؟ غير أنّ واحدةً من بينهنّ نهضت وجاءت صوبي، وبين يديها طفلة صغيرة. هي تلك التي أعطتني ذلك الشيء الصغير للغاية، ذي الجمال المدهش.

– انظري، هذه ابنتي. ابنتي الثامنة.

– إنّها آية في الجمال، قلتُ لها، ليس لمداهنتها، وإنّما لأنّ الطفلة تشبه ملاكاً نزل إلى الأرض.

– عمرها سنة واحدة.

هززتُ رأسي.

- خذيها، قالت. اذهبي بها.

حاولتُ، وأنا نهب الحيرة، أن أشرح لها بأنني لا أستطيع اصطحاب ابنتها، وأنه ليس لديّ أيّ سبب للذهاب بابنتها. ولكن في أعماقي، استفاق جرحٌ قديم، جُرحٌ الأمّ التي لم أكنها.

- خذيها، ليس لدي ما أجعلها تحيا به، أنقذيها. أنقذي هذه على الأقلّ.

اختلطت الأفكار في ذهني؛ فكّرتُ بإهمالي أنا، بغياب أمّي، برغبة أن أحمل طفلاً بدوري، أكثر من أن أفكّر بمصير تلك الطفلة ذات الشعر الأشقر شبه الرمادي، والوجه المسفوع الأسمر الداكن المحملق بعينينِ واسعتين زرقاوين.

- شعرتُ أنّك ستأخذينها، تابعت الأمّ. شعرتُ بذلك، برغبتك.

دون تفكير، أخذت الطفلة بين ذراعي، ولكن لحظة أَلفتُ الفكرة، أخذت الصغيرة تصرخ ذعراً، وتتلوّى بين ذراعي، وغرست أظافرها في رسغي.

- لا أستطيع، قلتُ وأنا أعيد الطفلة إلى أمّها. إنّها تفضّل حبَّكِ على الراحةِ.

- ستعتاد.

- كلاّ، لا أستطيع.

اختارت الطفلة الصحراء؛ لو كنتُ قد استطعت، لفعلت الشيء نفسه. أنا أيضاً، كنتُ سأحبّ طفولة كطفولة الآخرين،

بعيداً عن بذخ القصر وأبّهته، بعيداً عن أشباح السجن، طفولة كامنة في دفء ذراعي أمٍّ. لا أميرة ولا سجينة، فقط فتاةٌ صغيرة لا تطلب سوى أن تُهدهَدَ لتندثر الكوابيس.

انطلقتُ نحو خيمتي، دون أن ألتفت إلى الوراء، تاركة خلفي تلك التي كان من الممكن، بتروٍ، أن تكون ابنتي.

أن أكون أمّاً، أخيراً

لن أصبح أمّاً أبداً. العقُم، دوّت الكلمة كأنّها حكمٌ قطعي. ترك السجن وسواساً حقيقياً للأمومة يسيطر عليّ، وكأنّ الولادة كانت الطريقة الوحيدة لأغدو امرأةً مستقلّة تماماً. مع ايريك، جرّبتُ كلّ الطرق: معالجات هرمونية، تلقيح اصطناعي، تخصيب عبر فيترو، جماع في أوقات ومدد محدّدة، عيادة أكبر الأخصّائيين من بينهم د. رينيه فريدمان. في كلّ أربعاء كنّا، ايريك وأنا، نذهب إلى ليبج، لتمنحني إحدى شقيقاتي بويضة. لمجرّد رؤية اللوحة التي تحمل اسم ليبج كنتُ أرتعش وكان قلبي يؤلمني. على مدى ثلاثة أعوام، اتّبعتُ سباقاً شاقّاً في علاجات مضنية، كان تأثيرها النفسي مفجعاً. في بعض اللحظات، بعد صدور السجينة، كنتُ أشعر بتضاؤل جدارتي بالأمومة، بحيث كنتُ أريد تقويض علاقتنا. شعرتُ بالحاجة التقويض الذاتي: شيءٌ ما كالانتحار. صمدت العلاقة الثنائية. كان ايريك ملاكاً صابراً. غفرتُ لأولئك الذين سجنونا لعشرين عاماً، إلاّ على شيءٍ وحيد: حرماني من أن أكون أمّاً.

– لو أنّ أولئك الناس قد قتلوك، يقتلونك لمرّة ثانية، قال لي الطبيب المختصّ بالأمراض النسائية، الذي اضطرّ للغياب عن دروس علم النفس في كليّة الطب.

أمام وجهي المتقطّر رعباً، عدّل في رأيه:

– ولكن يمكن التبنّي، كما تعلمين.

أعلم أنّه يمكن التبنّي، ونوال، ابنة أختي، أيضاً ستعرف

ذلك ذات يوم. لم أضف شيئاً على ما قلته لـــه. الآن أتجـــادل بمفردي مع شعوري بالذنب، ومع ذلك تبـــدو هـــذه الطفلـــة سعيدة إلى جانبي. لستُ أمّها، ولستُ متأكّدة من قدرتي علـــى أن أكون يوماً ما كذلك. أمّها، أختي مريم، فريـــسة نوبـــات الصَّرَع منذ سجننا، والتي تتقاذفها المستشفيات، في حالة صحيّة سيئة للغاية بحيث لا يمكنها الاعتناء بالطفلة. يعيش والـــدها في الرِّباط، ولكنّه، للأسف، غائبٌ في غالب الأوقات. ما العمـــل حينما تناديني نوال ماما، وتنادي ايريك بابا؟ اضـــطررتُ لأن أخبرها بأنّ لها أمّان وأبوان. تعيش معنا الآن في ميامي. طبعـــاً، عوَّض الشعور بالذنب، الذي كان قد شدّ على خنـــاقي، لأنّ نوال بالمعنى الرسمي ابنة مريم وفؤاد، حاجة الطفلـــة إلى أســـرة مستقرة. كنتُ وصيّة عليها في بـــاريس، ومـــنحني والـــداها المنفصلين عن بعضهما حضانة الطفلة، طفلةٌ آيةٌ في الجمال ذات شعرٍ مجعّد، طفلةٌ لعوب، حيويّة، فتاةٌ صغيرةٌ عشقناها.

هل سيمكنني أن أنسى ذات يوم أنّ الطفلة التي تغـــطّ في نوم عميق في الغرفة بنهاية الروّاق ليست طفلتي؟ هل ســـأملك ما يكفي من الحبّ لأمنحها إيّاه، أنا التي أحسُّ بأنني في غايـــة الضمور واليباب؟ قرأتُ نظريات مبهَمَة عن غريزة الأمومـــة، تؤكّد بأنّها تتطوّر تدريجياً أثناء الحمل لتبلغ مداها في نهاية تسعة أشهر.

ولكن جرّبت كلّ الوسائل لأجد تفسيراً لـــذلك الحـــبّ الذي ينقصـني. ثمّة أمرٌ واحدٌ مؤكّد: النساء محكوماتٌ بـــساعة عنيدة، وأخشى أن ساعتي لن تعود تحدّد الوقت أبداً.

هطل المطر على الجادات الفسيحة، وأنا أحثُّ الخطى، متشبّثة بيد نوال. لم ترق لي قط مشاوير العودة تلك أثناء هبوطٍ الليل، في عزِّ الشتاء... قضت الطفلة النهار عند أمّها، ووجهها الصغير الرزين يشهد بذلك. كلّما عدنا سريعاً، كلّما نُسي ذلك سريعاً، الانتزاع الملطّف للبنت من أمّها الذي تمثّله تلك الزيارات، المسافة التي تبدو بعيدة للغاية، المطر الذي لا يكفّ عن الهطول. كان ذلك عندما لمحتُ من خلال انعكاسات الواجهات المبلّلة شبحَ رجلٍ قصيرٍ وسمين يسير خلفنا عن قرب. في البداية، اكتفيت بمراقبته بطرفٍ عيني، ولكن سرعان ما بات واضحاً أنّه يتعقّبنا. أَسْرَعت، فأَسْرَع، جامعاً كتفيه على رأسه، وكأنّ دافعاً شرّيراً يحرّكه. شعرتُ بحضوره، باقترابه المتزايد. أخذ قلبي يخفق سريعاً، شددتُ على يد نوال كأنّه سينتزعها منّي؛ وتشبّثتُ بالأخرى بحقيبتي. من خلال واجهة مخزنٍ للأحذية، لمحته، أقرب أكثر من أيّ وقت، بقميصه الرياضيّ الفضفاض، وقلنسوته. سَرَتْ قشعريرةُ في صُلْبي وهو يقترب جدّا منّي بحيثُ شممتُ رائحته المفعمة بروائح لفائف التبغ.

دون أن أفقد رباطة جأشي، توقفتُ فجأةً، آملةً أن أخدع العدو. ولكنه بدا أكثر مكراً منّي، تجاوزني لا مبالياً وتابع طريقه، لدرجة أنني تساءلتُ في لحظة إن كان خوفي المفاجئ العنيف من كلّ شيء ومن أيِّ شيء لم يضللني. عبثاً ألفتُ قسماً كبيراً من الرموز السرية للبشر الأحرار، غالباً ما حدث لي وخلطتُ حَسَني النيّة بسيّئيها، تجنّبتُ الألبسة العسكرية لأرتمي بين ذراعيّ أوّل نشّالٍ قادمٍ، لذلك اللطف الطفيف الذي يغشى هيئته.

مع ذلك، لم تخنّي فطرتي، هذه المرّة: أبطأ الرجلُ خطوه، وتركني بدوره أتجاوزه، ثمّ انقضّ عليّ. هزّت هزّةً عنيفةٌ كتفي: كانت حقيبتي هي مقصَده. تشبّثتُ، متكزِّزةً خوفاً، بما كان يطمع فيه، لأنني، لزمنٍ طويل، بلا هويّة. تحتوي هذه الحقيبة على أوراقي، وصوري، ومالي، ومفاتيح البيت، بالإجمال حياتي. لا تُنتزَعُ حياةٌ هكذا، في زاوية شارعٍ. ولكنّ كان للرجل رأي آخر، وهزّني موبّخاً على أمل أنَ يراني أفلتُ فريسته.

– ستعطينني حقيبتكِ، وإلاّ سأهاجم صبيّتكِ، نفث من بين أسنانه.

أحياناً، تكفي كلمة لتغيير مجرى الأمور، لتحويل الفريسة إلى نّهاب. أخلى الخوف، مُجْتَثّاً في لحظة، مكانه لشعور من الشراسة العنيفة جدّاً بحيث شعرتُ وكأن مخالباً تنمو لي. فجأةً، كنتُ لَبُوَةً، ذِئْبةً، دبّةً، على طريقة الدابة التي قلما تقبل العبث بذريتها.

– ردّد ما قلته، قلتُ له دون أن أترك له الفرصة ليردّ بكلمة.

لوته ضربةٌ من ركبتي في المكان المناسب على نفسه؛ دفعتُه إلى الواجهة الزجاجية، بقوّة بحيث اصطدم رأسه بها. وبقيتُ أضربه، اعتباطاً، بكلّ ما يقع تحت يدي– بيد فقط، بقدم وبحقيبتي. تحت ثقل الحقد، أصبحتُ المعتدية وهو الضحية؛ لَم أعد أشعر إن كنتُ أدافع عن نوال أم عن حقيبتي أم – عن حياتي، لم يبق أكثر من تلك الموجة التي تدفّقت في داخلي والتي

قد يمكنها سحق باريس بنفخة واحدة. كما في أفلام العنف الرديئة التي عادة ما أنام أمامها، لم أعد أرى سوى أنواراً وانعكاسات ضوئية تحت المطر، والشبح الملتوي على نفسه الذي يحاول الاحتماء من ضرباتي. أنا حيوانُ كاسر، سأتوقّف حينما يموت.

انتهى الرجل إلى الفرار، دون أن ينال مراده. في تلك اللحظة، اكتشفتُ نوال، متمدّدة أرضاً، باكيةً، متشبّثة بعرقوبي. هدأ الحقد في الحال، انحنيتُ لآخذها بين ذراعَي. همستُ ببضع كلمات في أذنها هدّأتها، مبدّدة رعب الدقائق الأخيرة تلك. داعبتُ شعرها، بينما شدّت نفسها إليّ. من حولنا، وعلى مساحة لا بأس بها، حملق الناس الأحرار إلينا كبهائم فضولية، مشدوهين وكأنّ أملهم قد خاب من جراء النتيجة غير المتوقّعة للاعتداء. على المرأة الحرّة أن تكون ضحيّة... ما كان ذلك سوى لإتاحة الفرصة لأن يعود المتسكّع إلى بيته ويروي حكايةً ستُرعد عائلته الصغيرة. سيسهى في لحظة عابرة عن الاعتراف بأنّه لم يرفع إصبعه الصغير مخافة أن تأتيه ضربة غير مناسبة.

فتحت حادثة الاعتداء، عيني واسعاً على الأمومة، على نحو غريب، الأمر الذي لم يكن أيّ أخصائيّ نفسانيّ قد نجح في تحقيقه. ربّما ذلك الغوص في أعماق الغريزة الأولية أتاح لي التحقّق كم كنتُ والدة الطفلة التي أربّيها، دون أن أُدرك ذلك. اللبوات أيضاً تتبنّى الصغار المتروكين، ترضعهم وتحميهم كصغارها. الآن أعلم أنّه ليس من الضروري أن تنجب المرأة

طفلاً لكي تحبّه، وأنّ كلَّ مَنْ سيحاول انتزاع نوال منّي سيقوم كذلك بقتلي في نفس المكان. كما أعلم أنّ هذه الطفلة الــتي ستكبر في حضني سيمكنها أن تعتمد عليّ طويلاً إلى أن ينمــو جناحاها.

أنا أمٌّ، وكنتُ أجهل ذلك.

الحبّ في الأربعين

الرجل الأوّل في حياتي، الذي كان لا بدّ من أن يجعل منّي امرأة حقيقية هبط على حياتي، بعد قليلٍ من إطلاقي من السجن.

عمري 43 عاماً.

انطونيو، إيطالي، جميل مثل أبولون*، أشقر، شعره مجعّد وناعم الملمس، له لحية قصيرة. على قدر كبيرٍ من الفتنة والجمال. إنّه ممثّلٌ كوميدي، التقيتُ به أثناء تصوير الفيلم الذي دُعينا، أختي ماريا وأنا، إليه من قبل صديق طفولة، ومستشارٌ ثقافيٌّ في السفارة، وقد التقيت به عند خروجي من السجن.

جرى التصوير في الصحراء، منتج الفيلم مغربي وفريق التصوير فرنسي- إيطالي. احتجنا في البداية إلى بضعة أيام لكي نتأقلّم، ماريا وأنا، مع الجوّ: منذ زمنٍ طويل لم نشاهد هذا القدر من الناس. ففي اليوم الأوّل، جعلتني رؤية كلّ تلك الأجساد بلباس البحر مستمتعة بالشمس أرتجف. لو أردتُ البقاء واقفة، لكان عليّ أن أستند إلى جدارٍ أو عمودٍ، وخلال لحظات، تبلّلت ثيابي.

مع ذلك، كان ذلك المكان، بالنسبة لي، الفردوس على الأرض، ولكن كغالب الأحيان منذ إطلاقنا، كان لدي شعورٌ

* إله الجمال عند الإغريق -المترجم-

بأنني دخيلة على هذا العالم. خاصّة هناك، وسط كـل هـؤلاء السينمائيين المنهمكين في العمل، ذلك الوسـط الـذي سـبق وقاربته بعض الشيء، والذي كنتُ قد رغبتُ أشدّ الرغبـة في الانضمام إليه، كان ذلك الشعور أقوى من أيّ وقت مضى.

قلّةٌ من أعضاء الفريق يعرفون مَنْ نكون، من أين خرجنا، مع أنّ نظراتنا الحزينة أثارت التساؤل لدى أكثر مـن واحـدٍ منهم.

كانت أختي ماريا أوّل مَنْ كشف انطونيو.

– هناكَ شخصٌ جميلٌ جداً مغرَمٌ بكِ، همست لي في اليوم الأوّل.

سألتها.

– كيف هو؟

– أشقر، عيناه زرقاوان، وله لحية!

أختي مجنونة. جميعهم شُقر، وبشرهم برونزية، وملتحـون. ولا ينقصهم الجمال. ولماذا سيهتمّ «شـخصٌ جميـل» أخـيراً استطاعت تمييزه من بين الآخرين، ودلّتني عليه خفيةً بإشارة من إصبعها. فعلاً، إنّه جميل، ولكن لم أرَ سوى نظرته المثبتة علـيّ. ولو كان بإمكانه، لالتهمني كاملةً.

بعد بضعة أيام من وصولنا، أقام المنتج حفلة شمبانيا لمناسبة عيد ميلاد أحد الممثّلين. حينما وصـلتُ إلى قاعـة الطعـام الفسيحة، كان هناك عالمٌ مجنون.

أخافُ الحشد، ولكن عليّ أن أرغم نفسي. عليّ أن أتحدّى عفاريتي. كنتُ هناك، متردّدة، حينما أخذتْ يدٌ يدي بلطف. ثمّة حرارة جارفة في تلك اليد، بحيث لم أبد أيّة مقاومة. تشابكت أصابعنا برقّة ثمّ شعرتُ بضغط شديد، وكأنّ صاحب اليد، وهو يكاد يهرس أصابعي، كان يريد أن ينقل إليّ كلّ حبّ الدنيا.

التفتُّ حينها ورأيته.

إنّه الرجل الذي كانت ماريا قد دلّتني عليه. ظلّ يرمقني ودائماً بنفس الطريقة. شعرتُ أنّه قد خصّني من بين الجميع وانتظرني بشغف. عرفتُ أنني أقصُّ على نفسي حكايات. عمري 43 عاماً، ولي قلب فتاة طائشة. ولكنّ، عيناه لا تكذبان. يبدو هذا الرجل مجنوناً بي. تكمن صعقة الحبّ إذاً في مكان آخر غير الكتب.

جذبني نحو صالة الطعام، بصمت، ولكنّني انسحبتُ خلسةً. شعر بتحفّظي، فأخذ كرسيين ووضعهما حول طاولة خارج الصالة.

جلسنا. ظلّ يحدّق فيّ ذاهلاً. توارت ماريا. بقينا هناك، نحن الاثنان، دون أن ننبس ببنت شفة. كنتُ أرتجف بشدّة، فرفع سترة من كشمير أسود موضوعة على كتفيه ولفّني بها مثل شال. ثم وضع يده على ضفيرتي ومسدني برقّة وحنان.

ظللتُ أرتجف ورغبتُ في ذلك. تعاملتُ مع نفسي كبلهاء. كيف بي، أنا التي كنتُ من بين جميع أخوتي وأخواتي،

أمتلك « بين هلالين » التجربة، وواثقة من أنني، لفـرط مـا رويت حكاياتي العشقية، سأكبح جماح جسدي، أكـون هنـا خرساء كفتاة صغيرة فَزِعة، مذعورة، خجولة، أنتقل بغمـوضٍ من الفرح إلىً الخوف.

بقي إلى جانبي، لم يفارقني. شعرتُ بحرارته، برقّته. ردّدت في نفسي أن هذا مستحيل. لطالما حلمتُ بهذه اللحظة، هكـذا أردتُ أن يكون الحب الذي يُقدّر لي. عليّ أن أظفر بهذا الحبّ.

قدّم لي انطونيو زجاجة من النبيذ الأبيض. بذل جهـده ليحدّثني بالفرنسية.

- هذه ستبثُّ الدفء فيكِ، قال لي.

على العكس، أرجفني الخمر من جديد؛ فأنا لستُ معتادة على الشرب. بنهاية الكأس الثانية، وقد رأى حالتي، توقّف عن تقديم النبيذ إلي، ومدّني بكأسٍ من الكونياك.

هنا، كان الأمر معاكساً. لم أعد أحتمل المكان. كانـت حالتي سيئة. نهض.

- سأرافقكِ إلى غرفتكِ.

مدّدني على سريري، بقي إلى جانبي بلا حـراك. الفتـاة الصغيرة في داخلي كانت أكثر رهبة مـن أيّ وقـت مـضى. التويتُ على نفسي.

قرفص عند أسفل السرير ورمقني مطوّلاً.

- ولكن مَنْ أنتِ؟ سألني. ومن أين أتيتِ؟ تبدين وكأنّكِ

تحملين كلّ بؤس العالم وشقائه في نظرتكِ.

تكزّزتُ. تنهّدت وحَوْزَقت. وأخذت أنتحب. بقي إلى جانبي حتى بزوغ النهار. شددتُ نفسي إليه، وبكيت. لم أفعل سوى البكاء.

في الصباح، نمتُ أخيراً. حينما استيقظت، لم يكن إلى جانبي.

من أين أتيت، يا انطونيو؟ من مكان معتم وجليديّ حيث انتهيتُ بالاستسلام: سوف لن أعرف الحُبّ أبداً. بالتأكيد، ككلّ فتيات جيلي، كانت لديّ بعض المغازلات، ولكنّها لم تكن قطّ جدية. لقد أحببتُ أحياناً. كان حبّي في السابعة عشرة بريئاً كأيّ حبٍّ أوّل. حتى كدتُ أن أعلن خطوبتي مع شابٍّ ظريف التقيت به في باريس، في سنة دراستي للباكالوريا. وقد واظبنا على المراسلة في بداية أسري، في تاماتاجت، حينما كان لا يزال بوسعنا تلقّي البريد. ولكن سرعان ما توقّفتُ عن الكتابة إليه؛ رغم رسائله المتأجّجة شغفاً، لم يكن يدرك شيئاً عن وضعنا المنعزل.

لقد أخذني رجالٌ بين الأذرع، وهمسوا لي بكلمات عذبة. لقد عرفتُ ما كان يعنيه الرقص البطيء باسترخاء، وتقبيل صبيٍّ من ثغره.

في باريس، عرّفتني ابنة خالتي ليلى شنّا، الممثّلة الشابّة الفائقة الجمال التي هام بها لخضر حامينا، كاتب وقائع سنوات الجمر، إلى آلان ديلون وجاك بيرَن. عقدتُ مع كلٍّ منهما

علاقة غامضة، صداقة حبٍّ لم تذهب بعيداً. راعى الاثنان الشابّة التي كنتها آنذاك، المحاطة بالقيم الفاضلة، الحريصة على شرفها، وان كنتُ أحبّ الرقص والتسلية أكثر من كلّ شيء.

أمّا أنا، فلم أكن مستعدّة لأخصّ أيّاً كان. ببساطة، كنتُ أعرف بأنني سأتزوّج، ذات يوم ليس ببعيد.

كان كلُّ هذا من قَبل. قبل قرونٍ وقرون.

في السجن، كنتُ عازمة بشدّة، في حال استعادتي للحرية، على أن أرمي بنفسي في سرير أوّل قادمٍ لأنال مُرادي. ولكن الواقع أكثر تعقيداً. ألستُ معرّضة للانكسار، في حين أنني لم أبدأ إلى الآن بالخطوِ على دربي؟

مع ذلك، لدي متّسعُ من الوقت لأتخيّل الرجل الذي سيعرف كيف يهزّني ويؤثّر فيّ. حسب المزاج، والحكايات التي كنتُ أرويها كلّ مساء لأخوتي وأخواتي، كان فتى الأحلام، مقاتل، حامل جوقة الشرف، رمّاحٌ بنغالي، طبيبٌ بلا حدود، بدويٌّ بعينين زرقاوين، روسيٌّ أبيض أو هنديٌّ أمريكي، جيمس بوند، طرزان، أو دكتور جيڤاكو (بلا الشارب، لأنّه صفة السجّان).

ولكنّني كنتُ أركّز على الحب العظيم أكثر من المتعة الجسدية كي لا أحبط المستمعين إليّ وأشعرهم بالكبت، وخاصّة كي لا أحبط نفسي. كم من الليالي المنعزلة، في تلك الزنزانة المعتمة، مستلقية على حشيّتي البائسة، حلمتُ بأنني سأمارس الحبّ؟ في الصباح، كنتُ أستيقظ يعتصرني الحزن والمرارة.

سرعان ما تعلّمت ألاّ أفكّر في ذلك، على الأقلّ ألاّ أُكثِر من التفكير بذلك، خشية أن أفسد أكثر.

في العشرين من عمري، نسيتُ تدريجياً ما يعنيه أن أكون امرأة، شهيّةً ومشتهاة. لم أعد أجيد الابتسام والضحك والرقص لرجلٍ يرمقني فيشعُّ بريق الرغبة في عينيه. تخونني الغواية، ولم أعدْ أجيد الإغراء.

احتفظ جسدي، الغارق في الرقاد لزمنٍ طويلٍ جداً، بالانعكاسات الضرورية للبقاء: الأكل، الشرب، النوم، السير...

وثمّ ماذا؟ وثمّ، لا شيء آخر... لم يعد جسدي يشعر حتّى بالحزن، إنّه معدوم. من هذه الجهة، لديّ كلُّ شيءٍ يجب أن أتعلّمه. ما أن تتركّز نظرة رجلٍ على حنايا جسدي، حتى تحمرّ في الحال وجنتاي، وترتعش يداي... أنا كائنٌ ينطوي على مفارقة تاريخية وهذا يؤلمني. أعطتني الحرية المستَعادة شعوراً غريباً بالدوّار والفراغ. أحلم بالحبّ، بالرغبة، بالشهوة، وأخاف، وهذا الخوف يُخْجلني. أجد نفسي مثيرة للرثاء والشفقة.

لم أعد أعرف كيف أتحسّس نفسي. لأنّ شيئاً ما يقفز أمام عيني، وأنا بالكاد قد عدتُ إلى عالم الأحياء: الجنس بات كليّ الوجود. في المواقع الالكترونية التي أشاهدها أثناء تناول الفطور، في الإعلانات، في السينما، على الملصقات حيث فتيات معرّيات، مهيبات وأكثر شباباً منّي يعرضن أنفسهن على مرأى الجميع.

لا يُتَكلَّم سوى عن « هذا » ولا يُفكَّر سوى بـــ «هذا».
أثناء غيابي، الوسواس الجنسي هو

القاعدة الآن، مسبّباً الدوّار للأقلّ احتشاماً. غيّرت الثقافة الخلاعية الجيل المتنوّر وتركت حتى الهبّيين الذين يدّعون التحرر متخلّفين عنها.

وها هو الوسواس يصيبني بدوري. ممارســة الحــبّ. في الحال. فكّرت فيها بلا انقطاع. إذا كنتُ

صادقة مع نفسي، فإنّ الرغبة السويّة هي ما تثيرني وتحــثّني بشكلٍ خاص. أريد أن أسمع الكلمات فجّة، رقيقة أو لاهبــة، التي يهمس بها رجل وَلهان ومهتاجٍ في أذن امرأة. أريد استعادة الزمن الضائع. أكون امرأة. أخيراً. ولكنني مذعوًرة يا انطونيو.

تعاقبت الأيام، أنا مَنْ حاولتُ تجنّبه، وليس هو. قــدّم لي زهوراً، وغنّى بافاروتيّ وشدّني بخطوات واسعة في الــصحراء، عند مغيب الشمس. وذهبنا للعشاء لوحدنا. اجتمعــت كــلّ المقوّمات لكي أستسلم للغواية. ولكن فشلت.

هو، أراد أن يظفر بحبّي. وأنا، أبحثُ عن هويّة. توجّهــت اهتماماته واخراجاته إلى امرأة حرّة أكثر منّي أنا السجينة التي لا معالم لي. وبينما كان يهمس لي «ti amo» كنتُ أتساءَل إن كنتُ سأجيد الاستسلام أبداً.

حدث لي هذا مرّة وحيدة. حينما أدرك أنــني عــذراء، حينما شاهد ردّ فعل جسدي، بلغ بي الارتعاش حداً ما عــدتُ استطيع التوقّف عنه.

جلس.

بكى.

– ولكن ماذا فعلوا بكِ؟

شقّ علي أن أروي له ما فعلوه بي. الأحرى أنّه هو مَنْ تحدّث لي عن حياته، هو المطلّق والأب لطفلين. الحرّ.

كنتُ واضحة جدّاً. حينما داعبني، أو حينما اكتشفت جسده، انتابني الشعور بأنني أتصفّح قاموساً. أتعلّم هذه اللغة الجديدة كلمة بكلمة. أجدُّ وأثابر فيها. ولكن الإحساس يخذلني بغيابه.

أشاهد نفسي وأنا أقوم ببعض الحركات. لا أحسُّ بأية لذّة. إنّه مغرمٌ أشدّ الغرام بي، أشعر بذلك، أرى ذلك. أنا مغرمة بالحبِّ، وهذا كلّ ما في الأمر. أعتقد أنني أشعر بأنوثتي، ولكنني لازلتُ جد بعيدة عن الواقع. احتجتُ للقاء ايريك، الذي سيصبح زوجي، لأعرف ماذا تعني هذه الجملة بمعناها الحقيقي.

انتهى التصوير، ورغم الخيبات المتكررة لعناقنا، اقترح علي انطونيو، بمنتهى الجدّية، أن يدسّني في إحدى شاحنات الإنتاج ليُخرجني من البلاد سرّاً. ولكنّ الهروب الأوّل أفرغ مدّخراتي من الشجاعة؛ ولم يبق لي منها ما يكفي لهروب ثان. لا سيما وأنّ الفريق مختَرقٌ من قبل عسس الأمن. فمغربُ الحَسن الثاني لا تنظر بعين إيجابية تماماً لوجود الأجانب على ترابها، يزيد على ذلك كوني على اتصالٍ بهم.

كلاّ، لن أهرب مرّة أخرى، لا إلى إيطاليا ولا إلى أيّ بلد آخر. ذات يوم سأكون حرّة رسمياً، سيكون لي جواز سفر في جيبي، وحينها، سأختار مصيري.

عدتُ إلى بيتي، في الرباط. عُدتُ إلى الشقّة الصغيرة التي أتقاسمها وأختي ماريا، مقتنعةً بأنّه سوف ينساني.

ولكن كانت قناعتي هذه تعبيراً عن سوء معرفة به.

هبط انطونيو ذات صباحٍ باكرٍ في المطار. ما أن عبر الجُمْرك، حتى ارتمى بين ذراعيَّ، وتعجّب لفتوري. هذا لأنني لا أستطيع أن أخطو خطوة دون أن أكون متبوعة بشُرْطيٍّ. ظنّ أنني لم أعد أحبّه، وبأنّ هناك أحدٌ ما في حياتي سواه. كيف لي أن أفسّر له رتابتي اليومية، والرقابة التي لا حدّ لها؟ وخاصّة السجن الدائم الحضور في ذهني. كيف لي أن أقبّله في وضح النهار بينما جميعهم من حولي ويكمنون لي؟

خلال بضعة أيام، ازدادت حالات سوء التفاهم بيننا. إنّه غيور، ويعنّفني. وأنا، لا أطيق الصراخ والهياج والتهديدات. التويتُ على نفسي، وشعرتُ بأنني أمام جلاّدٍ معذِّب.

انتهينا كلانا بالاسترخاء، فأمضينا أياماً رائعة. ذهبنا معاً إلى السوق، ثمّ أخذ انطونيو يعدّ الطعام في المطبخ: يعدّ لنا عجائن وسمكاً وطماطم بالريحان، وكلّها على طريقة نسابولي، ويغنّي في الشقّة التي تفوح بروائح الثوم وزيت الزيتون. انطونيو ممثّل حقيقي، مرحٌ، هائجٌ، ذلقُ اللسان. أحياناً مُتْعِبٌ. ولكنّه يحبّني. يصرخ لي بحبّه بجميع الطرق.

تناولنا الغداء صحبة ماريا، تحت الـشمس، في شـرفتنا الصغيرة. وضعنا موسيقى، استرحنا، ذهبنا للتنزّه في الـسوق، تناولنا العشاء أحياناً في المطعم. في الليل، حاول باسـتمرار أن يُطمئنني ويزيل قلاقلي.

– انطونيو، هل أنا « طبيعية » ؟

– لا تقلقي، لا يمكن لهذا أن يأتيَ بين ليلةٍ وضحاها.

اعتقدتُ بأنني، معه، في مأمن، ولكنني أخطأت الاعتقاد. ذات صباحٍ باكرٍ، في الساعة السابعة، دقّ رجال الأمن بابنـا. كانوا أربعةً. اثنانِ لم يقولا شيئاً، ولكنّهما زرعا الشقّة خطـى يقلبان اعتباطاً كلَّ ما يقع تحت أيديهما، واثنان آخـران لعبـا بالتوالي دور الشرير والظريف، كما في الأفلام.

– هل تدركين أن والدكِ، لو كان حيّاً، ما كان ليتقبّل أن ...أجنبي.

– أبي؟ شقّ علي أن أصدّق أنّ أداة النظام هذا تجرّأ على ذكر أبي، المقتول على أيدي زملائه.

شعرتُ بغضب رهيب يسري في داخلي تجاه هذا المقمـاق النحِس الذي يجعلُ الأموات يتكلّمون، حَنَقٌ أقوى من الخوف.

– انتظرني في الغرفة، قلتُ لأنطونيو الذي لم يفهم شيئاً مما يجري.

شعرتُ من نظرته المذعورة بأنّه يخشى عليّ.

انتهز الشرّير، المسترخي إلى ذلك الحين ببراءة في أريكـة،

قولي لأنطونيو ليطلق صواعق الجحيم. نعتني بكـلّ الألقـاب: ساقطة، عديمة الأخلاق، عار الإسلام، بينما الآخـران، وقـد وجدا لنفسيهما دوراً إضافياً، يسجّلان الحديث.

بأيِّ حقٍّ أسمح لنفسي أن أدنّس اسم عائلتي بإيواء رجـلٍ ليس زوجي؟ هل فكّرتُ بأمّي، بجيراني، بأسلافي؟ إذا صـدّقته، انطونيو إرهابي ومدمن مخدّرات وجاسوس.

تهكّم الظريف:

- هل تعلمين لو أنّ الإسلاميين رموكِ مـن الأعلـى إلى وسط الشارع، لا يمكن فعل أيِّ شيءٍ من أجلكِ...

بعد التلويح بالأخلاق والدفاع عـن شـرف أمّـي - متظاهرين بنسيان أنّهم حطّموا حياتها إلى الأبد- تابع الرجلان الحديث عن أمني الخاص، وكذلك أمن هذا الرجل غير المسلم الذي دنّس بحضوره هذه الأرض المقدّسة التي هي المغرب.

فطفح بي الكيل.

- أمارس الحبّ مع مَنْ أشاء!

دوّت كلماتي كطلقٍ ناريٍّ. ثمّ ساد الصمت. دار الشريط الممغنط مع ضجيجٍ رنّانٍ خفيف. تنحنح أحد الرجلين

- نعم مع مَنْ أشاء، وخاصّة مع أجنبي تحديداً لأنّه غـير مسلم.

- هل تعلمين ماذا يسمّى هذا؟

- ماذا يُدعى هذا؟ طبعاً أنا أعرف ذلك! وإذا كنتما

تجهلانه، سأعلّمكم إيّاه: هذا يُدعى بكلّ بساطة ممارسة الحبّ مع كوميديٍّ إيطاليٍّ شابّ وجميل، شخصية مدهشة.

لم يمتلك الرجلان الوقت للردّ عليّ حتى ارتميتُ في الشرفة، بينما سال فيضٌ من الكلام منّي، سريعاً جدّاً، وعشوائياً جدّاً حتى لأظنّ أنّ عفريتاً تملّكني. لقد أُخِذَ منّي شبابي، اسمي، حياتي، أبي، هويّتي، أحلامي، نومي، صحّتي، واليوم يُراد ما بقي لي، أو على الأقل ما يعتقدون أنّه بقي لي؟ كلاّ، جسدي يخصّني وحدي، إذا كان صحيحاً أنّ شيئاً ما لا يزال يخصّني.

هذا، لن يُؤْخَذَ منّي. ولأبرهن على ذلك، هددتُ بلا تبصُّر بأن أرمي بنفسي من النافذة. للوهلة الأولى، كدتُ لأن أصدّق بأنني قادرة على القفز من الشباك؛ فلم أعد أطيق وطأة الطغيان، وطأة هذه الدكتاتورية المتوحّشة التي تتسلّل حتى إلى سرير مَنْ قرّرت تحطيمهم.

– طيّب، طيّب، اهدئي، قال الظريف بصوتٍ قاطع، مشيراً إلى الآخرين أن يخرجوا.

ارتجفت على شرفتي بشدّة كورقة شجر، عرفتُ تماماً أنّه يخاف بدوره، من أن يضطرّ لتبرئة نفسه أمام رؤسائه من لطخة سيلومونه عليها. لقد أُعطيت لهذا الرجل صلاحية أن يفسد حياتي، أن يُرهبني، ولكن لا أن يقتلني. لو كانت الفكرة السيئة راودتني بأن أقوم بالقفزة الكبرى لانقلبت الآلة الجهنمية ضدّه هو وعائلته واسمه وشرفه.

– سننصرف، ردّد ذلك لثلاث أو أربع مرّات، افعلي ما تشائين، لا شأن لنا بكِ.

انغلق الباب عليهم. انعتاقٌ جيد. خرج أنطونيو بخجل من الغرفة، أقلّ جاذبيّة مما هو في العادة.

– هل كلّ شيء بخير؟

كلاّ، ليس كلُّ شيءٍ بخير. بكيت. مرّة أخرى، أفسدوا عليّ كلّ شيء.

بقي أنطونيو بضعة أيامٍ أخرى، ولكن السحر تحطّم. لم أعد أطيقه. لدى عودته إلى نابولي، ظلّ يهاتفني باستمرار، وهو يَعدني بأنّ الأمور ستنتظم عمّا قريب...

إلى اليوم الذي أخبرني، متألّقاً، خبراً عظيماً.

– مليكة، سأترك كلّ شيء، السينما، مهنتي، ليس لكلّ هذا أية أهمية. امنحيني مهلة ثلاثة أسابيع، الوقت اللازم لإنهاء أعمالي، وسآتي للإقامة معكِ.

– في المغرب؟

– نعم، في المغرب. إذا لم يكن بإمكانك مغادرة البلد، أنا مَنْ سيأتي إليكِ.

أساءت الحياة التصرف. للحظة، أخذت أزدري هذا الرجل البائس، المستعدّ لترك عمله للعيش إلى جانبي. لقد تحسّب لكلّ شيء: سيرسم على أقمشة ويبيعها. إنّه يتقن صنع

وزرات تاهيتية*. لقد عشت من الخضوع أكثر من أن أرتضي به عند رجل، والحال أنّه سيأتي ويخضع ذليلاً أمام الدكتاتورية. أيُرادُ إبقائي سجينة ومحرومة من جواز سفر وتعيين إقامتي؟ لا بأس، سيأتي بملء إرادته ليقاسمني حياتي كسجينة مع وقف التنفيذ. أفلا يفهم أنني أريد عكس هذا؟ أن يأتي رجل، كما سيفعل ايريك، وينتشلني من هنا؟

منذ ذلك الحين، بدأتُ أكرهه.

- لا أفهم شيئاً، أنا أحبّك، قال متحسّراً.

لا شيء ينبغي فهمه، يا أنطونيو المسكين، لم نُخْلَق أحدنا للآخر. لشهور بعد ذلك، استمرّ الاتصال بيننا، وخاصّة من جهته في الفترة الأخيرة. ولكنّنا عرفنا نحن الاثنان بأنّها نهاية علاقتنا.

تجربتي الثانية حصلت مع شابٍّ عارضٍ للأزياء في الثانية والعشرين من عمره، جاء إلى المغرب من أجل تصوير عرض. كان صبيّاً في غاية الجمال، ذو جسم رياضي. كيف يمكن له أن يُعجَب بي أنا العجوز؟ إنّه لغز. أو أنّه ربّما تصوّر أن خبرتي ستذهب به مباشرة إلى السماء السابعة. المسكين، لو كان يدري...

استعمل صديقي الجميل جميع الوسائل لألتقي به في غرفته في الفندق. وليس في مكان آخر، لأنّه حُظر عليه تحديداً أن يقترب من المغربيات أثناء إقامته القصيرة في البلاد. ولكنّه لم

* paréo: وزرة أو تنورة تاهيتية، وهي كلمة تاهيتية – المترجم-

يذعن.

بعد نظراته المتّقدة وابتساماته المبهَمة، حدّثني قلبي عن نواياه.

ومع ذلك لم أتوقّع أن يفتح لي الباب عارياً مثل دودة.

- ادخلي.

كانت الصدمة الأولى. ارتميتُ إلى الداخل مذعورة من فكرة أن يكون أحد ما قد رآني، أو رآه، علاوة على التثبّت من أنّ الوقت لم يعد للأغاني الإيطالية عند مغيب الشمس. أكنتُ أرغب في الجنس؟ اعتقدتُ بأنني سأحصل على بعضه.

فتمدّد على سريره، مرتخياً، فارداً ذراعيه. فتح درج طاولة السرير، وأخرج منه واقياً ذكرياً، ومدّه إلي.

يا للهول. لا أعرف كيف أستخدمه. بذلتُ جهدي حيال الجراب الصغير، دون التجرؤ على رفع عيني. سأبذل حياتي لكي أختفي، أتوارى، أتفتّت في مكاني. وكانت حركاتي مرتبكة جدّاً بحيث انتهيت إلى تمزيق الغلاف والواقي دفعة واحدة.

تمتمت، اعتذرت، ارتبكت.

أسرعتُ وانزويت في الحمّام. كانت يداي دبقتين. وصدغاي يخفقان بشدّة شعرتُ معها أن جمجمتي ستتحطّم.

عند عودتي إلى الغرفة، رأيتُ شريكي يمدّني بالواقي الثاني مع ابتسامة مرحة.

- لا تتلفيه، فهذا هو الأخير!

أنا، أتلفه؟ أيّة فكرة. توخّيتُ العناية به، عناية فائقة بحيث فقد صبره، أخذ الجراب الصغير مني بيديه، ووضعه بلا مساعدتي. ولمّا بقيتَ مزروعة في مكاني ببلاهة، أخذ بيدي ووضعها بقوّة على ذَكَره. بقيت مثبّتة في مكاني بلا حراك، أسأل نفسي عمّا قد يمكنني أن أفعله بيدي اليسرى. نظر إليّ، ورأيتُ في عينيه أنّه كان ينتظر شيئاً آخر من امرأة أربعينية. أمّا أنا، فقد كنتُ خاوية، بلا إرادة، يستغرقني الخجلُ، والشكوك والصداع. سوف لن أعرف أبداً أن أمارس ذلك.

أرخى تدريجياً يديه عن عناقي، وحاول أن يوحي إلى يدي بحركةٍ لم أقلّدها، ثمّ تهدّل ساقطاً على السرير، متنهّداً.

- لا طائل من هذا.

لن يكون هناك طائل من هذا وأنا أوّل من أعرف ذلك. سيعود إلى وطنه الأم أمريكا دون أن يفهم شيئاً عن المغربيات. من جهتي، اقتنعت بأنّ لا شيء ولا أحد سيعوضني حياةً مفوّتة.

سوف يجعلني ايريك، بعد ذلك ببضعة أشهر، أكتشف خطأ قناعتي تلك. إذا كان هو رجل حياتي، فذلك ليس فقط لأنّه فتنني، كما في الروايات العاطفية الرديئة، أو لأنني أشعر بأنني سوف لن أعيش إلا كنصف إنسان حينما ننفصل، فهذه الأمور مشتركة بين جميع الناس الذين يتحابون.

لقد عرف ايريك أن يجد المفتاح الذي نزع بضربة واحدة الرتاج عن قلبي. نجح حيث فشل كلّ الأطباء النفسانيين: لقد أعاد كتابة الوصفة المفقودة أبداً، سطراً بسطر. جعل منّي أكثر

من مجرّد امرأة: جعل منّي امرأته.

قادته رحلة مدبّرة من العناية الإلهية إلى المغرب، حيث التقينا كأكثر المجهولين من الناس الأحرار، أثناء حفلة زواج. وهو لا يعلم بعد أنّ ذلك سيكون بالنسبة له بداية طريق شائكة طويلة، لازلت أريدها لنفسي كلّ يوم. كما لا أعلم أنّ هذا الجَسور الطويل بابتسامته الماكرة، والذي يصغرني بأحد عشر عاماً، سيكون هروبي الوحيد والحقيقي.

أعلم فقط أنّه لم يطرح نفسه كغاوٍ أو كآسرٍ للنفوس، وأنّه لم يعرّضني ولا للحظة إلى الخطر. امتدّ حديثنا حتى مطلع الفجر، دون أن نشعر بمضي الوقت. ضحكتُ من كلّ قلبي، لم أصدّق ذلك بنفسي. لقد خُلقنا لنلتقي: يتكلّم العربية بطلاقة – عاش كلّ شبابه في لبنان– إنّه وديع، ودود، ظريف، رقيق، ذكي، ساخر، إنّه...

إنّها المرّة الأولى منذ إطلاقي التي لا يتحوّل فيها لقاء منفرد برجل إلى غثيان وهموم. معه، لم أشعر بالخوف. إنّه الوحيد الذي جعلني أشعر ذاك الشعور بالأمان. شعرتُ في الحال بأنّ هذا الرجل سوف لن يخضع لتأثير أيّ ضغطٍ كان.

شعرتُ بقوّته. واستشعرتُ لطفه. عرفتُ في الحال أنّه سوف يحبّني لما أنا عليه فعلاً، لا لما أمثّله. حينها، بدا لي أنّ كلّ شيء طبيعيّ جدّاً حينما أكون معه، بحيث سيطيب لي الذهاب معه، بلا تبصّر، بعيداً عن قلاقلي وشكوكي.

في ذلك المساء، آمنتُ أخيراً بالحبّ. ولكن، للأسف، لم

تكن تلك هي حالنا. احتاج ايريك إلى شهورٍ طويلة من الصبر والشغف لكي تتكرّر حالة النعمة العابرة تلكَ وتمتد. روّضـني تدريجياً. أخذ وقته الكافي. وإن كنتُ حتى وأنا معـه، لا أزال أجد مشقّة في الشعور بالاطمئنان، فقد ردّد بلا كلل بأنّ هـذه ليست سوى لحظة عابرة...

من خلال اللمسة، واليد، وطريقتي في الحـديث إليـه، والجلوس إلى جانبه، أدرك في الحال أنني كنتُ طفلة متنكّرة في هيئة امرأة، متمرّدة تخفي ألمها. أمضى ليلتنا الأولى في مـداعبتي ولم أبدي أيّة مقاومة.

قادني، شيئاً فشيئاً، دون أن يعاجلني، إلى ما كنتُ أعتقده مستحيلاً إلى الأبد: اللذّة.

خلال عام، قام برحلات متتالية بين المغـرب وفرنـسا. وليكون أقرب إليّ، أهداني هاتفاً نقّالاً. وكنتُ من أوائل مَـنْ اقتناه في الدار البيضاء. حتى أثناء غيابه، أشعر أنني محمية. أسمع ذلك الهاتف يرنّ من عشر إلى خمس عشرة مـرّة، في اليـوم، وأكون أقوى امرأة في العالم. بعد الآن، هناك في حيـاتي مَـنْ يمكنني الاعتماد عليه، إنّه درع أماني. قبل أن أعرفـه، كنـتُ يتيمة، وبعلاقتي به، حتى حينما لا أكون إلى جانبه، أصبح امرأة أخرى، أصبحُ متآلفة مع ذاتي. إذا كانت لكلمة الحريّة من معنى أبدي، فذلك من خلاله ومن خلاله وحده.

رافقني ايريك في طريقي الطويلة نحو إعادة الانسجام مع نفسي، دون أن تهن عزيمته. حينما أعترف بالإخفاق، يـدفعني

بهدوء ولكن بثبات. وحينما أكون نهب الإعياء والإحباط مستسلمةً، حينما أحتاج إلى أن أتكوّر على نفسي في ركنٍ بانتظار أن تمضي الحياة، وحده هو من يعرف أن يوقفني على قدمَيّ ويدعني استسلم له.

– سننال ما نريد، قال لي مع ابتسامة مطمئِنة.

نحن. لأننا اثنان، وهذه هي المرّة الأولى التي أكون فيها واحدة من اثنين. ايريك من هؤلاء الرجال الذين، بدل أن يكبحوك، يبعثون فيك القوّة التي تحتاجين.

ليست لدي سوى تجربة قصيرة في الحياة الزوجية، ولكن يبدو لي أن التجربة نادرة. سألحق به إلى آخر الدنيا.

لقد برهن لي، من خلال الانتقال إلى ميامي من أجلي، بأنه هو أيضاً سيلحق بي إلى هناك، إلى آخر الدنيا.

هذه هي المرّة الأولى التي يقضي فيها ايريك أعياد الميلاد في مراكش. وددتُ أن يكون ذلك ماراتون المداعبات والملاطفات. أمضينا ساعات طوال في قلب سوق المدينة عند بائعي الأعشاب الطبية الذين طالما أحببتُ رفقتهم.

عرض أحدهم علينا نبتات مزهرة صغيرة استعملها أسلافنا (لم تُخلَق الڤياغرا بالأمس فقط): سلاحف قزمة، حربايات، «تعويذة بالنسبة للنساء»...

سألته إن كان لديه شيءٌ ما لرجل. مجرّد الحديث بحريّة عن الشهوة أمدّني بارتياحٍ كبير. لم يصدّق ايريك، القادم من

بلد يُتصوّر فيه بأن المرأة المغربيـــة تخفــض عينيهـــا في الحـــلّ والتّرحال.

– الرّومي معدوم؟ سألني الشخص بابتسامة صفراء.

– لا، لا، الرومي ليس معدوماً تماماً. ولكن أريد أن تعطيني شيئاً لإقامة الحفلة طيلة الليل. له ولي، أكثر قليلاً.

هزَّ رأسه. وجلب من عمق حانوته الـــصغير مكوّنـــات وصفة سلفية، مع رماد الضَبُع كمادّة رئيسية، مثلما أكّد لي.

تحت أنظار إيريك المرتابـــة، طحـــن الحـــانوتيّ مجمـــوع المكوّنات وأفرغ المزيج في دورق.

– ها هو، يا حُلوتيّ! ملعقة قهوة في كـــأس شـــاي لـــه، وملعقتان لكِ. وإلاّ ... ستكون مشكلة!

وهكذا بدأت حفلة الشاي، مـــذ عودتنـــا إلى البيـــت. كجيشا* حقيقية، أخذت حمّاماً معطّراً، قبل أن أدهـــن نفـــسي بالمراهم. بضع قطرات من المِسك في تجويف رقبتي، وشعري لا يزال مبلّلاً، والمئزر

مفتوحٌ بلا مبالاة، دخلتُ دخولاً مسرحياً متفاخرة متباهية. على ايريك أن يعود إلى باريس في اليوم التالي... أردتُ هـــذه السهرة، والليلة التي تكملها، أن تكونا سهرة وليلة لا تُنسيان. بينما

تناول ايريك ملء ملعقة حساء من المزيج، تمـــدّدتُ علـــى

* الجيشا (Geisha) اليابانية، مغنية وراقصة ورمز للجنس – المترجم –

السرير، والمئزر مفتوح. ملء ملعقة حساء...كان بائع الأعشاب قد قال ملء ملعقة قهوة، ولكن ما الفرق؟ على أيٍّ حال، لأكون واثقة من عدم التعرّض لمفاعيل المزيج، ابتلعتُ بنفسي ملعقة منه في المطبخ بمفردي، قبل أن أضيفه إلى الشاي مقدّماً. لا ضير من الإفراط في اللذّة. دون أن يحسب المرء بأنّه ليس واثقاً من نفسه أبداً، حينما تكون له حياة مفوّتة...

تمدّد رجل حياتي بدوره، التوى رأسي قليلاً، تفوّقت الرغبة في غفوة صغيرة على الحميّة الجنسية. غطّ ايريك باكراً في النوم، بينما انغلقت أجفاني على مشاريعي عن ليلة مجنونة.

في الثانية فجراً، استيقظنا دون أدنى رغبة، اللّهم سوى الرغبة في ألا نعود إلى النوم. فأمضى ايريك آخر ساعات احتفاله المغربي بأعياد الميلاد في مرقَصٍ، مترنّحاً غير مصدّقٍ على حلبة الرقص.

طلع نهارٌ مشوّشٌ بالأخضر والأزرق بينما نتكوّر في سيارة الأجرة التي أقلّته إلى المطار. يُثقلُ علينا شعورٌ بالإخفاق، سوف لن تنجح الكلمات في التخفيف منه. بدت لنا هذه الليلة الأخيرة، مع أننا نعلم بأنّها لن تكون الأخيرة، فجأة أنّها خطيرة ومثقلة بالعواقب.

في الصباح التالي، بينما كنتُ أجترّ خيبتي ويأسي، رنّ الهاتف. إنّه ايريك. قال فرِحاً:

- أحزري ماذا؟

- ماذا؟

– أنا في حالة انتصاب دائم! لقد راودتني الحالة في الطائرة، ومنذ ذلك الحين، أنا عاجزٌ عن فعل أيّ شيء! لم يعد ذكري يرتخي.

لم يلقِ ايريك أسلحته، إن جاز لي القول، لثلاثة أيام. لا بدّ أنّه لعنني، من أعماق عزلته الباريسية، أنا وكلّ عطّاري المغرب، بمساحيقهم الضبعية، وتعويذاتهم، ومراهمهم العجيبة. لا يزال يشقُّ علي التخيّل أنّ مئزراً موارباً كان ليكفي، وحده، لجعلي مشتهاة، ولكن مسحوق الدجّالين ذاك ضمّ في قعر خزانة زبدة الفول السوداني الذي جُلِبَ لي من مكانٍ أجهله، والذي أمقته.

بعد بضعة أشهرٍ من ذلك، امتدّ حبّنا أخيراً، في فرنسا، إلى وضح النهار. أعيش في بيته. أنا إلى جانبه في كلّ ليلة. إذا تركني في الصباح فذلك ليلتقي بي على نحوٍ أفضل في المساء.

حلّت فورة جنسية، مبرّرة بلذّة، في العطلات الأسبوعية المسروقة محلّ رقابة البعض وحكم البعض الآخر.

ولكن طريق ايريك الشائكة لم تنته... عاد هوس الأمومة، المكبوت لأمدٍ طويلٍ جدّاً، المكظوم، المحجوب، بقوّة ليحشر نفسه بين اللذّة وبيننا. لم يعد هناك شيءٌ سوى هذه الفكرة المعذّبة: أن أُنجِب. أن أصبح أمّاً.

ماما، هذه الكلمة هي الأحبّ إلى قلبي من كلّ

الكلمات التي أعرفها. في كلّ لغات الدنيا، تعني الشيء ذاته: الحبُّ بين امرأةٍ وطفلها.

لأتملّك تلك الكلمة، سأكسر كلّ الأبواب خلال ثلاثة أعوام؛ أنا غير القادرة على أن أطلب طبقاً من عجّة البيض دون أن يُغشى علي، تابعتُ الفحص تلو الفحص.

أريد طفلاً. أُريدُ أن يُنظَر إليّ كأمّ، أن يكلّمني الناس عن ولدي، أن يستهبلوني بأسئلة بلهاء: هو في أيّ صفّ، أو هل طلعت أسنانه أو هل اشتريت هذه التنورة الصغيرة؟ أريد الدخول إلى النادي العالَمي لمليارات الأمّهات الخَرِفات، اللواتي يقتصر عالمهنّ على التفاخر بصغيرهنّ الأخير.

أصبح الأمر عقلياً، علمياً. حسبنا الأيام والدورات والرؤوس والقيعان. انتهيت تدريجياً إلى أن أطرح على نفسي أسئلة مؤلمة حول شرعية الزوجين والجنس وهذه اللذّة التي يأخذها المرء هنا حيث آخرون ينجبون.

لم أعد أدري ما هو الصائب، ما هو الصحيح، كدتُ أكره من جراء ذلك رجل حياتي، الرجل الأحبّ إلى قلبي.

قبل عدّة سنوات، أثناء تصوير، أحد الأفلام رجلٌ إيطالي يدعى غورينك، يهوى المظهر النازي بالجزمة والسوط، قال لي جملةً لم أنساها أبداً:

– أنتِ وأخواتكِ، وظيفته في الحياة هي إنجاب الأطفال.

بغضِّ النظر عمّا إذا كان الرجل الطيّب يحنّ أم لا للعهد العظيم لذوي القمصان السوداء*، غالباً ما أقول لنفسي إنـــه لم يكن مخطئاً...

عاش ايريك تلك الدوّامة التي قوّضت علاقتنـــا الثنائيـــة دون أن يضطرب، دون أن يحيد، وخاصّة دون أن يتخلّى عـــن كفاحه الذي جعل منّي، تقريباً عكس إرادتي، امرأة حرّة.

في ليلة زواجنا، حجز جناحاً فخماً في فنـــدق رافائيـــل، شرنقة ساحرة كما تحلم بها كلّ الفتيات، صغيرات أم كبيرات. مئزرٌ بلون السلمون على السرير، كوعد خبيث. زجاجة كبيرة من الشمبانيا، ألواح من الشوكولاته، ستائر مُـــسدَلة، أنـــوار خافتة؛ إنّها اللعبة الكبرى في ديكور حالم... حيـــث ســـيجعل أصدقائنا من الجناح منزلاً مملوكاً كليّاً حتى الخامسة صباحاً.

ففي الساعة السابعة تماماً، ايريك على موعد في المستشفى الأمريكي ليسكب في أنبوب، البذرة النفيسة التي ستجعلني أمّاً.

في السابعة صباحاً، في اليوم التالي لزفافه...

– أكرهك، قال لي دون أن يفقد تلك الابتـــسامة التي جرّدتني منذ الأزل من أسلحتي. هذه أســـوأ ليلـــة زفاف في التاريخ!

أعتقدُ أنني تزوّجتُ قدّيساً.

* ذوو القمصان السوداء: هو اللقب الذي أطلق على أعضاء المليشيات النازية الإيطالية بدءاً من عام 1919 – المترجم-

الحلم الأمريكي*

كانت الولايات المتّحدة تجسّد حلمي. منذ كنتُ في السابعة عشرة من عمري والتنانير القصيرة تجنّني. وفي ذلك الماضي الذي يصعب جدّاً تخيّله، أقلّ ما يمكن قوله هو أنني لم أضجَر فيها. قبل الانهماك في البكالوريا، تسلّلتُ إلى نيويورك، مثلما تسلّلتُ فيما بعد إلى باريس أو الرباط أو الدار البيضاء، لألتقي بشلّةٍ من بينها مارڤن دايان، ابن أخ موشيه، الأمر الذي وضع وزراءَ الملك في حالة ارتباك. عدا والدي، الذي ابتسم للأمر. كنتُ قادرة على الخروج كُلّ ليلة، دون أيّ شعورٍ لا بالخطر ولا بمفاتني الخاصّة.

في لوس أنجلس، رافقتُ للاّ نهزة، الشقيقة الصغرى للحسن الثاني، واُستُقبلنا في هوليوود: التقيتُ هناك بـ زازا غابور وادوارد ج. روبنسون، وطبعاً على كثبان ماليبو الرملية، ستيف ماك كوين الذي دعاني لرقصة بوغي في صحراء كاليفورنيا. كم هو بعيد المنال كلّ هذا! القول بأنني لربّما كنتُ سأصبح ممثّلة طُلّقَت مرّاتٍ عديدة على حافّة مسبحٍ هوليودي.

لم تعد الولايات المتحدة، والحال أنّها تُدعى الآن أمريكا، تسحر الكثيرين من الناس، ربّما لأنّ العالم أصبح أصغر، ولأنّ الطائرات تطير أسرع، والمرء لم يعد مرغماً على الصراخ في الهاتف ليُسمِع صوته من نيويورك. ولكن بالنسبة

* هذا العنوان وارد في النصّ الأصلي باللغة الإنكليزية American dram – المترجم-

لي، لم يتغير شيء. وكتابي الذي نُشر على نحوٍ واسعٍ في البلدان الأوروبية، شقَّ علي أن أصدّق الناشر، الذي أكّــد لي بأنّــه، بقليلٍ من الحظ، سيُباع قريباً في الولايات المتحدة. كتــابي، في أمريكا؟ مستحيل، مستحيل. لقد سبق وصعب عليّ كــثيراً أن آلف حقيقة أنّني أُقْرأ في أوروبا، حقيقة أنّ أناساً يهتمــون بي. ولكن في أمريكا، هذا كثير، كثير جدّاً.

– هذا بسيط جدّاً، قال ناشري بابتسامة. سوف لن يُنشَر هناك ما لن تقومي ببعض الدعاية. فــالأمريكيون لا يــشترون بالمراسلة، إنّهم يريدون التعرّف على البضاعة.

– سوف لن يتعرّفوا على شيءٍ البتّة. من المــستحيل أن أذهب إلى هناك.

– تصدمينني عند كلّ توقيعٍ ، يا مليكة.

– هذه المرّة، الأمر يختلف. لا أستطيع، لن أذهب.

بعد ثلاثة أشهر، كنتُ في الطائرة، وفي رأسي كلّ النصائح التي تُسدى لفتاة صغيرة تسافر بمفردها. لا تنسي جواز سفرك. احتفظي ببطاقتكِ معكِ. ارتدي سترتك الفرو، فالجو بــاردٌ في نيويورك.

نيويورك؛ عبرتُ، والأصابع قابضة على جواز سفري، الخط الأصفر الشهير الذي حلم مهاجرون كثر بحياتهم الجديدة خلفه. ثم تتالى كلّ شيء: جيء للبحث عني، الملحق الصحافي، والسائق، وسيارة الليموزين، وأمتعتي المأخوذة بأياد غير مرئية، والتي وجدت طريقها لوحدها إلى صــندوق الــسيّارة. أهــلاً

وسهلاً في أمريكا **Welcome to America**، قيل لي عندما نودي عليّ باسمي. وسُئلتُ إن كانت رحلتي مريحة؟ نعم، شكراً. كان طابور مَنْ ينتظرون سيارات الأجرة طويلاً جداً، ولكن ما همّ، فسيارتنا متوقّفة هنا أمام المَخرَج، وهي تومض بكلّ أضوائها. غاص جسمي في المقعد الناعم الملمس، وقدّم لي زجاجة مياه من بيرييه خارجة للتوّ من بار مُنارٍ بالنيون. انسابت الليموزين على الطريق السيّار، تتالت الأنوار سريعة بحيث لم أرَ سوى سحباً من الألوان.

شرح لي الملحق الصحافي مسبقاً برنامج الأيام القادمة، وأعطاني بلا ترتيب اسم فندقي، والنشرة الجوية الحالية، والطرق الواجب سلكها إذا أردتُ تأمين متابعة إعلامية نوعية ومتميّزة. لم يقل السائق أيَّ شيء؛ هذا طبيعي لأنّه سائق، وقد رأيتُ عينيه في المرآة العاكسة. مَنْ أكون أنا، حتى يقودني هذا الرجل، بتذلّل، دون أن يقابل قط نظرتي في المرآة؟ شعرتُ بانقباضٍ في قلبي لفكرة أن يكون هنا من أجلي، ليخدمني، وحتى إنْ خُدمْتُ طيلة شبابي، لم أعد أشعر بروح امرأة ثريّة. كنتُ متضايقة، وددتُ لو أعتذر منه. ذلك المساء، كم بدت لي بعيدة المؤتمرات الصحفية في ليون أو ستراسبورغ، والنزول من القطار حيث كنتُ أبحث، وحيدة أحياناً، عن سيارة أجرة لتنزلني أمام الفندق الصغير للمقاطعة ذي الفتنة البالية. حينها، كانت أمريكا هي تماماً أمريكا استيهاماتي، آلة مرعبة وأخّاذة في آن والتي تغطّيني وتحملني نحو مستقبلٍ مرسومٍ ومخطّط تماماً. أغلقتُ عيني، مبهورةً بخرير المحرّكات. سيمكنني أن أكون نجمة، هذا المساء.

– من الطبيعي المجيء لاستقبالكِ، ابتسم الملحق الصحافي. يُسعدنا أن نستقبلكِ.

– سأعود حالما ترتاحين لبعض الوقت، قال صوت الملحق الصحافي، الذي جاء يشوّش من جديد سير أسئلتي الميتافيزيقية.

لأنّنا أصبحنا في الفندق، حيث جاء ساعٍ بلبـــاس أخـــضر يفتح لي البوابة، بينما وضع آخرٌ حقائبي على عربـــة كـــبيرة مذهّبة. أهلاً وسهلاً Welcome، مرّة أخرى، good evening madame أسعدت مساء يا سيدتي ، وُجّهتُ نحو مكتب ضخم حيث جعلني بوابٌ متصنّعٌ في لباسه وكأنّه أمير ويلز* أن أوقّع استمارة. سار كلّ شيء سريعاً، صَعُبَت علي المتابعة. كان هـــو الفندق مدوِّخاً: فهو واسع، بأكمله من المرمر والمرايا. يمرُّ فيـــه عددٌ هائلٌ من الناس، مستعجلين، حتى يُخال أنّه باحـــة محطّـــة فاخرة.

أُخذَ جواز سفري (لمرّة، لم يكن لدي الوقت لأقلق بشأنه)، وأُعطيَت لي بطاقة أشبه ببطاقة ائتمان أكّدوا لي أنّهـــا مفتـــاح، وصحبني رجلٌ آخر قصير يرتدي اللباس الأخضر، وكـــذلك عربتي المذهّبة، نحو المصاعد الأربعة، المذهّبة هي الأخرى. توقّف المصعد الأوّل، المنجّد والملبّس بخـــشب الأكـــاجو كـــسيارة ليموزين. ثم وصلنا إلى الغرفة التي وضع فيها الساعي أمـــتعتي قبل أن يتمنى لي طيب الإقامة. أمريكا هي البلاد التي يتمنّـــى الناس لك فيها أكثر أشياء كثيرة هنيئة. هنيئاً مريئـــاً، إقامـــة

* Prince de Galles لقبٌ يأخذه الابن البكر للملك في إنكلترة منذ عام 1301 – المترجم-

هانئة، وصولاً هانئاً، عصيرة هانئة، سهرة هانئة... لو كان جزءٌ يسير من هذه الأمنيات يتحقّق، لكانت أمريكا بالتأكيد الفردوس على الأرض.

- أين جهاز التحكّم؟ سألته مذعورةً.

- هنا، يا سيّدتي.

- آه، شكراً.

يتقن الرجل الطيّب عمله، فبعد تحقّقه من أنّ تشغيل الجهاز يشغل بالي بعض الشيء، (استغرق الإلمام بدقائق جهاز التحكّم الباريسي شهراً كاملاً من وقتي)، شرع يشرح لي طريقة استخدامه. هنا، لتغيير القناة، وهنا لقائمة القمر الصناعي (القمر الصناعي؟ هاأنا ذا في عالم جيمس بوند!)، الصوت إلى الأسفل، توقيف التدوير إلى الأعلى، ما تبقّى لا يهمّ.

وضبط التكييف؟ زرٌّ ضخم مثبتٌ على الجدار، مع درجات وأرقام في كلّ مكانٍ منه...وركوة القهوة؟ لا أجيد حتى استخدام ركوة القهوة. فشرح الساعي، بأناة، من جديد. وأعاد الشرح مرّة أخرى. أمضى ما لا يقلّ عن ثلاثة أرباع الساعة، والابتسامة لا تفارقه، في تقديم التفاصيل عن تشغيل الصنابير (هيا اعرفي كيفية استخدام هذا المقبَض الذي يُدار ويُسحب في كلّ الاتجاهات حتى الحصول على درجة الحرارة المناسبة)، وعن البار الصغير (المقفَل بالمفتاح، لا شكّ لمنعي من سرقة أيّ شيءٍ منه)، وعن القواطع الكهربائية الستّ السهلة

المنال حينما نكون في السرير، وعن الخزنة الصغيرة المثبّتة في الخزانة الجدارية (خزانة يمكن إسكان زوجٍ من الطلبة فيها بسهولة).

لحسن الحظّ، بقي لي التلفاز، المألوف والمسكّن، لولا أنّه أفرغ جهده في البث باللغة الإنكليزية. هناك المئات من المحطات، وهي كثيرة جدّا لزوجٍ وحيدٍ من العيون، وكافية لتسلية أكثر المشاهدين ضجراً. ما همّ البرنامج، الشاشة الصغيرة صديقتي، صديقتي الأمريكية، الوفيّة والمتفرّغة لي ليلاً ونهاراً. طوال يومين، باستثناء اللحظات التي كان الملحق الصحافي يطلبني فيها ليدسّني في الليموزين، شاهدتُ التلفاز دون أن أتحرّك من غرفتي. في الخارج، هناك نيويورك المدينة الكبيرة الأسطورية التي تغدو باريس أمامها دسكرة ريفية. احتجتُ إلى شهورٍ لأواجه باريس وأعتاد عليها، بمساعدة رجل حياتي وأصدقائي... لا شيء في العالم سيدفعني إلى أن أكتشف بمفردي التفاحة العظيمة ، التي تلفظ في الهواء القارس أعمدة طويلة من البخار، خارجة من أفواه المزاريب وسط الشارع. تبدو نيويورك تتنفّس تحت قدَمَيْ، وقد تزدردني لقمة واحدة.

أخيراً، بدأت « الدعاية». وأنا التي كنتُ أعتقد أنني قد رأيتُ كلّ شيء، لم أصدّق ما رأته عيناي.

– ستُقدَّمين في كلّ الأقنية التلفازية المعنية، قيل لي أثناء الموعد الأوّل مع الناشر الأمريكي.

أمام الآلة الإعلامية الأمريكية، استحالت الدعاية الباريسية

نزهةً ريفية. نيويورك غلايةٌ، غُطِّستُ فيها فجأةً ككيس شـــاي صغير. سبّب لي غدائي الأوّل مع Good Morning America صباح الخير يا أمريكا، عند شبكة CBS الدوّار، كان يجب أن أتناول الطعام وأجيب على الأسئلة، وأتظاهر بمعرفة كلّ شيء، وأعبّر عن أفكاري بالإنكليزية! ثم كان راديـــو NPR ، وFox TV ، وCNN، (إنّها المدفعية الهائلة)، أخبرتني الـــدائرة الإعلاميـــة بفرح، بينما سيارتي الليموزين لا تهدأ ولا تقف لثانية واحـــدة. ولعدم إضاعة لحظة واحدة، يُستفاد من أوقـــات الاختناقـــات المرورية لمواصلة العمل عبر الهاتف: هاتف السيّارة، ولكن أيضاً النقّال... لقد وهب اللّه أذنين للملحـــق الـــصحافي، يحمـــده عليهما كلّ يوم.

- Hold on a second.

وبالنظر إلى مفكّرته، وتسطير وشطب وقلب الـــصفحات بعصبية، عندما لا يكون «المنظّم»* جاهزاً. «المنظّم» هو نـــوع من جهاز يعرف كلّ شيء، حجمه بحجم علبة السجائر، ويُنقَر بمساعدة قُلَيْم صغير لجعله يتكلّم. كدتُ أشتكي منـــه، ذلـــك الجهاز الذي تمّت محاولة شرح استخدامه لي لخمس عشرة مرّة، والذي يعاني من إرهاقٍ مستمر. يُنقَر المـــنظّم، ويُعـــاد نقـــره، فينتهي بالبوح بسرّه: يعطي كلّ شيء، أسماء، أرقام، تـــواريخ وأيّام. على ما قيل لي، يمكن دسّ محتويات قـــاموسٍ في هـــذه الأجهزة. والأفضل من هذا: إنّها تصحّح الإملاء، تماماً مثـــل أستاذ، أوّلاً بأوّل، ما أن يُضرب عليها. لقد صرفت النظر عن

* organizer -المترجم-

فكِّ رموز هذه العجائب الفرعونية منذ أمــد طويــل؛ الأمــر الوحيد الذي يهمّني اليوم، هو أن أحظى ببضعة لحظــات مــن الراحة قبل أن تتوقّف الليمــوزين مــن جديــد، وأُدفَــع إلى خارجها، ويُرحّب بي وتُستأْنَف الدوامة. لا شكّ أنّه في حــرم جامعة نوتر– دام في شيكاغو، كنتُ الأكثر تأثّراً: فقد تملّكتني حقّاً نوبة من الغيرة أمام كلّ تلك الوسائل المدهشة الموضــوعة بتصرّف الطلبة. فقد وجبَ علي أن أقوم بوظيفة معلّمة المدرسة لأخوتي وأخواتي، بواسطَة مخيّلتي وحدها.

من وقتٍ لأخر، وجد فريقنا الــصغير نفــسه في عــين الإعصار، حيثُ يأخذ فرصته في طرح بعض الأســئلة علــى نفسه، ونحن نتناول السندوتش. هل أُرسلَ الكتاب إلى اوبــرا؟ نعم، ردّ ملحق صحافي، ولكننا لم نتلقَ الردّ بعد. رغم التذكير لمرّة أو مرّتين.

– لابدّ من الاتصال بها، قال الناشر بين لقمــتين، وسمّاعة الهاتف على أذنه.

كانت تلك هي اللحظة التي اخترتها لإبداء رأي، ربّما هــو الرأي الأوّل منذ أن رُميتُ في لجّة الإعصار. لأنّني تألّمت بعض الشيء للخضوع الصامت الذي يجعلني بــلا شــك أبــدو في عيونهم امرأة بلهاء.

– الاتّصال بها للمرّة الثالثة؟ ولكن مَن تظنُّ نفسها، تلك المرأة؟

استدارت رؤوس ثلاث نحوي، وكأنّني قد أهنــتُ الــربّ الأب.

- اوبرا وينفراي!

- آه، نعم.

قلتُ نعم، ولكنني لم أعرف مَنْ هي اوبـــرا وينفـــراي. إطلاقاً. وخمّنتُ، في الوجوه المذهولة لرفاقي، أنّهـــا شخـــصية هامّة. لم أتخيّل بعد إلى أيّة درجة هي شخصيّة هامة، بكـــل مـــا تعنيه العبارة، وكم سيبلبل لقاءنا حياتي.

لقاء غريب كاد ألاّ يحصل. في عام 2001، وأثناء ماراتون جهنّمي، نظّمت تينا براون، التي كانت تدير حينها مجلّة Talk الصادرة من ميراماكس، مأدبة غداء صحبة ما يقارب أربعـــين امرأة نافذة. أعلمتني صديقتي ناتالي مارسيانو بأنّ هناك حفلـــة كبيرة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لصدور مجلّة Talk، وأنّ اوبرا ستكون حاضرة فيها. وماذا يعني؟ قلتُ لها: ومَنْ تكـــون هذه؟ في ذلك المكان الذي ضمّ في أدنى حدّ ألفـــي شـــخص، اجتاحني ضجيج فظيع كأمواجٍ صـــاخبة، شـــعرتُ بنفـــسي كحيوان نادرٍ سأُقدَّم للبيض المتمدّنين. فقدِّمت، وحُشِرْتُ بـــين أياد مجهولة، شعرتُ بتعارف مصطنع بعض الشيء. مترنّحة نحو المائدة، لمحتُ امرأةً معضّلةً أشارت لي بإشارة النصر: « مرحـــى لأجل برنامج ستون دقيقة! »* بعد ذلك بلحظات، عادت تلك الحارسة الخاصّة ودعتني للحاق بها. لمَ لا؟ أســـرعتُ، فاقـــدة الأعصاب، إلى مربّع الشخصيات الهامّة جدّاً VIP نحو أريكـــة ناصعة البياض، شاغرة من أيِّ كائن بشري، والتي أدركتُ فيما

* Sixty Minutes -المترجم-

بعد بأنّها محجوزة لاوبرا! كأنني أُعدمتُ بالكرسي الكهربائي، فهضت ورحتُ أنضمّ إلى جموع الراقصين. تفرّست امــرأةٌ فيّ؛ اقتربت منّي وبنبرة حازمة، قالت: « غداً، ســأقرأ كتابــك.» أخذتني بين ذراعيها، وبمودّة زائدة، كتعاهــد بــين النــساء، كرّرت: « أعدكِ بذلك. » لم تكن تلك المرأة سوى اوبرا.

في طائرة العودة، حلمتُ بذلك البلد، بلد كلّ الممكنات، حيث لا سنّ اليأس ولا العقم ولا السجن سيمنعني من تــرميم حياتي. لِمَ لا؟ ولكنّنا بعيدون عنه. كنّا، بالتحديد، في جنتيلي، كنتُ معَ ايريك الذي أعددتُ له طبقاً من اسكالوب بصلــصة كريما الفطر مع المعكرونة. رنّ الهاتف، كانت الساعة العاشــرة مساءً. أوه، كلاّ. إنّه صوتٌ ناعمٌ أبــان عــن نفــسه باللغــة الإنكليزية. دعتني اوبرا إلى برنامجها، في أيار 2001. ســتختار الكتاب لناديها، وللمرّة الأولى في مهنتها، طلبت منّي الحضور إلى البرنامج حيث سيكون عليّ الردّ على أسئلة لجنة نــسائية منتقاة من بين أربعة آلاف مرشّحة.

البقية تخبر عنه وقائع النشر: باع الناشر الأمريكــي مــا يقارب 700000 نسخة. ولكن ليس لهذا أيّة أهمية إذا ما قارنته بالتأثّر الذي كان يسود تلك المنصّة.

حينما سأعود في عام 2002، لتسويق كتــاب الجيــب، سيهمس مشاهدان، واقفين أمام استديو التلفاز، لدى اقتــرابي: «هذه أميرة المغرب.» وهذا دليلٌ على أنّ المرء لا ينجــو مــن قدره، وان كان وهمياً! إنّ إغراء الشهرة وقتي وزائل. ولكــن الأمريكيين أدركوا أن لغة الألم كانت شاملة، وأنّ رجلاً أُعتُبِر

كأب يضعك لعشرين عاماً في سجن للأشغال الشاقّة، هذا أمرٌ يتجاوز الحدود. وجب علي أن أراقب أقوالي، لأنني لم أكن أريد إطلاقاً أن يتم الخلط بين بغضي الشديد للملك وبين البلد الرائع جدّاً الذي كنتُ أشجّع الناس على الذهاب إليه.

الولايات المتّحدة: لم أتوقّف عن التجوال في هذا البلد العملاق. كلّ شيء هنا مفرط فائق الحدود. شرائح اللحم الكبيرة التي تكفي إضافة القوائم إليها لتصير أبقاراً، وبالإضافة إلى الكميات الكبيرة من البطاطا؛ حتّى ولو كرّرنا أنّ الطعام الأمريكي لا يساوي مآثر الذواقة الفرنسية، فأنني من جهتي لا أرى في ذلك سوى فورة كرم. حرّرني المخزون الشامل من خجلي الباريسي: هنا، لم أعد أتخفي أن أجمع، وصرت على مرأى ومسمع من الجميع، وبمعرفتهم، الأكياس المخصّصة لإطعام الكلاب التي تتكدّس في الفندق. سوف لن أتناول كما في باريس رقائق البيتزا ونصف شريحة اللحم أو البطاطا الباردة.

ما دام علي أن أجمع، شنيتُ غارة على المنتجات الصغيرة، من مراهم وشامبوان وعيدان القطن المنشّفة للأذنين، وألواح الصابون الصغيرة، التي تضعها أياد غير مرئية كلّ يوم في حمامات الفندق. إنّها جذابة للنظر، متقنة الصنع، مدموغة بشعار الفندق، منمنمة كأنّها لوازم دمية... لابدّ أن تكون في أمريكا حتى تحظى بترف يتجدّد يومياً دون أن يُطْلَب منك قرشاً واحداً. سرعان ما اضطررتُ إلى استخدام كيس ثان، امتلأ بتلك الكنوز التي لا تنضب أبداً. إنّ ايريك هو مَنْ سيكون سعيداً!

سيكون سعيداً على نحوٍ خاص بالمصير المذهل الذي سيّر شهادتي تحت أنوار المسرح، متيحاً لي طرد مَنْ تبقّى لي من العفاريت. الكتاب نجاحٌ، رُدّدَ ذلك على مسامعي كلّ يوم؛ حتى أنني وقّعت نسخاً وسط الشارع، وكأنّ الكلّ كان يعرف بعد الآن حكايتي. إنّها هنا، إنّها ثأري، انتصاري: أن أصرخ في وجه العالم، في مواجهة الحسن الثاني ورغم أنفه، بالرعب الذي أذاقه لعائلتي ولآلاف الناس الآخرين. انكسر الصمت. لقد دوّت فرنسا أوّلاً، والعالم الناطق بالفرنسية، ستة وعشرون بلداً في العالم، وأخيراً القوة العظمى أمريكا، بهذه الصرخة التي أحيت اسمي، اسم والدي. ماذا بوسعه أن يفعل هذا العاهل المطلق السلطة ليُحيل بإشارة من إصبعه حياة عائلة بأكملها إلى جحيم سجْنيّ؟ لا شيء. ولا حتّى إجراء بسيط، ولا توقيف عابر. لا شيء. ليس بوسعه سوى أن يُصغي إلى صوتي، القادم من كلّ مكان، من نيويورك وغيرها من المدن، صوتٌ أتمنّى أن يكلّفه بعضاً من الحسرة والندم.

سلكتُ من جديد طريق باريس، محمّلة بالأكياس والذكريات، حيث ينتظرني من أزداد شوقاً إليه كلّ يوم. أنا خاوية ومتخفّفةٌ ومنهوكة القوى وسعيدة في آن. لحظة صعودي إلى الطائرة، ذكّرني انقباضٌ خفيفٌ في قلبي أنّ جزءاً صغيراً منّي سيبقى في هذا البلد، لأنّه يبقى بلد المنفيين والمهاجرين الذين لا وطن لهم. أنا أيضاً، هبطتُ من **Mayflower** أو **Exodus**، هاتين الباخرتين التائهتين، المليئتين بأرواحٍ حزينة، متعطّشة إلى إعادة البناء. لم أعد أملك جذوراً، وإذا كانت التربة الأوروبية

عصيّة على مَنْ يحاول الاستقرار فيها، فإنّ تربة هذا البلد سهلة الحراثة، مُريحة، تكاد تكون مفتوحة لكلّ من يريد أن يُزهِرَ فيها.

سأستقلُّ Mayflower مرّة أخرى إلى ميامي. حيث شعرتُ هنا في هذه المدينة الساحلية، ذات المسحة الإسبانية، المجتاحة من قبل المهاجرين من كلّ الأجناس، بأنّه من الممكن البدء من جديد، أكثر ممّا في لوس أنجلس، التي لدي فيها العديد من الأصدقاء. Ocean Drive: إنّه حلمٌ. وجدتُ نفسي فيها بحالة جيدة، وبدا لي أن نفس التصرّف أسهل هنا. أقمتُ فيها، مع نوال وايريك، مغسولة من ماضيٍّ، شبه عذراء، أعمل في مكتبة على الكتاب الذي تقرؤونه في هذه اللحظة. انضمّ ايريك إليّ بعد عامٍ من انتقالي. لا شكّ أنّ خطأي الوحيد هو انشغالي بالسياسة. تابعت الجدل بين جورج بوش وجون كيري بوجوم. الغريب أنّه لا توجد نفس الدرجة من حرية إبداء الرأي السياسي في الولايات المتّحدة كما هو في فرنسا، بل وأحياناً، كما هو في بلدي، في المغرب. مَن لم يقرأ السجينة خفيةً؟ لم يكن بوش يُنتَقَدُ حينذاك. بعد 11 أيلول 2001، لم أكن أعرف ما سيكون ردّ فعل أصدقائي الأمريكيين. أيمكن أن أكون مسلمة متطرفة؟ بعد ذلك بشهر، وخلال مؤتمر، كنتُ مقتنعة بأنني قد أُرفَضُ بتهذيب. مطلقاً: لقد صُفّقَ لي. كنتُ حرّة. الآن، ومنذ تبنّي آدم، أعيش بين ميامي ومراكش.

موت ملك

ظلّ الهاتف يلاحقني برنينه، إلى أن انتزعني من نومي. نحن في 23 تموز 1999، وما من شيء يسوّغ لي القول بأن جراحي ستنفتح من جديد دفعة واحدة. رفعتُ السمّاعة، تعرّفت على صوت صباح، التي تتّصل بي من الدار البيضاء لأجل السرّ الأعظم. صباح صديقتي منذ زمن غابر، يمتدُّ إلى أربع وثلاثين سنة. لأنّها كانت صباح، ولأنني كنتُ مليكة.

– لقد مات، همست.

مات! احتجتُ إلى بضعة لحظات لأستعيد أنفاسي.

– هل سمعتِني؟

– نعم، سمعتُكِ.

سوف لن أسألها، في أيّة لحظة، عمّن تتكلّم. أعرفُ عمّن تتكلم. ذاك الذي لا يُلفَظ اسمه، إنه ليس اللّه وإنّما هو الحسن الثاني، عاهل المغرب، الذي كان ظلّه يخيّم على البلاد منذ أمد طويل جدّاً بحيث كان يُعتَقَد بأنّه خالدٌ. لقد برهن أمير المؤمنينَ على أنّ ذوي السلطان يموتون أيضاً، وأن السلطة، وان كانت مطلقة، لا تحمي من الاستحقاق المقدَّر. لم يمنعني ذلك، ما أن أغلقت سماعة الهاتف، من العجز عن العزم على الإيمان بذلك؛ فتمثال الفارس الآمر، المتثبّت عميقاً على قاعدته، بدا لي- كما للجميع- أنّه خالدٌ أبدَ الدهر. طيلةَ حياة، صقّلتُ عليه ظنوني، وأسئلتي، وحزني وكراهيتي... أيمكن، في لحظة، بمكالمة هاتفية وحيدة، أن يزول من على وجه الدنيا؟

بي حاجة إلى التأكّد من الخبر، إلى جعله رسمياً، إلى أن أرى وأسمع. تناقلت جميع محطات التلفزة الخبر، بالانكباب على عرض محطّات موجزة عن حياته، وبثّ صورٍ من الأرشيف: الحسن الثاني شابّاً، الحسن الثاني كهلاً، الحسن الثاني عجوزاً. كان يُرى في كلّ مكان، راجلاً، في السيارة، محيّياً الحشود، في الشرفة، في الصورة الرسمية، مسافراً. الكثير من المصافحات، في الغرب، في الشرق، في الشرق الأوسط، الكثير من الابتسامات المتخثّرة على الشفتين، الدبلوماسية... يكاد المرء، وهو يراهم يتتالون في الإيقاع المتقطّع للتقارير، يعتقد أن جميع قادة القرن العشرين يتقاطرون في طابور لالتقاط الصورة العائلية رفقة ملك المغرب. لم يبرد بعد جثمان الحسن الثاني، حتى بات من التاريخ... لم تنضب التعليقات التي دوّت في أُذنَيّ من المدح والثناء لهذا الرجل العظيم الذي تأسّف عليه كلّ صحافيّ كأنّه والده، وقد اختنق الصوت بتأثرٍ إعلامي.

في اليوم التالي، منذ السابعة صباحاً، تواعد كلّ ما يضمّه العالم الناطق بالفرنسية من وسائل الإعلام أمام باب داريّ، مسبّبة خيبة أملٍ كبيرة لايريك، الذي كان يفكّر في تناول الغداء بهدوء في انتركوت، تحت شمس تموّز.

– إنّهم في الأسفل، قال لي بابتسامة منكسرة.

حقّاً، إنّهم في الأسفل، من TF1 إلى M6 مروراً بالتلفاز البلجيكي، والقنوات البرقية، والإذاعات وبعض الفضوليين، المنجذبين إلى العدسات كالفراشات إلى الأنوار. انهالت علي الأسئلة. الأسئلة ذاتها، دائماً ذاتها.

– ما هو شعورك؟

ما هو شعوري؟ أنا نفسي أجهل ما هو شعوري. قلقٌ كبير بشأن انتقال السلطات، ومستقبل المغرب، ومصير أصدقائي الباقين في البلاد. ولكن ليس هذا ما جاء الصحافيون ليسمعوه... لقد مات جلّادي؛ فهم هنا ليروني أقفز فرحاً للخبر. كالصور التي سيبثّونها تحت العنوان: « أوفقير، تحريرٌ ثان »، أو شيء من هذا القبيل. وبما أنني لم أبدي أيّ نوعٍ من الارتياح والسرور– لم أشعر سوى بفراغٍ منتشر، فكيف سأظهر فرحاً؟– جرت محاولة تقويلي ما يودّون سماعه:

– لا بدّ أن يكون هذا عزاءً لكِ!

– هل تشعرين بنفسكِ أحسن حالاً؟

كلاّ، هذا ليس عزاء لي، كلاّ لا أشعر أنني أحسن حالاً. لقد تبخّرت عشرون عاماً من حياتي في بطن الغول، لن يعيدها لي موته. ولن يعيد لي والدي. لقد مات جلادي ميتة رضيّة، في سريره، مع أمجاده، وجميع محطات العالم تنعيه هذا الصباح.

شرحتُ، بهدوء، أن أفكاري الوحيدة تهب اليوم نحو المغرب، وأنني لستُ سعيدة ولا حزينة لموت الحسن الثاني، وأنني أتمنّى أن تصل البلاد إلى برٍّ الأمان. ولكن لم يُرَدْ أن يُسمَع رأيي.

– ولكن، في المحصّلة، لا بدّ أن سماع الخبر قد ترك فيكِ أثراً غير عاديٍّ.

- أثرٌ غير عادي، نعم.

- في المحصّلة، هذا انتقامٌ بعض الشيء، أليس كذلك؟

- كلاّ، أبداً.

رغبتُ في أن أضيف: «آسفة »، لفرط ما بدت عليهم خيبة الأمل.

غادر الصحافيون، متأبّطين كاميراهم، خائبين، دون ضحكات أو دموع «في جعبتهم»، لا شيء يترك أثراً عميقاً في نشرة أخبار الساعة الثامنة.

كانت الخيبة كبيرة لدرجة أنّه بعد نفاذ جميع الوسائل، استخدمت إجاباتي الموجزة لتأكيد أنني، وعوض أن أفرح لموت الملك، بكيتُ له. فبالنسبة لوسائل الإعلام، إمّا أن يكون المرء فرِحاً أو مستاءً، ولا وجود للألوان الأخرى. قرأتُ في الصحف بأنني كنتُ أسعى لإرضاء النظام الجديد بإظهاري حزناً شديداً. بل إنّ صحافيّاً أكثر وقاحة من الآخرين انهمك في تحليلٍ نفسانيٍ نابه، مبرهناً، من خلال A+B، على أنني كنتُ مرتعاً لتناذر* ستوكهولم: الضحية المغرمة بالجلاّد.

لا شكّ أنني كنتُ سأبدي فرحاً لو أنّ الحسن الثاني كان قد أقرّ بأخطائه قبل مماته، لو كان اسم عائلتي قد بُرِّأ علانيةً، لو أنّ الصورة العامّة للجلاّد قد أُغشيَت بكشف انتهاكات النظام وتعدّياته. ولكنّه رحل معطّراً، مبَخَّراً، على مَحرَقة جنائزية

* التناذر: تزامن أعراض مرض من الأمراض -المترجم-

تكاد تكون وضيعة، يتدافع من حولها كلّ واحد لكي يظهر في موقعٍ مناسب. فهذا سيحظى بوضع الأكثر محبّـــةً والأفـــضل شهرةً والأفضل خدمةً...

(هذا الصديق العظيم لفرنـــسا)، (هـــذا الـــديمقراطيّ العظيم)، خطب السياسيون، مطنبين، الذين آملين أن يكـــون خليفته حكيماً كوالده...

تركني الحسن الثاني يتيمةً من ألمي، جرّدتني وفاتـــه مـــن باعثي الوحيد للكره والكفاح والتألّم _ ومع ذلك كان ذلـــك الباعث هو ما أبقاني لزمنٍ طويل عائمة في قاع سجني. حـــزنٌ شديدٌ كلّما انقضت الساعات، لأن موت أمير المؤمنين هـــو في بعضٍ منه موتي أنا. فبرحيله المفاجئ دون تسوية حساباته، دفن معه فرصتي الأخيرة لأفهم. لمـــاذا؟ لطالمـــا أردتُ أن يجيـــب، شخصياً، ذات يوم، على السؤال الذي راودني طيلـــة حيـــاةٍ: لماذا؟ لماذا نحن؟ لماذا أنا، التي كنتُ بمثابة ابنته؟

لن أحصل قطّ على إجابة لأســئلتي. وبهـــذه الخـــسارة الأخيرة، هذا الحرمان الجديد من الهوية – هـــويّتي كـــضحية- غادر الحسن الثاني نهائياً من المسرح مع الدور السهل.

– طبعاً، أنت معارضة للملكية، ســـألني صـــحافيٌّ معـــدّ ريبورتاجات، على أمل أنني على الأقلّ سأناهض النظام، إن لم أرقص على قبر الملك.

خيبة أملٍ جديدة: فقد علم بأنني أُؤيّد مبدأ النظام الملكي، لأنني أعلم كمْ هو ضروريٌّ لوحدة بلدي. لم يعد الحسن الثاني،

في ذهني، لا أب ولا جلاد، إنّه شخصية عامّة مفصولة عن الجسد، تركت خلفها بلداً هشّاً، مهدَّدَاً من كلّ تجاوزات العالم العربي المأزوم وعنفه. لستُ مشبَعة بالفكر الإسلامي الذي يريد أن ينحني المرء أمام الموت، ممتنعاً عن النقد، وإنما على الاعتراف للغول الذي خيّم طيلة أربعين عاماً على المغرب بأنّه لم يفعل سوى الشقاء للبلاد. فقط، لو أنّ محمد السادس يستطيع أن يُظهر بأنّه أقلُّ دموية من والده، ويضع استبداد والده وعسفه في عداد كوابيس الماضي، لربّما يتمكّن النظام الذي ورثه أن يكون أفضل ما يكون...

– أفهم، قال الصحافي الذي أدرك في الحال بأنّه سيكون عليه أن يغذّي نزعته التلصّصية في مكان آخر.

لم أرَ قط أثراً لتلك المقابلة في الصحافة...

لمرّتين، سأخيّب أمل وسائل الإعلام؛ فحققت عليّ بما فيه الكفاية لتختلق لي تعليلات أجهلها. فموت جلّادي يتوفرّ على كلّ شيء لاسترجاع وصولي إلى باريس: فقد جرت هذه المراحل الكبيرة في حياتي دون تفجّر الفرح، وحتى دون عزاء. جاء العزاء لاحقاً، تدريجياً، حينما بدأت الكتابة. لأنّ الورق امتصّ كلماتي وذكرياتي، مزيلة العبء عن كاهلي أخيراً. ليست الأحداث ما خفّف عبئي، وإنّما الكتابة.

الآن، وبينما يستعدّ العالم الكئيب لإقامة المأتم للحسن الثاني، الذي لم يحظَ والدي قط بحقّ إقامته، آملُ الكثير من النظام الجديد. كلمة واحدة. كلمة واحدة قد تكفيني. ولكن

لا يتوجّب على ملك أن يعترف، تلك أمورٌ مقدّرة لعامّة الناس، لأولئك الذينَ يُرمَون في السجن. إنّ ملكاً، مثله مثل قاتلٍ، لا يعترَف بعدالةٍ غير عدالته...

أمّا الشعب، فليس ميّالاً إلى النسيان، وهذا ما يمنحني، منذ سنوات طويلة، القوة في المزيد من الأمل: منذ إطلاقي من السجن، عام 1991، كان رجال الشرطة يحيّونني باحترامٍ عند كلّ إشارة مرور، وهم يرفعون يدهم إلى مقدّمة خوذاتهم. أيُّ مفارقة أن نرى الرجال الذين كانوا في الأمس جزءاً من حراستنا اللصيقة، يقتربون منّي وسط الشارع ليؤكّدوا لي إعجابهم، وتعاطفهم المطلق مع والدي...

في كلّ أنحاء المدينة، توقف قوات النظام السيارات لتتيح لي المرور. لا شكّ أن بلدي هو الوحيد الذي يجتاز فيه المرء، الخارج للتوّ من السجن، التقاطعات كشخصية فائقة الأهمية VIP، دون تقيّد بالإشارات الضوئية، تحت دقّات صفّارة رجال الشرطة. طبعاً، هؤلاء الرجال يراعون نظام المخزن، الذي يحكم المغرب، ويحدّد عن قرب السلطة الإلهية للملك وخدمه. لا يغتابون النظام، لكنّهم يحيّون باحترام ذكرى والدي، هذا الوالد الذي أُعدِم من قبل العاهل الذي يخدمونه.

والمفارقة هي أنّ الانتقام الوحيد، التعويض الوحيد الذي سيحمله إليّ موت الحسن الثاني سيأتي من الحقل الذي لم أكن أتوقّعه: الصحافة. إن أسوأ ما يمكن أن يحصل لرجل دولة ليس هو النميمة وإنّما النسيان. والحال أنّ المغاربة يجيدون أكثر من غيرهم اللجوء إلى نوعٍ فريدٍ من النسيان: بالكاد مرّت عدّة

أسابيع على موت الرجل العظيم، ولم تكن الصحافة تتكلّم عنّه إلا نادراً. وربّما لأنّه دخل التاريخ، كان سبق وقد هُجِرَ حتى قبل انتهاء الحداد، ولم تعد تهتمّ الصحف أين اختفى وجهه...

الصحيفة اليومية الكبرى للبلاد- التي كانت، أثناء حياة الملك، صوت الحكومة- تجرّأت أخيراً على أن تنشر على صدر صفحتها الأولى إعادة النظر في القضية التي تحمل اسمي. لا اعتراف، ولا اعتذار من القصر، ولكنّ الصحافة، المتحرّرة من الخوف الآن، لم تتردّد في أن تنطق، للمرّة الأولى منذ عشرين عاماً، باللقب الملعون لعائلتي. وللمرّة الأولى، شاهدتُ صورة أبي تنتشر كبيرة على الصفحة الأولى، في حين أنّ صورة الملك، في زاوية متواضعة تكاد تكون باهتة، صغيرة جدّا بحيث يجب الاقتراب منها حتى يتم التعرّف عليها.

الولادة الجديدة

منذ بضعة أيام، وُجِدَتْ *تزمامارت*، لأنّه لم يكن لتزمامارت، الواقعة في جنوب-شرق البلاد بين ميدلت والراشدية، وسط الصحراء، وجودٌ رسميٌّ. حتى أنّ برلمانيّاً مغربياً، لا يعدَم الوقاحة، كان قد ردّ على سؤالٍ لإذاعة غربية: « لم يكن هذا السجن المزعوم موجوداً قط سوى في خيال أعداء ديمقراطيتنا.» وبضربة عصا سحرية: العفو الملكي، انفتحت أبواب ذلك السرداب الفظيع في عام 1999، ونجا ثمانية وعشرون معتقلاً من النسيان، أي من الموت. كانت أعمال هذا اللا مكان قد بدأت عام 1971، مستودعاً لذخائر الجيش، وقد حوِّل إلى حصن ضمّت زنزاناته الستّون السجناء السياسيين. كانت الزنزانات على مقاسٍ مماثل، طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف، مع تَرَف حفرةٍ تغوّط وموضع قدمٍ على كلٍّ من جانبيها. وصحنٍ وغرّافة وإبريقٍ ماء، كانَ يُستَخدَم، في آن واحد، للشرب والاغتسال وتنظيف الألبسة. البعض قضى هناك أكثر من سبعة آلاف ليلة دون أن يأخذوا قطّ دوشاً ساخناً. وحمل آخرون، مثل عائلتي، السجن في داخلهم.

هكذا، بعد سنين كثيرة من حداد لا ينتهي لعائلات أولئك الذين لم يعودوا إليها أبداً، قبِل محمّد السادس بما لا يُقبَل به، وأنا ممتنّة له على ذلك. نعم لقد أُرسِلَ إلى هناك سجناء سياسيون بالمئات، منهم عسكريو انقلاب تموز 1971 في الصخيرات ومتمرّدو آب 1972 (أنصار والدي). نجا منهم

ثمانية وعشرون فقط. ماذا جرى للآخرين؟ تلاشوا، ذهبوا هباءً منثوراً. هيا اعرفوا.

لحقتُ بالطابور الطويل للسيارات الرباعية الدفع التي سُمِح لها أخيراً بالذهاب إلى أطراف المعسكر، مخنوقة تملأ الدموع عيني. هناك على مقربة بضعة مئات من الأمتار من المكان حيث ذاب آباؤهم وأزواجهنّ وأخوتهم في الرمل، استسلم أصدقائي للمضي في حزنهم الأوّل الذي لم يكن مصبوغاً بالغضب. كم كان عددهم؟ العشرات، المئات؛ فبين أُسَر الضحايا والجمعيات الإنسانية والصحافة لم يعد يُميّز سوى كيانٌ تضامنيّ، سلسلة من الألم. انتهى كلّ شيء، أخيراً. يبقى الشروع في الحداد. وضعت المعركة من أجل الاعتراف بوجود تزمامارت أوزارها.

تزمامارت موجودة، وعاد نجل بن بركة صحبة عائلته إلى البلاد، وعاد إبراهيم صرفاتي من المنفى. ووضع طيّاران ناجيان كتاباً حول معسكر الموت، نُشرَ في المغرب. ورفعت الحقيقة، شيئاً فشيئاً، غطاء تابوت مثقَلَ بأربعين عاماً من الطغيان. بقي جانبٌ وحيد مغطّى بيأسٍ: ذلكُ الذي يخيّم على عائلتي. لأنّه، لسبب أجهله، لم يجرِ الحديث عن رفع قانون الصمت بما يخصّ «قضيةً أوفقير». ولا يزال كتابي –السجينة– ممنوعٌ في المغرب. لا يزال يُنْكَر على عائلتي، بمقتضى التعسّف الملكي، الحق في أن تكون ضحيّة. وإلى متى؟ طيلة حياتي، ربّما. يبدو أنني سأدفع إلى الأبد ثمن جريمة لم أقترفها. ولكن ما همّ، فثأري الأجمل هو هذه الحياة الجديدة التي لم يَعُد من الممكن انتزاعها منّي، وان كانت أليمة جدّاً.

ولكننا لا نألف بمفردنا عالماً عدوانياً. لقد انتشلني رجل حياتي من الجحيم؛ وعلّمتني امرأتان العيش من جديد. امرأتان متشابهتان ومختلفتان في آن، أُدين لهما ببذرة الصفاء التي تكبر فيَّ يوماً بيوم.

الأولى، هيلين بامبر، وهي ليست سجينة للمرّة الأولى فقط: ففي عام 1945، في سنّ التاسعة عشرة، كانت هذه المرأة الاستثنائية تذهب إلى معسكرات الاعتقال المحرّرة لتوّها، لكي تعالج وتسمع وتخلق الحياة من جديد عند أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم موتى. منذ ذلك الحين، كانت على كلّ جبهات الشقاء، في كلّ مكان احتاجت إليها الأرواح والأجساد الممزّقة؛ ومع ذلك بقيت ذكيّة النفس، شفيفة الروح كيومها الأوّل. دون ذرّة من المرارة أو الخيبة...

إنّها هي من علّمتني أن أتحمّل الحقد والتمرّد اللذين كنتُ أخفيهما بداخلي. هي التي ساعدتني على إطلاق صرختي الأولى، صرخة أوّلية لولاها لكنتُ قد بقيتُ بلا شكّ خائرة القوى بقية أيام حياتي. وبينما كان الغضب مستمراً، وبينما كنتُ أحاول كظم الحقد المخيف داخلي مخافة أن أغدو أسوأ من جلاّديَّ، دفعتني هيلين إلى أن أعبّر عن نفسي بصوت عالٍ. حينها اتّضحت الرؤية أمام عينَي: المشاعر المُلجَمة، المكَمَّمَة تستحيل حمضاً حارقاً وتنخر شيئاً فشيئاً الأسس الهشّة التي لا تزال تسندني.

– إنّه أمرٌ يبعث على الجنون، ليس لديها حقدٌ على أحد، كان يُقال عنّي، بإعجابٍ كاملٍ، طيلة سنوات.

وكنتُ أمدُّ الخدّ الأيسر، متشجّعة بمدائح أولئك الـــذين كانوا يضعوني في مصاف الأم تريزا. ما كانوا يجهلونه، وأجهله، هو أنّ الضغينة التي أمتنع عن الإفصاح عنها كانت تنهك جزءاً ما في داخلي، مستورة بأقوالٍ كنتُ أريدها سلمية. والحال أنني أعرف الآن، ممّا تعلّمته من هيلين بامبر، أنّه لا يمكن للسلام أن يولَد إلاّ حينما يُصفّي المرء حساباته الخاصّة. وأنـــا واقعـــة في شرك صورتي كسجينة، غير قادرة على إبداء أيِّ شعورٍ عنيف، كنتُ ألعب دوري كضحية بدقّة متناهية.

– اخرجي من ذاتكِ، تخلّصي من هذا الجلد الـــذي هـــو ليس جلدكِ.

كانت هيلين على حق. الحقد، ما أن يُلفَـــظَ إلى الخـــارج، يخفّ ويتلاشى، لا يتبقّى منه في الحال سوى الإحساس بالتنفّس على نحو أفضل، والحريّة في الحب أو الكراهية، لـــيس بالمبـــدأ وإنّما بالاختيار.

لقد تخلّى والداي عنّي، كان سيلزمني كلّ هذا الوقـــت لأقول هذا. في الأربعين من عمري، أستطيع وأجرؤ على تأكيد ذلك، لقد قطعتُ– بمساعدة هيلين– الحبل السرّيّ.

صاحبة الفضل الثانية علي تدعى اوبرا وينفراي، وهـــذا الاسم لوحده يفتح، في الولايات المتحـــدة، كـــلَّ الأبـــواب (العروض الجماهيرية الضخمة تكاد تكون مفتاحـــاً ســـحرياً في العالم الحرّ). التقينا في عالمها المزركش، ذلك العـــرض غـــير العادي الذي ترتاح فيه مثل القِرَشة المنتشرة فيه. ولكن اوبـــرا

على النقيض من أترابها: إنّها إن صحّ القول 1% من الإنسانية التي تنسجم معها المحطّات الكبيرة، كي لا تخضع تماماً لثقافة الربح. إنّها تقدّم منبراً للطبقة الوسطى، لضحايا الرعب والظلم. طبعاً، سبقها آخرون إلى فعل ذلك، وليس دائماً لدوافع غَيْرية. لقد شاهدتُ برامج لا تُعدّ ولا تُحصى كان الشقاء يُشبِع فيها، على نحو مريب، نهم المشاهدين.

ولكن اوبرا ليست من أولئك الذين يستغرقون في المجاملة. بعد الحقّ في التمرّد، أتت بعد هيلين بامبر لتعلّمني الحقّ في السعادة. لأنّها عرفت أفضل من أيّ آخر أن تكشف « تمثّل دور الضحية»* في شخصيتي، وزعزعت القدر الذي كان يمنعني من الطموح إلى السعادة.

– هذا القدر غير موجود، أنتِ مَن خلقته.

أيتعلّق هذا بالمرحلة الأخيرة من ولادتي الجديدة؟ بقي أن أكون سعيدة، وهذا ما يصعب عليّ كثيراً الاقتناع به. في نهاية مقابلتي، قالت اوبرا جملة، ترنّ كلّ يومٍ في ذهني:

– قولي لي بأنّك قادرة على أن تكوني سعيدة.

وفي ظلّ الانفعال المساعد، وتحت سحر مقدّمة البرنامج، ومدفوعة بالضغط الإعلامي، أجبتُ بنعم. تحت موجة التصفيق والتهليل. دون تفكيرٍ بذلك، ودون تصديقٍ لذلك. أو ربّما مصدّقة ذلك في لحظتها... اليوم، لا أعرف إن كان بإمكاني أن أكون سعيدة؛ فالمستقبل سينبئني بذلك بلا شكّ، إلاّ إذا مررت

---

* victimization -المترجم-

بجانب السعادة دون أن أراها. أكاد أكـون كـذلك الـشيخ الجميل الذي مثّل دور دراكولا لعشرين عاماً متتالية: وإذ بات فريسة دوره، كان ينام كلّ مساء في نعشه، وانتهى الأمر بدفنه في مشْمَله الأسود ذات البطانة البنفـسجية. التـصق دوري كضَحية بجلدي بشدّة بحيث أخشى ألاّ يمكنني الـتخلّص منـه أبداً. هل سأُدفَن في جلدي كسجينة؟ المرأتان اللتان حثّتاني على الولادة من جديد أكّدتا لي بأن لا. لقد منحتني هيلين الأسـنان لكي أعضّ، بالضبط؛ ودفعتني اوبرا إلى أن أطرح على نفـسي السؤال الأهمّ. لا أعرف شيئاً عن قدرتي على بلوغ الـسعادة، ولكن بالنسبة لهما سأبذل أقصى جهدي...

يومياً، أشاهد برنامج اوبرا، مع ذلك الـشعور الغريـب بأنّها تتوجّه إليّ وإليّ وحدي. كتاب الطقوس هذا الذي يـثير أحياناً سخرية ايريك، يمدّني بالطاقة التي احتاجها للبحث عـن تلك السعادة التي غابت عنّي كثيراً. أحسُّ بأنني أُعيد شـحن بطارياتي وأتشبّع بالطاقة الإيجابية لصديقتي. قلّمـا نتحـادث، ولكن برنامجها أشبه بموعد معها... يلزم الكثير في سبيل إيجـاد السعادة. فضلاً عن ذلك، يبحث الملايين من الناس الـذين لم يعرفوا لا السجن ولا الرعب عن السعادة (فلنأمل ألا يكـون هناك عددٌ من النماذج المحدودة منها)، دون ضمانٍ بالنجاح.

بكتابة تتمّة السجينة، أعرف أنني أتخلّص مـن الـشقاء. أصبح طبيعية، إن صحّ القول. سواء كان هذا أسوأ أم أفضل، سوف لن أكتفي بذلك.

التعويض

المال لا يُعوّض ولا يُصلح ما فات. ومع ذلك، وبمساعدة الدولارات والفرنكات والدراهم يضمّد العالَم جراحَ الذين حطّمهم. أهو خطأ قضائي؟ عشرون عاماً من السجنِ لكوني ابنة أبي؟ إنّ شيكاً سيعوّض كلّ شيء في حينه. يجلُّ الناس الأحرار المال كثيراً لدرجة أنّهم ينتهون إلى التصوّر، بكلّ حسن نيّة، إنّ بوسعه طمس كلّ شيء. غالباً ما تساءلت كيف كان يُظنُّ ذلك في سبيل تحويل إجحاف إلى نقود... كم من المال لقاء سنة في المستشفى أو لقاء شهرٍ من السجن أو لقاء ساق ناقصة أو لقاء قريب دُهسَ بحافلة؟ كلُّ شيء يُحسَب، أكثر أوَ أقلّ ثمناً، حسب البلْدانَ، حسب المحامين. إنّها لعبة لوي الأذرع، الشاكي ضدّ القضاء، الأوّل ساعياً إلى ابتزاز أقصى ما يمكن من المال من الثاني، والثاني باذلاً أقصى ما لديه ليلمّ حق السنتيم. الأكثر سخريةً هو أنّ أفضل المعوَّضين ليسوا بالضرورة الأكثر تضرّراً وإنّما أولئك الذين لديهم المحامي الأفضل. والحال أنّ المحامي، مثل اللبن الرائب، أفضل حينما يكون أغلى أجراً. والأكثر فقراً، الذين سوف يُعاقبون من المحامي ذي الأجر العالي*، سيكونون الأقلّ نيلاً للعناية ساعةَ التعويض.

في عام 1999، وبينما كنتُ قد يئستُ لزمنٍ طويل من أن أرى يوماً يجري فيه الإقرار بمسؤولية الدولة المغربية عن المحنة

* leader price - المترجم-

القاسية لعائلتي، شُكِّلَتْ لجنة بهدف- أن يكون ذلك متـأخراً خير من ألا يكون أبداً- تعويض ضحايا الطغيان. أو على نحـو أدقّ، لتقديم تعويض مالي إلى الذين دفعوا ثمناً باهظـاً لقـاء « الأخطاء » القضائية الكثيرة جدّاً لأمير المؤمنين.

وهكذا، للمرّة الأولى، ظهر اسمي على قائمة للـضحايا. وإذا استطعت المطالبة بتعويضٍ، فلأنّ هناك خطيئة؛ إذ سيكون هذا الاعتذار الوحيد الذي ستودّ المغرب أن همس به، بطرف الشفاه، جراء سرقة عشرين عاماً منّي. هذا قليل، ولكنّه هائل. وإن وجب الانتظار إلى عامٍ 2005، ليُعلَن بأنّ الإجحاف قد « رُقِّمَ »، فإنني، أخيراً، ضحيّةٌ معتَرَفٌ بها، سافرة، ورسمية.

من جهة أخرى، هذا الاعتراف هو ما دفعني إلى القبـول بالصَدَقة. وهو اعترافٌ يكاد يكون ندماً، فإذا كان قـد رفـع آخر حائلٍ بيني وبين الحرية، فقد أعفى كذلك جلاديَّ، بـثمنٍ زهيد، من مسؤوليتهم. القبول بالمال الذي عُرِضَ علي، هو إلى حدٍّ ما إعلانٌ بأننا متعادلان، الغول وأنا. والموظّف الذي سلّمني الشيك لم يشكّ في ذلك: مدّها إليّ، دون كلمة، دون شـعور، بلذعة ازدراء. ثمّة في نظرته شيءٌ ما ربّما أَمْكَنَ ترجمته بالتـالي: امسكي، خذي مالك واغربي. وأنا واقفة، ويـدي ممـدودة، شعرتُ وكأنني أتسوّلَ، وكأنّه علي أن أشكر على الـصَدَقة. انعكست الأدوار، فأصبحتُ مَدينة لجلادي. اشتُري ألمي، ولن يعود لي قط الحقّ في التشكّي.

لو أنّ أصدقائي لم يفتحوا لي عينَي، لكنت سأرمي الشيك في وجه الموظّف المكّار، لأثبت للجميع أنّه ليس بالمـال، دون

طلب كلمة عفو، يُشترى الألم. ولكنني لم أنسَ نصائح مَنْ يحبونني. رفض التعويض؟ مسألة غير مطروحة. فجلاديَّ ليسوا على شهامة، وسوف لن يجدي عملي الجريء أيّ صدى. سوف توفّر الحكومة مال التعويض، لا أكثر ولا أقلّ.

– ألا تريدين شيكهم؟ رُدِّدَ ذلك على مسامعي، سيبتهجون بذلك!

مع ذلك، لا تتعلّق المسألة بثروة. فقد قرّرت لجنة مغربية مائة بالمائة، أجهل تركيبتها، المبلغ اعتباطيّاً بعد مناقشة ارتجالية. وعلى نحو غريب، لم يكن تقدير الضرر واحداً لكلّ أفراد العائلة: فأمّي وأخي وأخواتي سوف لن يقبضوا نفس المبلغ الذي سأقبضه. وذلك لاعتبارات العمر والجنس والمزاج. سخرتُ من ذلك: سيفيدني هذا المال في أن أقترض لخمسة عشر عاماً، كامرأة حرّة، لأحقّق أخيراً حلمي: شراء بيت لي. حقّاً لي. مكانٌ يخصّني، شرنقةٌ، جُحرٌ. فربّما سيقدِّم لي الاختباء، بطريقة ما، ملاذي الأوّل.

لا شيء سوف يعوّض عشرين عاماً من السجن، ولا عشر سنين، ولا حتّى ستة أشهر. ولا هذا الشيك «التافه»، والبيت الذي سيقدّمه لي. فضلاً عن أنّ مليوناً سوف لن يكون أفضل من هذا. لا قيمة للمبلغ في نفحة الأوكسجين في النشوة التي ستأتي لاحقاً. لأنّه إذا كان لا يزيل الألم، فإنّ جلاديّ قد اعترفوا أخيراً أمام العالم بعذاب عائلتي. لقد بُرِّأ اسمي. وهذا لا يُقدّر بثمن.

يكفي توقيع على قطعة من ورق لأصبح امـــرأة ثريـــة. وإذا كان ثرائي نسبيٌّ تماماً، في نظر ذلك الرجل الطيّـــب ذي الأسمال الذي اقترب منّي لدى الخروج من المحكمة، فإنّني ملكة إنكلترا. إنّه ليس متسول وإنّما طبّاخ، على ما شرح لي. طبّاخٌ لم تفسده الحياة، بحيث سيصبح مشوّهاً بعد بضعة أيام، جـــرّاء غنغرينة سريعة الانتشار. ماذا عساي أن أرى في بؤسه؟ لا شيء أكثر من كلّ الناس الذين يمرّون دون أن يلحظـــوه. ولكـــنني أخذت فرصة الإصغاء إليه، لأنّه أظهر الضيق، ولمرّة واحدة منذ سنين، كاد قلبي أن يكون مرتاحاً.

يحتاج الرجل إلى المال، بالتأكيد. بماذا ســتعيش أســرته بغيابه، حينما تُبتَر ساقه. عشرون يوماً، هـــذه ليـــست نهايـــة العالم... وعده وجيهٌ بمساعدة، ولكن في اللحظة الأخيرة، ظـــلَّ بابه موصداً، وقد مرّت بضعة أيام والطبّاخ يدقّ الباب يائـــساً دون أن يتلقّى ردّاً.

وبعرضه لساقه المصابة بالغنغرينة عليّ.

– لقد جئت في الوقت المناسب، يا صديقي، أنا ثريّة.

أعطيته خمسمائة دولار. وهو المبلغ الذي لم أكن لأستطيع تقديمه لأيٍّ كان لو لم يكن شيك جـــلاديّ في قـــاع حقيـــبتي. عشرون عاماً من السجن لأكون قادرة ذات يوم أن أُتيح لُمعوزِ العيش لعشرين يوماً...كلانا لن نعود سعداء بذلك: هو سيفقد ساقه إلى الأبد، وأنا من المستبعَد أن أستعيد شبابي ذات يـــوم. ولكن ذلك سوف يجنّبه التسوّل والتذلل أمام المارّة وسبر أغوار

البلّور الملون تلويناً خفيفاً لسيارات المرسيدس، لكشف البريق الإنساني في عيون راكبيها.

المال لا يعوّض الخسارة، حتى وان ساعد في تضميد الجراح. شيءٌ واحدٌ في العالم يملك قدرة الشفاء: الحبّ، ولو متصنّعاً، وأيضاً المرتقب بقدر ما يمكن لذلك أن يظهر. حبّ ايريك، طبعاً، الذي تلقّيته بالحقن منذ ولادتي الجديدة، والذي جدّد دمي. ولكن حبّ الآخرين كذلك، حبّ عائلتي وأصدقائي وكلّ الذين نجحوا، بحضورهم ودفئهم ودعمهم، في طرد الأشباح.

عائلة موجودة، قويّة دائماً، حاضرة دائماً، وحتى إذا كنّا موزّعين اليوم في أركان الدنيا الأربعة، فإنّ العلاقة الدائمة التي نُسجتْ بالمحن تفيدنا كملاط يشدّنا إلى بعضنا. نحن نشبه بعض الشيء أغصان الشجرة الواحدة، ملتحمة إلى الأبد حول جذع هو هويّتنا، مع أنّه محمّلٌ بالآلام. لو أننا كنّا قد افترقنا إبانَ السنين السوداء، لما كان أحدٌ من بيننا قد نجا.

منذ إطلاقنا عام 1991، صارعت والدتي، بصبر لا حدود له (السجن مدرسة جيّدة للصبر) لتؤمّن لنا حقّاً في العيش قدر المستطاع مرفوعي الرأس. منحتنا القوّة على مواصلة الصمود. ماذا جرى لميراثنا؟ تطايرت المستندات القانونية هباءً منثوراً حينما أمر أمير المؤمنين بتجريف منزلنا، معتقداً بأنّه يجتثُّ بذلك حتى ذكرانا. إنّ والدتي تدير صراعها من أجلنا أكثر ممّا يكون من أجل نفسها. دائماً، نحن السبب الوحيد لوجود هذه المرأة التي توقّفت حياتها في سنّ السادسة والثلاثين. دائماً، حملتنا بلا

مساعدة من أحد، نحن الذين دخلنا إلى الجحيم في عمرٍ مبكــر للغاية، والذين سعت لأن تمنحهم طفولةً. الآن، تعيش تلك التي ستبقى في نظر العالم أرملة أوفقير بين باريس ومراكش. عمرها 69 عاماً، عمر التنفّس الجهيد، أخيراً. أعرف أنّها أخذت فرصة الحياة؛ لا أحد استحقّ ذلك بقدر ما استحقّته هي.

تزوّجت مريم، وتعيش في باريس كامرأة حرّة، ولكنها لا تزال تحمل آثار السجن. وبسبب هذه الصحّة العليلة، أصبحت نوال، ابنتها، ابنتي أيضاً... ولكن في كفاحٍ حقيقي، لم تستسلم مريم: بعد الحصول على إجازة في علم النفس التربوي (اســم بربري للإشارة إلى الأخصائيين في مجــال الطفولــة في وضــع عسير) أعرف أنها تعدّ مجموعة صور مزيّنة بقصائدها. بالنــسبة لي ، تبقى تحفتها هي نوال...

يبلغ رؤوف 47 عاماً...وهو أبٌ لطفلة صغيرة في الثانيــة عشرة من عمرها، ويصعب علي تصديق ذلك. لــو لم يكــن اللقب رنّاناً، للقّبته بمثقّف العائلة. إنّه عقلٌ أكثر من مفكّر نال الشهادات، ولا زال يحضّر للدكتوراه، ونشر في عــام 2003، كتاباً متميّزاً: الضيوف، يعود فيه إلى جذور محنتنا. أنا معجبــة بأخي، وبهذه القوة المتميّزة التي أتاحت له ألاّ يروي غليله أبداً من المعرفة، هناك حيث نُشِّفَ كلُّ شيءٍ آخر.

إذا كنتُ حرّة اليوم، فهذا أيضاً وخاصّة بفضل ماريا، التي لا تحمل عبثاً اسم قديسة. بفضل فرارها في عام 1996، وبفضل الضجّة التي أجادت إثارتها لدى وصولها إلى فرنــسا، رُفعــت الأغلال أخيراً. لقد هزّت البشر الأحرار، الــذين، خرجــوا،

فجأةً، من غفلتهم... لولاها، لكنتُ بلا شكّ لا أزال طيفاً بنصف حريّة، بلا أسرة وبلا عمل، أعيش على الكرم الزهيد لجلاّديَّ.

أختي أمٌّ لصبيٍّ في الثالثة عشرة، ميشيل، ابن أختي الأوّل...، وتدير بحماسة داراً للإنتاج السينمائي. نادراً ما تتحدّث ماريا عن نفسها- لا تحبُّ التبجّح.

لن تكون صورة العائلة كاملة دون فنانتي الصغيرة، سُكَيْنة، التي استعادت سريعاً سنوات التأخّر بتقديمها للبكالوريا في 96، ومطابقتها بدراسات في القانون قلّما كانت توافقها. التصوير والرسم والنحت، ستنجح في كلّ شيء عدا ما يغذّي البشر الأحرار، العمل في مكتب بلا هواء. في البداية، تاهت لبعض الوقت في الأعمال الصغيرة كوسيلةً للعيش قبل أن تجد نفسها: الآن هي منصرفة إلى الغناء بمهنية حقيقية. أحبّ نصوصها وصوتها وحضورها، ولستُ الوحيدة في هذا ما دام النقد متحمّس لها؛ لدرجة أنّه كُتِبَ بأنّ هناك شيءٌ من بياف* في هذه المرأة الشابّة.

أخيراً، عبد اللطيف، وهو أكثر من عانى بيننا من مشقّة ولادتنا من جديد: ربّما لأن حياةً بُدأتْ (في سنّ الثالثة!) في قاع سجنٍ هي عبءٌ حتى نحن لا ندركه. لقد احتفظ من السجن بشغف لا حدود له بالسماء المفتوحة، وتعلّل طويلاً بالأمل في أن يصبح طيّاراً. لقد طار، أثناء بعض التدريبات،

* إديث بياف، المغنية الفرنسية الشهيرة، 1915-1963 اشتهر أداءها بالقوة والانفعال -المترجم-

ولكنّ شُحَّ المال ، منعه حينها من تحقيق حلمه. أسأل اللّـه أن يجد الهدوء والاتزان وأخيراً الراحة، لأنني أعرف حجم الثقل الذي ينوء به، الثقل الذي قضيتُ سنين كثيرة كي أتخلّص منه.

كيف يمكن نسيان الغصن الذي انضمّ بملء إرادته إلى ذلك الجذع الذي لفظه الجميع كما لو أنّه كان ميّتاً؟ حليمة، التي تركتنا بحزن ولكنّها ظلّت على الدوام في قلوبنا؛ وعاشورا، ابنة عمّ أمّي التي لحقت بنا إلى أعماق الجحيم، وعاشت دائماً وسط العائلة، وناداها الأطفال جدّتي. أعتقد أنّها وجدت السعادة... ربّما ليس تهاون البشر الأحرار، وإنّما السلام الذي هو لنا بمثابة كنزٍ حقيقي.

حبُّ ايريك هو نسغ حياتي. وحبّ عائلتي، هو الملاط الذي أعانني على أن أبقى كاملةً. أمّا الأصدقاء، فقد دخلوا تدريجياً في حياتي، وقد علّموني دون إظهار ذلك أن أتآلف مع العالم. لقد بات بعيداً زمن الأَكَلَة الكبار حيث كنتُ أتساءل، مشلولة، كيف، بل ولماذا، المشاركة في الأحاديث. اليوم، أصدقائي هم متنفسي، الذين لولاهم لكان العالم لا يزال أرضاً قاحلة، حيث كنتُ لأتكور على نفسي تحت ظلّ إيريك. لم يعد الإنسان الحرّ مجهولاً: إنّه يُدعى ناتالي، موريس، ناديا، مارتان، سوزي، وليد، توي، سيرج، اكسيل، كوزيما، بيت، ميريام، كلوديا، بياتريس، اليزابيت، لوران، فيليب، ڤيرجيني، ويللي، دانيال، بريجيت ودانيال، فريد، بابي، اوسكار، كارول، ريما، كريستيان، ڤانيسا، ايڤان، ماتيو... طبعاً دون أن أنسى أصدقاء السجينة بين فرنسا والمغرب ولبنان وأستراليا وبلدان أخرى

أيضاً.

لم أعد الدكتور ليڤنكستون في بلاد الأقزام. لم أعد كائن مرّيخي. لم أعد تلك التي كان العالم بالنسبة لها يختصر في عائلة صغيرة مخفيّة في قاع حفرة. تعلمتُ أن أُحبّ وأن أُحَبّ، وأن أنفتح على الآخر. بقليل من الخبرة، لم يعد الإنسان الحرّ الذي كان يُفزعني أشدّ الفزع، بذلك الرعب. بل على العكس، إنّه جوهريّ أحياناً لتوازني. وأنا لتوازنه، لأنني في النهاية قادرة على مبادلة من يمنحني الحب.

الفهرس

مليكة أوفقير



الغريبة

عشرون عاماً من السجن!!. عشرون عاماً!!

لقد خرج كتاب السجينة. ولاقى من النجاح وحرارة التواصل ما جعله يتصدر أبرز صحف وواجهات مكتبات العالم. وجعل من مليكة أوفقير نجمة في أكبر وأهم محطات التلفزة وفي برامجها الأولى.

لقد كان "السجينة" شهادة مؤثرة عن الألم والظلم، وأيضاً عن البقاء، عن القمع وجشع السلطة، وكذلك عن العبر والرغبة في النسيان من السجن والسجّان، وعن الحريّة ومحاولة الصفح.

ها هي مليكة أوفقير، الحرّة، تواجه مرحلة الخروج مما تركه السجن في الذهن والروح، مما تركته سنوات الغياب عن عيش مجتمع الناس الأحرار.

ومرّة أخرى، بجرأة وكشف، برغبة في عيش الحياة، تكتب عن سجن ما بعد السجينة. عن الناس الذين أحبّتهم، عن الذين ساعدوها في هجنة العودة للحياة كامرأة حرّة.

التنوير
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - هاتف - ٠٠٩٦١١١٤٧١٣٥٧ - ٠٠٩٦١٣٧٢٨٤٧١

توزيع المركز الثقافي العربي
بيروت: ص.ب: 113/5158
هاتف: 750507 1 961+ فاكس: 343701 1 961+
cca_casa_bey@yahoo.com